

جامعة مؤتة

كلية الدراسات العليا

الأزمات في العهد النبوي في ضوء سورة التوبة
دراسة موضوعية

إعـــداد الطالبة

زينب عبد الرزاق الرعود

إشـــراف

الدكتور طالب محمد الصرايرة

رسـالة مقدمة إلى كلية الدراسـات العليـا
استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجـة
الماجستير في الشريعة، قسم أصول الدين
جامعة مؤتة، 2016

الآراء الواردة في الرسالة الجامعية لا تعبِّر

بالضرورة عن وجهة نظر جامعة مؤتة

بسم الله الرحمن الرحيم



جامعة مؤتة
كلية الدراسات العليا

MUTAH UNIVERSITY
College of Graduate Studies

نموذج رقم (14)

قرار إجازة رسالة جامعية

تقرر إجازة الرسالة المقدمة من زينب عبد الرزاق الزعود الموسومة بـ:

الازمات في العهد النبوي في ضوء سورة التوبه"دراسة موضوعيه"

استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في **اصول الدين.**

القسم: اصول الدين.

	التوقيع	التاريخ	
د. طالب محمد الصرايرة		21/7/2016	مشرفاً ورئيسا
أ.د نايل ممدوح ابو زيد		21/7/2016	عضواً
أ.د.أمين محمد البطوش		21/7/2016	عضواً
أ.د. يحيى ضاحي شطناوي		21/7/2016	عضواً

عميد الدراسات العليا

أ.د محمد المحاسنة

مؤته – الكرك – الاردن
الرمز البريدي :61710
تلفون :03/2372380-99
فرعي 5328-5330
فاكس 03/2 375694
البريد الالكتروني
الصفحة الإلكترونية

MUTAH-KARAK-JORDAN
Postal Code: 61710
TEL :03/2372380-99
Ext. 5328-5330
FAX:03/ 2375694
e-mail: dgs@mutah.edu.jo sedgs@mutah.edu.jo
http://www.mutah.edu.jo/gradest/derasat.htm

الإهـداء

إلى روح والديّ الكريمين ...أسال الله العظيم رب العرش العظيم أن يتغمدهما برحمته الواسعة، وأن يسكنهما الفردوس الأعلى من الجنة

إلى زوجي وقرة عيني "أبو محمد" الذي تحمل عناء هذا العمل

إلى قدوتي وشقيقي الدكتور محمد " أبو الحارث " رمز الحنان والعطاء

إلى أبنائي وبناتي الذين شاركوني هذا الجهد لحظةً بلحظة

إلى إخواني وأخواتي الذين أعانوني على إتمام رسالتي بدعواتهم الصادقة

إلى مديرتي الفاضلة التي شجعتني على إكمال دراستي

إلى كل من خدم كتاب الله وسنة نبيه عليه السلام

إلى كل من قدّم لي عوناً بإنجاز هذا البحث بالدعاء والنصيحة

إلى كل هؤلاء أهدي هذا الجهد المتواضع

واللهَ أسألُ أن يجعله في ميزان حسناتي وذخرا لي بعد مماتي.

زينب الرعود

الشكر والتقدير

الحمد لله رب العالمين، الذي يسّر أمري بإتمام هذه الرسالة شاكراً فضله وكرمه وإحسانه، ويطيب لي في هذا المقام وعملاً بسنة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إذ يقول في الحديث الذي رواه أبو هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من لا يشكر الناس لا يشكر الله"[1]، فإني أتقدم بجزيل الشكر، وخالص التقدير إلى الدكتور طالب صرايرة، الذي أشرف على هذه الرسالة لما أفادني به من علمه، وأناته، وحسن إرشاده، الأمر الذي كان له أكبر الأثر وأبلغه في إنجاز هذا الجهد المتواضع، كما وأتقدم بالشكر والعرفان للأساتذة الأفاضل أعضاء لجنة المناقشة، الذين تفضلوا بالموافقة على مناقشة هذا البحث لتهذيبه وإخراجه بالشكل المقبول، كما أن الشكر موصول إلى جامعة مؤتة رائدة الصحوة العلمية في الأردن، وإلى كلية الشريعة فيها بأساتذتها الكرام الذين نهلت من علمهم، وأتقدم بالشكر والعرفان لكل من أبدى لي نُصحاً أو قدّم لي توجيهاً، وأخيراً خالص شكري واحترامي لكل من أسهم في إنجاز هذه الرسالة ... إلى هؤلاء جميعاً مني التقدير والاحترام .

زينب الرعود

([1]) سنن الترمذي، كتاب البر والصلة ، باب ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك، حديث رقم 1954 ، ج 3، ص 403 ، وقال حديث صحيح .

فهرس المحتويات

قائمة الملاحق

الملخص

الأزمات في العهد النبوي في ضوء سورة التوبة
دراسة موضوعية

زينب عبد الرزاق الرعود
جامعة مؤتة، 2016م

يحدد هذا البحث أهم الأزمات العامة الشاملة، والجزئية الخاصة، والصعوبات والمشكلات التي تحدثت عنها سورة التوبة، والتي واجهته عليه الصلاة والسلام في دعوته في نهاية العهد المدني، وتحليل هذه الأزمات، وبيان خطورتها على أبناء المجتمع المسلم والتي كان من أهم أسبابها، غياب الاستقرار الديني والأمني والسياسي ونقض العهود، والفساد المالي والأخلاقي والتربوي، والإساءة لقائد الأمة، ثم الوصول إلى البشائر الربانية، والتفاؤل خلال هذه الأزمات وبعدها، لبيان فضل الله ورحمته من خلال شمول توبته جماعات عدة ابتداءً برسول الله –صلى الله عليه وسلم– والمؤمنين، ثم إعطاءه الفرصة تلو الفرصة في التوبة للطغاة والكفرة والفاسقين، ومن فضله ورحمته تعالى على عباده أن أنزل القرآن الكريم، وأرسل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين، وخصه تعالى المؤمنين بعمارة المساجد، وقبوله الأعمال الصالحة، وكشفت لنا السورة الكريمة عن أخطر أزمة واجهته عليه السلام في هذا العهد ، وهي أزمة النفاق وما أحدثه المنافقون في المجتمع المسلم آنذاك، والتي كان من أهمها إعاقة الجهاد في سبيل الله تعالى وقتال أعداء الدين، والقتال من الأزمات الأساسية التي تحدثت عنها السورة، ولكن في المقابل بينت السورة الوجه المشرق لأهل البيعة المتوكلين على الله تعالى، الذين قدموا أنفسهم وأموالهم مقابل الجنة، وهؤلاء هم من الفائزين برضا الله تعالى في الدنيا والآخرة .

Abstract

Crises in the Prophetic Era in the light of Surat Attawbah
“A subjective Study”

Zeinb Abdul-Razzaq Arrood

Mu'tah University, 2016

This research aims at shedding the light on the most important public and private crises addressed by surah Al tawbah .

(The Repentance).It concentrates on the problems and difficulties face by prophed Mohammad (pbuh) through his Islamic call at the end of civil era. This study analyses challenges and their risk on Muslim society .It also mentiones causes of occurrence of these crises ,the main reasons are the absence of religion faith , in addition to the financial and ethical corruption .It attempts to high light good tidings addressed by surah Al tawbah, It shows how Allah repents his believers and even disbelievers. This research conveys how Al tawbah reveals the most significant crises that is hypocrisy and its impact on Muslims .Finally , this study shows the bright side of righteous and how they sacrifice their money and selves in the seek of Allah .

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أفضل الخلق والمرسلين، سيدنا محمد وعلى آله ومن تبِع هُداه ونهجه إلى يوم الدين، أما بعد:

فإن القرآن الكريم قد قص علينا أحسن القصص للعبرة والتعلم، ولنتجنب ما اقترفته الأمم السابقة، ومن خلال هذه القصص وهذه الأحداث أشار سبحانه وتعالى إلى عدة أزمات وقعت في تاريخ البشرية، وحلل أسبابها وعدد ظواهرها، ونبّه إلى كيفية الخروج منها، وإن سورة التوبة وما تضمنته من موضوعات بارزة في مجالات عدة في نهاية العهد النبوي، وبخاصة الأزمات والتحديات والمشكلات، والنظر إلى الواقع المرير الذي نعيشه سياسياً وفكرياً وتربوياً واقتصادياً وغيرها، هو مما دفعني أن أخوض غمار هذه السورة التي تبرز أزمات ومشكلات وابتلاءات متعددة واجهته عليه الصلاة والسلام وصحابته الكرام، والتي تُنير لنا الطريق، وتبين الحل الأمثل الذي يجب أن نسلكه في عصرنا الحالي لتمييز الأزمات وحلها، وسأتناول بإذن الله تعالى دراسة موضوع الأزمات في السورة وتحليلها موضوعياً، فكان موضوع رسالتي "الأزمات في العهد النبوي في ضوء سورة التوبة" دراسة موضوعية، وفي هذا العهد حدث تغيير شمولي طال مختلف الفئات التي تسكن المدينة وغير المدينة، مما أحدث توسعاً في دائرة المواجهة بين معسكري الإيمان والكفر، ليركب مزيداً من إدارة هذه الأزمة المتجددة، فقد تحدثت سورة التوبة عن أزمات عدة منها البسيط ومنها المعقد المركب، من نقض المشركين للعهود وقطع الله تعالى العصمة معهم، وترسيخ عقيدة الولاء، وأزمات القتال مع أصناف أهل الباطل، وأولاهم أئمة الكفر والمشركين، وقد كشفت السورة عن أخطر جماعة حاربت الإسلام وأهله لتشيع في الأرض الفساد، وتعتبر من أهم وأكبر الأزمات مذكورة في السورة، وهي أزمة النفاق، وغيرها من الأزمات ....، ثم وكلما كثرت مشكلات الأمة وكثر الحديث عن الأزمات والمصائب التي تحل بالمسلمين من فترة لأخرى، كان من المهم في هذا الشأن النظر إلى كيفية استثمار الأزمة ورفع اليأس والجزع عن الأمة المكلومة ومحاولة التعرف على الجوانب الإيجابية والبشارات والقيام بأعمال تكون خيراً للنفس وللمجتمع والأمة عامة، وهكذا علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد روي في الحديث عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليفعل"[1]، وهنا جاءت سورة التوبة لتبث بين ثنايا الأزمات، البشارات والأمل، لتزرع في النفوس الفرح والتفاؤل، ابتداء من توبته تعالى على عباده المقبلين عليه، وتفضله تعالى بإنزال القرآن، وإرسال سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ليرفع من شأن العرب بالإسلام ليكونوا أمة مستقلة لها هيبتها، سادت العالم باتباع دينها وطاعة رسولها الكريم وقائدها العظيم الذي أخذ بيدها للطريق المستقيم، وأدار أزماتها وحل مشاكلها وواجه تحدياتها، ثم باختصاص أمة الإسلام بعمارة بيوت الله، ثم قبوله تعالى الأعمال الصالحة من عباده المتقين المتوكلين عليه، وخصهم بنيل رضاه، ثم بوعده عباده بالفوز العظيم ودخول الجنة والنعيم الأبدي، نسأل الله تعالى أن نكون من أصحاب الجنات.

أهمية البحث:

تكمن أهمية البحث فيما يلي:

1-بيان أهم الأزمات العامة الشاملة، والجزئية الخاصة في سورة التوبة، وتحليلها.

2-بيان أهمية الالتزام بالعهود والمواثيق.

3-بيان خطورة موالاة أعداء الله تعالى وخصوصاً ما كان مبنياً على أساس القرابة.

4-تناولت السورة خطورة الفساد المالي.

5-تناولت السورة أزمة القتال، وأولاها أهمية "أزمة قتال أئمة الكفر ورؤوسهم".

6-تناولت السورة أزمة النفاق، وكشفت عن صفات المنافقين وخطورتهم على المجتمع المسلم، وبينت لرسول الله والمؤمنين كيفية التعامل معهم.

7-بيان فضل الله ورحمته على الأمة بإرسال سيدنا محمد-صلى الله عليه وسلم-، ثم فضل سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم- على أمته.

8-بيان أهمية البيعة، وضرورتها، وصفات أهلها.

---

(1) مسند الإمام أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أنس بن مالك، حديث رقم 12981، ج2، ص 296 .

9-ربط الأزمات بواقعنا المعاصر للوصول إلى حلول جذرية لمشاكلنا تضمن سلامة الأمة وسيادتها واستقلالها .

10- تناولت السورة البشائر الربانية للأمة المسلمة جماعات وأفراد، أثناء وبعد الأزمات.

مبررات اختيار الموضوع:

- دراسة الأزمات في سورة التوبة دراسة تحليلية ، في نهاية العهد المدني ، وأثره على الدعوة الإسلامية .
- عدم وجود رسالة علمية محكمة تتناول الأزمات في سورة التوبة دراسة تفسيرية تحليلية .
- المشاركة مع طلبة العلم بإثراء المكتبة الإسلامية بكل ما هو جديد .
- حاجة المجتمعات الإسلامية إلى طرح موضوع الأزمات التي اشتملت عليها السورة الكريمة ، وربطها وتجسيدها على أرض الواقع ، والإفادة منها .
- تشجيع مشرفي على هذه الرسالة بطرق الموضوع ، وتناوله في إطار رسالة علمية محكمة .

إشكالية الدراسة:

تكلم كثير من علماء الإدارة وغيرهم في موضوع الأزمات بشكل عام، وكيفية إدارتها، كما وتكلم بعض علماء المسلمين عن أزمات مذكورة في بعض السور القرآنية بشكل عام، ولكن دراستي هذه تكمن في الإجابة على التساؤلات التالية ضمن سورة التوبة: ما هي موضوعات سورة التوبة؟ وما هي أسماؤها؟ وما مفهوم الأزمة من وجهة النظر الإسلامية؟ وما هي أسبابها في السورة؟ وما هي أهم الأزمات العامة الشاملة والجزئية الخاصة، والتحديات التي تناولتها السورة؟ وكيف تعاملت مع أهل الباطل من المشركين وغيرهم؟ وكيف أنهت العهد الذي بين المسلمين وبين المشركين بعد أن نقضوه؟ وكيف يكون جهاد أهل الكفر وأئمتهم؟ وكيف وضعت المنافقين في ساحة مكشوفة وفضحت أمرهم؟ ثم كيف بشّر الله تعالى المؤمنين أثناء وبعد الأزمات ببشارات عدة؟ وما التشابه في البشارات بينها وبين سورة الفتح؟ وكيف فضّل الله تعالى على الأمة بمبعث نبيهم محمد -صلى الله عليه وسلم- ؟

كل هذه التساؤلات هي موضوع هذه الدراسة.

أهداف البحث:

تهدف هذه الدراسة لتحقيق ما يلي:

1- بيان معنى الأزمات في السورة وأسبابها .

2-ابراز موضوع الأزمات في نهاية العهد النبوي المدني من خلال سورة التوبة

3-بيان خطورة نقض العهود .

4-بيان شرع الله تعالى في التعامل مع المشركين وأهل الكتاب والمنافقين، وإظهار القيم المجتمعية للتعامل معهم وإجارتهم في ظل الدولة الإسلامية.

5-بيان فضل الله ورحمته بتوبته على عباده .

6-بيان أهمية الجهاد بالنفس والمال.

7-بيان خطر الاستهزاء بالله وآياته، والإساءة لقائد الأمة .

8-بيان خطورة أهل النفاق في جسم الدولة الإسلامية .

9-ابراز خطر الفساد المالي على اقتصاد الدولة .

10- استخدام الأساليب التربوية المناسبة في المواقف، والتربية على الأخلاق؛ يقلل من آثار الأزمات في الدولة .

11- بيان أهمية العلم والدعوة إلى الله تعالى، والرحلة في طلبه.

12- بيان خطورة الأمراض النفسية على المسلمين جماعات وأفراد .

13- بيان فضل الله تعالى على الأمة الإسلامية بمبعث نبيهم –محمد صلى الله عليه وسلم–.

14- بيان بشائر الله تعالى ورحمته للمؤمنين أثناء وبعد الأزمات في سور القرآن الكريم .

حدود الدراسة:

لقد كانت حدود هذه الدراسة تتمثل بالتقيد بما وردت به الآيات القرآنية في سورة التوبة في بيان الأزمات والمشكلات والتحديات التي واجهته عليه السلام في تلك الحقبة الزمنية من العهد النبوي، وما يتعلق بها من حلول، ثم بيان البشائر الربانية خلال هذه الأزمات في هذه السورة مما يحيي في النفس الأمل، وينزع عنها اليأس والإحباط.

منهجية البحث:

الالتزام بقواعد التفسير بالمأثور والرأي المحمود، وتتبع أصول البحث العلمي، كما وكانت هذه الدراسة تتبع المنهج الاستقرائي لكافة النصوص القرآنية التي وردت في سورة التوبة والتي توضح معاني وموضوعات الأزمات، وإتباع خطوات التفسير الموضوعي للسورة، ووضع رؤية مستقلة لموضوعات السورة ودراستها والتي توضح الأزمات فيها، ونسبة الآيات إلى سورها مع ذكر رقم الآية، ويكون ذلك في المتن لكثرة الآيات، وتحليل وتفسير تلك النصوص من خلال ما ذكره العلماء من مفسرين ومحدثين ولغويين من خلال: تفسير آيات القرآن بالقرآن، و بالسنة المطهرة، و بأقوال الصحابة، وعلماء التفسير إلى يومنا هذا، وتفسيره باللغة العربية وخاصة الغامض والغريب منها، ثم الرجوع إلى كتب الإدارة والدراسات السابقة والمجلات العلمية، ومواقع الشبكة العالمية للمعلومات لتوضيح معاني الأزمات وربطها بواقعنا المعاصر ما أمكن.

الدراسات السابقة:

بعد البحث تبين أن هذه الدراسة جديدة على المكتبة الإسلامية، وأن ما كُتب عن الموضوع من الكتب والرسائل العلمية والأبحاث المحكمة، هو دراسات عامة في مواضيع الأزمات في سور القرآن الكريم، وتعنى معظمها بإدارة الأزمات بشكل عام في جوانب محددة منها، لا بإبراز الأزمات وتحليلها، كما لا تخص الأزمات بشكل خاص ومباشر في سورة التوبة، ومن هذه الدراسات:

1- كتاب الدكتور علي حسن رضوان، تفسير سورة التوبة، ط1، دار الطباعة المحمدية، القاهرة، 1992، وهذا الكتاب يعالج موضوعات سورة التوبة جميعها، واتبع فيه مؤلفه التفسير التحليلي وهو تفسير عام لسورة التوبة، ولم يبرز الأزمات في العهد النبوي وقت نزول السورة .

2- كتاب الدكتورة سوسن سالم الشيخ، ادارة ومعالجة الأزمات في الإسلام، ط1، دار النشر للجامعات، فرع جامعة البنات للأزهر، مصر، 2003م ويمثل دراسة تطبيقية لإدارة الأزمات في الإسلام، حيث جاءت بنماذج متعددة من القرآن الكريم والسنة النبوية، وما كان في عصر الخلافة الراشدة الإسلامي، وعالجت

ذلك من منطلق الفقه الإداري، ولم تخص الكاتبة أزمات سورة التوبة بموضوع مستقل.

3-دراسة الباحث محمد عاصم محمد إبراهيم شقرة، نحو أنموذج اسلامي لإدارة الأزمات، نوقشت بالجامعة الأردنية، رسالة ماجستير، 1995 م، وهذه الدراسة دراسة نظرية، قام البحث بتعريف الأزمة وخصائصها، وأسبابها، وأنواعها ثم بين مفهوم إدارة الأزمات الإسلامية، ومصادر قواعدها الإدارية، واقترح أنموذجاً اسلاميا لمعالجة الأزمات، ولم يخص الأزمات المذكورة بسورة التوبة، فكانت دراسته للأزمات من الناحية الإدارية .

4-الدكتور عبد الله ابراهيم الكيلاني، ادارة الأزمة مقاربة التراث والآخر، ط1، كتاب الأمة، عدد 131، مركز البحوث والدراسات، قطر، 2009م، هذا الكتاب درس فيه الدكتور علم إدارة الأزمة من الناحية النظرية، وبيّن مراحل إدارة الأزمة وطرق التعامل معها، ثم أعطى نماذج عامة من المصادر التراثية على علم إدارة الأزمات من السنة النبوية ومن قصص الأنبياء، وأعطى صوراً من الأزمات التي عرفها التاريخ الإسلامي وتحليل طريقة إدارتها، ولم يتطرق للأزمات المذكورة بسورة التوبة إلا بنموذج واحد منها وهي الأزمات التي واجهت رسول الله وصحابته في غزوة حنين، مبرزاً علم إدارة الأزمة فيها.

5-الباحث فهد بن ناجي الشلوي، دور التربية الإسلامية في مواجهة الأزمات من خلال السيرة النبوية، رسالة ماجستير، أم القرى، 1428هـ، وقد ألقى الباحث الضوء على الأزمات في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم مبيناً المنهج التربوي النبوي في مواجهة الأزمات في العهد المكي، والمنهج التربوي النبوي في مواجهة الأزمات في العهد المدني، ولم يتطرق للأزمات المذكورة بسورة التوبة إلا بنموذج واحد منها وهي الأزمات التي واجهت رسول الله عليه السلام وصحابته الكرام في غزوة تبوك، مبرزاً الناحية التربوية فيها.

6-الباحثة صديقة محمد سليمان الجمل، الهدي النبوي في إدارة الأزمات الاجتماعية العامة، بإشراف الجامعة الأردنية، رسالة ماجستير، 2008م اهتمت الباحثة في هذه الدراسة بإدارة الأزمات الاجتماعية، وكانت دراسة حديثية مبنية

على جمع الأحاديث المرفوعة ودراستها، ولم تتناول الأزمات المذكورة في سورة التوبة إلا ببعض النماذج من الناحية الاجتماعية.

خطة البحث:

يتكون البحث من مقدمة، وأربعة فصول، وخاتمة.

أما المقدمة فتشمل:

1-أهمية البحث.

2-مبررات اختيار الموضوع.

3-إشكالية الدراسة.

4-أهداف البحث .

5-حدود الدراسة .

6-منهجية البحث .

7-الدراسات السابقة للموضوع .

الفصل الأول: مدخل عام:

المبحث الأول : مفهوم الأزمات في العهد النبوي وفيه مطلبان:

المطلب الأول: تعريف الأزمة لغةً واصطلاحاً

أولاً : الأزمة لغةً .

ثانياً: الأزمة اصطلاحاً.

ثالثاً: العهد لغة .

رابعاً: العهد اصطلاحاً.

خامساً: العهد النبوي اصطلاحاً.

المطلب الثاني: الألفاظ القرآنية ذات الصلة بالموضوع .

المبحث الثاني: بين يدي سورة التوبة وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: اسمها وعدد آياتها وترتيبها وتصنيفها.

المطلب الثاني: التناسب في السورة مع ما قبلها وما بعدها.

المطلب الثالث: الموضوعات التي تعالجها.

المطلب الرابع: خصائصها وفضلها.

الفصل الثاني: أسباب الأزمات الأساسية العامة وأشكالها في السورة:
المبحث الأول: أسباب نشوئها، ويشتمل على أربعة مطالب:
المطلب الأول: النسيج المجتمعي غير المنسجم حينئذ.
المطلب الثاني: غياب مقومات الاستقرار الديني والأمني والسياسي.
المطلب الثالث: الفساد الأخلاقي والتربوي .
المطلب الرابع: الإساءة لقائد الأمة .
المبحث الثاني: الأزمة السياسية، أهم أشكال الأزمات الأساسية العامة في السورة، ويشتمل على ثلاثة مطالب:
المطلب الأول : قطع العصمة إلا بإيمانٍ أو أمان.
المطلب الثاني : أزمة الحريات الشخصية ، وإقرار العقوبات.
المطلب الثالث : نزاعات وتحديات في بنية الدولة الداخلية.
المبحث الثالث: الأزمة العسكرية، ويشتمل على أربعة مطالب:
المطلب الأول : الجهاد(وقتال أئمة الكفر، والمشركين، وأهل الكتاب، والمنافقين)
المطلب الثاني : تحديد زمن القتال .
المطلب الثالث : غزوة حنين .
المطلب الرابع : غزوة تبوك .
المبحث الرابع: الأزمة الاقتصادية ، ويشتمل على أربعة مطالب:
المطلب الأول : الفساد المالي.
المطلب الثاني : الفقر .
المطلب الثالث : الموارد الاقتصادية .
المطلب الرابع : التعبئة الاقتصادية في تمويل الغزوات .
المبحث الخامس: الأزمة الاجتماعية ، وفيه مطلبان :
المطلب الأول : أصناف المجتمع المتعددة والمتناقضة في المدينة وما حولها .
المطلب الثاني : أصناف خاصة من المؤمنين.
الفصل الثالث: الأزمات الجزئية الخاصة في السورة:
المبحث الأول: الأزمة الدينية العقدية، ويشتمل على أربعة مطالب:

المطلب الأول : الولاية بين المؤمنين والكافرين، والحب لغير الله تعالى .

المطلب الثاني : الكفر بإطاعة الرؤساء والعلماء، واتخاذهم إياهم أربابا عند أهل الكتاب.

المطلب الثالث: تغيير حكم الله، اتباعاً للهوى وسوء التأويل، ومنها : "النسيء ".

المطلب الرابع : أزمة النفاق .

المبحث الثاني: الأزمة التربوية السلوكية، ويشتمل على أربعة مطالب:

المطلب الأول : الإعلام والأذان بالبراءة ، واختيار زمانها ومكانها.

المطلب الثاني: الطعن في أخلاق المسلمين ، قادةً ورعيّة .

المطلب الثالث : حرمة وآداب الزمان والمكان .

المطلب الرابع : عدم احترام العهود والمواثيق والأنظمة، وقطع روابط القرابة والجوار والصحبة .

المبحث الثالث: الأزمة الثقافية الفكرية ، ويشتمل على أربعة مطالب:

المطلب الأول : الجهل ، وعدم أخذ العلوم من مصادرها .

المطلب الثاني : إشكالات حساب الزمن .

المطلب الثالث : انتكاس موازين البيع والشراء .

المطلب الرابع : التقليد الأعمى، والاغترار بالأموال والأولاد، وعدم أخذ العبرة والعظة من الأقوام السابقة .

المبحث الرابع: الأزمة النفسية، وفيه مطلبان:

المطلب الأول : الحرب النفسية مع المنافقين.

المطلب الثاني: التصوير القرآني لأزمات المؤمنين النفسية في السورة .

المبحث الخامس: أزمات متنوعة معاصرة مستوحاة من جو سورة التوبة.

الفصل الرابع (الفصل الختامي): مبشرات سورة التوبة أثناء وبعد الأزمات للمؤمنين

المبحث الأول: البشائر في السورة ،أثناء وبعد الأزمات في الدنيا ويشتمل على ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: النصر، وإنزال السكينة في الشدائد .

المطلب الثاني: عمارة المساجد خاصة بالمؤمنين .

المطلب الثالث: إرسال رسول الله محمد –صلى الله عليه وسلم-؛ تأهيل للأمة لقيادة البشرية .

المبحث الثاني: البشائر في السورة ، أثناء وبعد الأزمات في الآخرة ويشتمل على ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: العمل عبادة ، والرسول والمؤمنون شهداء على الناس يوم القيامة.

المطلب الثاني: البشارة بالفوز العظيم .

المطلب الثالث: بشارة أهل البيعة.

المبحث الثالث: البشائر الربانية، بين سورتي التوبة والفتح، ويشتمل على ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: النصر في الدنيا ، والفوز العظيم في الآخرة

المطلب الثاني: ثمار بيعة الرضوان

المطلب الثالث: بشارات رسول الله – صلى الله عليه وسلم – والجماعة الصالحة

وأخيراً الخاتمة : وتشتمل على خلاصة ما توصلت إليه من نتائج وتوصيات ،

والفهارس والمراجع والمصادر وهي كالتالي :

1- فهرس الآيات القرآنية.

٢- فهرس الأحاديث الشريفة.

٣- فهرس الأعلام.

٤- فهرس المراجع.

٥- فهرس المحتويات.

واشتملت الرسالة : على ملخص الرسالة بالإنجليزية.

الفصل الأول

تمهيد

إن الحياةَ بطبيعة الحال معقدة، ولا تخلو من المشاكل والأزمات والتحديات، وبخاصة يومنا هذا... وهذه الأزمات والمشكلات تتفاوت بحدتها وبخطورتها، فمنها البسيط، ومنها المركّب المعقد، وتزداد حدة المشاكل والأزمات عندما تتشعب وتخرج عن نطاق السيطرة، وتتلاقى الأحداث، وتتشابك الأسباب بالنتائج، ويفقد معها متخذو القرار قدرتهم على السيطرة ، وعلى اتجاهاتها المستقبلية.

(وتمثل الأزمة انهياراً للهياكل المألوفة التي تمنح النظام السياسي والاجتماعي القائم شرعيته، وتهدد القيم الجوهرية التي يرتكز عليها، كونها موقفا" غير اعتياديا" وغير متوقعا" شديد الخطورة والسرعة ذو أحداث متلاحقة، يهدد قدرة الفرد أو المنظمة أو المجتمع على البقاء، والأزمة لا تشمل التهديد فقط إنما الفرصة للتغيير كذلك...)[1] فما هي الأزمة ؟

1.1 مفهوم الأزمات وفيه مطلبان:

1.1.1 تعريف الأزمة لغةً واصطلاحاً:

تعريف الأزمة: لغة: (أزم) الأَزْمُ شدَّةُ العَضِّ بالفَمِ كلِّه، وقيل بالأَنْياب، والأَنْيابُ هي الأَوازِمُ، وقيل هو أَنَ يَعَضَّه ثم يكرِّر عليه ولا يُرْسِله، وقيل هو أَن يَقْبِض عليه بفيه، أَزَمه وأَزَمَ عليه يَأْزِمُ أَزْماً وأُزُوماً فهو آزِمٌ وأَزُومٌ، وأَزَمْت يَد الرجُل آزِمُها أَزْماً وهي أَشَدُّ العَضِّ.

والأَزْمُ القطعُ بالناب والسِّكِّين وغيرهما، والأَوَازِمُ والأُزَّمُ والأُزُمُ الأَنْياب فواحدة الأَوزَامِ آزِمةٌ وواحدة الأُزَّمِ آزِمٌ وواحدة الأُزُمِ أَزُومٌ والأَزْمُ الجَدْبُ والمَحْل، والأَوزامُ السِّنُون الشدائد كالبَوازِمِ، وأَزَمَ عليهم العامُ والدهرُ يَأْزِمُ أَزْماً وأُزُوماً اشتدّ قَحْطُه وقيل اشتدَّ وقَلَّ

---

(1) محمد، ايثار عبد الهادي، استراتيجية ادارة الأزمات، تأطير مفاهيمي على وفق المنظور الاسلامي، البحث منشور في مجلة العلوم الاقتصادية والإدارية، كلية الادارة والاقتصاد، جامعة بغداد، كانون الأول (2011)، المجلد (17)، العدد (64)، 47-63، ص 47.

خَيْرُه[1]، والأزم (هو الضيق، وتداني الشيء من الشيء بشدةٍ، والتفاف، قال أبو عبيد[2]: أزم عليه إذا قبض بفمهُ، وبرم إذا كان بمقدّم فيه. والحميةُ: تسمى أزماً من هذا، كأن الإنسان يُمسك على فمه، ويقال أزم الرجل على صاحبه أي لزمه. والسنة أزمة للشدة التي فيها.

والأمر الأزوم المنكر، والمأزم: مضيق الوادي ذي الحزونة، والمأزمان: مضيقان بالحرم[3]، بين المشعر وعرفة.[4]

بهذا نتبين أن الأزمة لغةً تعني الشدة والعض بالأنياب والقطع بالسكين، والضيق؛ أي عكس الرخاء واليسر.

الأزمة في الاصطلاح:

الأزمة من المصطلحات المستحدثة المعاصرة رغم كونها كموضوع موجوده منذ بدء الخليقة، هذا وقد اختلف أهل الاختصاص في تعريف الأزمة بحسب وجهة نظر كل مختص في شتى العلوم التربوية، أو الإدارية، أو الطبية ... وغيرها، وبعد النظر في تعريفاتهم لها، أذكر جانباً منها:

الأزمة هي: (موقف محدد يهدد مصالح المنشأة وصورتها أمام الجماهير مما يستدعي اتخاذ قرارات سريعة لتصويب الأوضاع حتى تعود إلى مسارها الطبيعي). [5]

---

(1) ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي الأنصاري، (ت 711 هـ)، لسان العرب، ط1، دار لسان العرب، بيروت، لبنان، ج1، ص 57، انظر مادة أزم.

(2) أحمد بن المختار بن محمد بن عبيد، أبو العباس أمير، من الأدباء الشعراء، كان هو وأبوه من أمراء البطيحة في العراق، كان حسن الشعر، (ت 548هـ)، انظر: الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم، بيروت، ط5، 1980 ، ج1، ص 320.

(3) ابن فارس، (ت 395هـ)، أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ج1، الدار الاسلامية، مصر، 1990، ص 97 – 98 .

(4) وجدي، محمد فريد، دائرة معارف القرن العشرين، دار المعرفة، بيروت، ط 3، 1971م، ج1، ص 225 .

(5) عبوي، زيد منير، ادارة الأزمات، دار كنوز المعرفة، عمان ط1، 2007، ص 19.

ويؤخذ على هذا التعريف أنه اقتصر على تهديد مصالح المنشأة؛ فالتعريف اقتصر على نظرة جانبية محددة وليست عامة إذ من المعلوم أن يكون التعريف شاملاً وحاوياً لكل الجوانب ذات الصلة بجوهر المفهوم .

كما عُرفت الأزمة بأنها (موقف وحالة يواجهه متخذ القرار في أحد الكيانات الادارية (دولة، مؤسسة، مشروع، اسرة) تتلاحق فيها الأحداث، وتتشابك معها الأسباب بالنتائج، ويفقد معها متخذ القرار قدرته على السيطرة عليها، أو على اتجاهاتها المستقبلية؛ فالأزمة هي لحظة حرجة وحاسمة تتعلق بمصير الكيان الإداري الذي أصيب بها، مُشكلة بذلك صعوبة حادة أمام متخذ القرار تجعله في حيرة بالغة).[1]

ويؤخذ على هذا التعريف أن صاحبه قصره على الجانب الذي اهتم به وهو الكيان الإداري، والأزمة يمكن أن تؤثر على جميع الكيانات (سياسي، عسكري، اجتماعي، تربوي، اقتصادي...).

وعرفها بعض علماء الإدارة أنها: (مجموعة الظروف والأحداث المفاجئة التي تنطوي على تهديد واضح للوضع الراهن المستقر في طبيعة الأشياء، وهي النقطة الحرجة، واللحظة الحاسمة التي يتحدد عندها مصير تطور ما، إما الى الأفضل أو الى الأسوأ –مثل الحياة أو الموت، الحرب أو السلم– لإيجاد حل لمشكلةٍ ما أو انفجارها... [2]

ويُعد هذا التعريف أشمل وأوسع من التعريفين السابقين؛ إذ لم تقتصر عباراته على جزئية معينة أو جانب محدد كما مرّ قريباً، لأن الأزمة تتنوع وتكون مفاجئة أحياناً، علماً بأن الإدارة الشاملة لكل جوانب الدولة وصُناع القرار فيها يجب أن يكون لديهم استعداد دائم ومتواصل ومتوقع لأي أزمة كانت، فالمفاجآت لا مكان لها في قاموس المبدعين.

وبالرغم من ذلك فقد جنح كثيرون ممن عرفوا الأزمة اصطلاحاً إلى حصرها في الجوانب النفسية، أو الاقتصادية، أو السياسية، أو التربوية أو نحو ذلك .

---

(1) الخضيري، محسن أحمد، ادارة الأزمات، مكتبة مدبولي، 1993، ص 53.

(2) جلدة، سليم بطرس، الاستراتيجيات الحديثة لإدارة الأزمات في ظل عالم متغير، دار الراية، عمان، ط1، 2010م، ص 17–18.

ونظراً لطبيعة هذا البحث والذي يُعنى بمناقشة الأزمات في ضوء سورة التوبة فمن المناسب أن أسوق بعضاً من تعريفات أهل العلم للأزمة من منظور إسلامي أذكر منهم على سبيل المثال الآتي:

أولاً: هي: (موقف قدّرهُ الله عزّ وجل وقضاهُ، ويتصف بالصعوبة والشدة، ويؤدي إلى الحيرة والاضطراب وانقلاب الموازين وسوء الوضع اقتصادياً واجتماعياً، وقد يكون بدايةً من أمر يُرى خيراً، يتسع مداهُ ليشمل كل ما يصيب الكيان كبُرَ أم صغُر هذا المصاب فهو نسبي بحسب تأثر من يصيبه، وهو فجائي مباغت، ممهد له بأحوالٍ ظاهرها انتعاش مسيرة الكيان، ولابد لهذا الموقف من أن ينتهي ويُستبدل بالفرج ويبقى على من بقي مقيماً على أسبابه).[1]

وهذا التعريف على أهميته ووضوح الاجتهاد فيه؛ إلا أنه تعريف طويل ويُمكن اختصاره بعبارة أقل، كما أنه قصر الأسباب على الجانبين الاقتصادي والاجتماعي، وفي الحقيقة أن الأزمات تؤثر على جميع جوانب الحياة.

ثانياً: هي: (شدة تؤدي إلى الاضطراب واختلال الموازين في مجال أو أكثر من مجالات الحياة التي تؤدي إلى اعاقة أخذ القرار).[2]

كما ساقت صاحبة التعريف تعريفاً مقتضباً آخر زاد من جودة التعريف الأول فقالت: (هي حدوث خلل خطير سواء كان مادياً أو معنوياً يهدد منظومة المجتمع الاسلامي).[3]

بعد النظر في هذين التعريفين أرى أن التعريف الثاني بشقيه؛ أرجح عندي من التعريف الأول مع تقديري لجهود الجميع.

لذا فإنني أستطيع القول بأن الأزمة من منظور اسلامي عام تعني: أحداث (مفاجئة أو غير مفاجئة؛ تؤدي إلى إحداث خلل ما (جسيمٍ أو غير جسيم) ينعكس

---

(1) شقرة، محمد عاصم محمد ابراهيم، نحو أنموذج اسلامي لإدارة الأزمات، رسالة ماجستير، 1995، ص 57-58.

(2) الجمل، صديقة محمد سليمان، الهدي النبوي في ادارة الأزمات الاجتماعية العامة، ص18.

(3) الجمل، صديقة محمد سليمان، الهدي النبوي في ادارة الأزمات الاجتماعية العامة، ص25.

على مسار الحياة في الدولة، التي قد تُعالج وفق منظومة متكاملة، أو يُخفق في علاجها.

ونظراً لأن دراستي تتعلق بالأزمات في العهد النبوي في ضوء سورة التوبة؛ فإنني أرى لزاماً علي أن أسوق التعريف التالي:

أحداث (مفاجئة أو غير مفاجئة)؛ أدّت إلى إحداث خلل ما (جسيمٍ أو غير جسيم) انعكس على مسار الحياة في العهد النبوي، والتي تعامل معها رسول الله–صلى الله عليه وسلم– إما بوصف كونه نبياً، أو بوصف كونه رئيس دولة في ضوء سورة التوبة .

تعريف العهد لغةً واصطلاحاً:

العهد لغةً: يقول ابن فارس: ((عَهِدَ) العين والهاء والدال أصل هذا الباب عندنا، دال على معنى واحد، وقد أومأ إليه الخليل[1]، قال: أصله الاحتفاظ بالشيء، وإحداث العَهْدِ به، والذي ذكره من الاحتفاظ هو المعنى الذي يرجع إليه فروع الباب، فمن ذلك قولهم عهد الرجل يعهد عهداً... لأن العهد مما ينبغي الاحتفاظ به).[2]

ويأتي العَهْدُ على عدة معانٍ عند ابن منظور، منها:

1–العَهْدُ: الموثق واليمين يحلف بها الرجل، وإنما سمي اليهود والنصارى أهل العهد للذمة التي أُعطوها، وقيل: وليّ العهد، لأنه ولي المِيْثاق الذي يؤخذ على من بايع الخليفة.

2– والعَهْدُ: التقدم للمرء في الشيء، ومنه العَهْد الذي يكتب للولاة، والوصيّة، يقال عَهِدَ إليّ في كذا: أوصَاني، والعهد: التوحيد، والعهد: الضمان.

([1]) الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي الأزدي اليحمدي، أبو عبد الرحمن، ولد بالبصرة ومات فيها (100هـ– 170 هـ) واضع علم العروض، وهو أستاذ سيبويه النحوي، له كتب في اللغة والعروض، أحدث أنواعاً من الشعر ليست من أوزان العرب، كان فقير الحال، لم يسمّ أحداً بأحمد بعد وفاة رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قبل والده ... انظر: الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم، بيروت، ط5، 1980، ج 2، ص314.

([2]) ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكريا، (ت 395هـ)، معجم مقاييس اللغة، مادة (عهد)، دار الفكر، 1979، ج 4، ص167–168.

3- والعَهْدُ: الوَفاءُ والحِفَاظُ وَرعايةُ الحُرْمَة والأمان، تقول: أنا أُعْهِدُكَ من هذا الأمر، أي: أُؤمّنك منه، ومنه اشتقاق العُهْدَة.

4- والعَهْدُ: ما عَهِدْتَه فَثافَنْتَه، يقال: عَهْدي بفلان وهو شابٌ، أي: أدركته فرأيته كذلك، والعهد: الالتقاء، وَعَهِدَ الشيء عهدًا عَرفه، وَعهِدْتُهُ بمكان كذا أي لَقيته وعَهْدي به قريب.

5- والعَهْدُ: المَنْزل الذي لا يزال القوم إذا انتأوا عنه رجعوا إليه، وكذلك المنزل المعهود به الشيء يقال له: العَهْدُ

6- والْعَهْدُ: أول المطر، والوَلِيُّ الذي يليه من الأمطار، وقد عُهِدَتِ الأرض فهي مَعْهودةٌ أي: مَمْطورة.

7- والعَهْدُ: الزمان، كالعِهْدان -بالكسر-.[1]

أما في الاصطلاح فالعهد هو: (الموثق، والإلزام، ووضعه لما من شأنه أن يُراعى ويُتعهد كالقول، والقرار، واليمين، والوصية، والضمان والحفظ والزمان والأمر، يُقال عهد الأمير إلى فلان بكذا: إذا أمره، ويُقال للدار من حيث أنها تُراعى بالرجوع إليها، وللتأريخ لأنه يُحفظ...)[2]، ويقول الراغب الأصفهاني في تعريفه بأنه (حفظ الشيء ومراعاته حالاً بعد حال...)[3]، وهناك توافق واضح بين المعنى اللغوي، والاصطلاحي لمعاني العهد من حيث الأمان والحفظ والوصية... وغيرها، وقد وردت لفظة (عهد)، وما اشتق منها؛ (ست وأربعون) مرة في (ست وثلاثين) آية من كتاب الله تعالى في (سبع عشرة) سورة من سور القرآن الكريم[4]، وما يهمنا هنا من معاني العهد

([1]) انظر: ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي الأنصاري (ت 711هـ)، لسان العرب، المجلد السادس، دار الحديث، القاهرة، 2003، ص 494-497، مادة عهد .

([2]) الكفوي، أبي البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، (ت 1094هـ)، الكليات، أعده للطبع عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت،ط2، 1998، ص 638-641.

([3]) الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، (ت 503 هـ)، المفردات في غريب القرآن، تحقيق صفوان عدنان داووي، دار القلم، دمشق، ط 4، 2009م، ص 591

([4]) وتفصيلها كالآتي: سورة البقرة: الآيات [27، 40]، [80، 100]، [124، 125]، [177]؛ سورة آل عمران: الآيات [76، 77، 183]؛ سورة الأنعام: آية [152]؛ سورة الأعراف: الآيات [102-134]؛ سورة الأنفال: آية [56]؛ سورة التوبة: الآيات [1، 4، 7، 12، 75،

في القرآن الكريم قوله تعالى في سورة طه: ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ﴾[طه: من الآية86]، يقول النسفي في تفسير هذه الآية: العهد: الزمان يريد مدة مفارقته لهم، يقال طال عهدي بك، أي طال زماني بحسب مفارقتك.(1)

والعهد بمعنى الزمن هو أيضاً: العصر، أو الحقبة، (والعصر النبوي أو الحقبة النبوية مصطلح يشير إلى حقبة تاريخية من تاريخ الإسلام ضمن صدر الإسلام؛ تتمثل في الأحداث التاريخية المتعلقة بنشأة الإسلام، والدولة الإسلامية الأولى، في الفترة الواقعة بين بعثة محمد بن عبد الله رسول الإسلام –صلى الله عليه وسلم– ووفاته...) (2) .

ويمكننا و بعد الاطلاع على كتب السيرة النبوية تعريف العهد النبوي بأنه:

(زمن النبوة؛ بدءاً من أول لحظة نزل فيه الوحي على رسول الله –صلى الله عليه وسلم – الى أن انتقل الى الرفيق الأعلى، ووصلنا بالقرآن والسنة ...).(3)

111]، سورة الرعد: الآيتان [20، 25]؛ سورة النحل: الآيتان [91، 95]؛ سورة الإسراء: آية [34]؛ سورة مريم: الآيتان [78، 87]؛ سورة طه: الآيتان [86، 115]؛ سورة المؤمنون: آية [8]؛ سورة الأحزاب:؛ الآيتان [15، 23]؛ سورة يس: آية [60]؛ سورة الزخرف: آية [149]؛ سورة الفتح: آية [10]؛ سورة المعارج: آية [32]. انظر: محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الفكر، بيروت، ط 2، 1981، ص492 .

(1) انظر: النسفي، عبدالله بن أحمد بن محمود حافظ الدين أبو البركات (ت 710 هـ)، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، تحقيق يوسف علي بديوي، دار الكلم الطيب، بيروت، ط1، 1998م، ج2، ص 378، وانظر: البقاعي، برهان الدين أبي الحسن ابراهيم بن عمر، (ت885 هـ)، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط1 ، 1974م، ج12، ص 326 .

(2) http://ar.wikipedia.org/wiki/

(3) انظر: ابن هشام، عبد الملك بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين، (ت213هـ)، تهذيب سيرة ابن هشام، عبد السلام هارون، دار البحوث العلمية، الكويت، ط10، 1984، ص 8–9 . وانظر: الامام ابن كثير (ت 774 هـ)، أبي الفداء اسماعيل بن عمر، الفصول في سيرة الرسول، الشركة الجزائرية اللبنانية، ط 1، 2006م، ص11.

2.1.1 الألفاظ ذات الصلة بالموضوع:

وردت في كتاب الله تعالى ألفاظ عدة، بمعنى الأزمة أو مشتقاتها؛ تحمل معنى الضيق والشدة، وسأتناول بعضاً منها مبينةً أقوال مفسري كتاب الله فيها ووجه ارتباطها بالأزمة، مقتصرةً على بعض الأمثلة لكل منها:

أولاً: البلاء: وهو من أوضح التعابير القرآنية بمعنى الأزمة بما فيها من الضيق والشدة والكرب؛ وقد وردت لفظة (البلاء)، وما اشتق منها في كتاب الله (سبع وثلاثون مرة)[1] منها: قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾[الاحزاب:11] محصوا وحرّكوا بالفتنة تحريكا شديدا، وابتلوا وفتنوا.[2] وقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُون﴾ [الانبياء:35] (أي نختبركم بالشدة والرخاء).[3]

قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾[البقرة: 55]، فقوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم﴾ أي ولنختبرنكم يا أمة محمد، ﴿بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ﴾ قال ابن عباس يعني خوف العدو ﴿وَالْجُوعِ﴾ يعني القحط[4] ...﴿وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ﴾ يشمل جميع النقص المعتري للأموال من جوائح سماوية، وغرق، وضياع، وأخذ الظلمة للأموال من الملوك الظلمة، وقطاع الطريق وغير ذلك، ﴿وَالأنْفُسِ﴾ أي: ذهاب الأحباب من الأولاد، والأقارب، والأصحاب، ومن أنواع الأمراض في بدن العبد، أو بدن من يحبه، ﴿وَالثَّمَرَاتِ﴾ أي: الحبوب، وثمار النخيل، والأشجار كلها، والخضر ببرد، أو برد، أو حرق، أو آفة سماوية، من جراد

---

(1) محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص 135 – 136.

(2) الطبري، أبو جعفر، محمد بن جرير بن يزيد الآملي، (ت 310 هـ)، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، عمان،ط1، 2000م، ج20، ص222.

(3) انظر: الشوكاني، محمد بن علي بن محمد، (ت 1250 هـ)، فتح القدير، راجعه يوسف الغوش، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط 4، 2007م، ج1، ص 935 .

(4) البغوي، الحسين بن مسعود، (ت 516 هـ)، معالم التنزيل، تحقيق محمد عبد الله النمر، دار طيبة، ط 4، 1997م، ج1، ص 169.

ونحوه...[1]، والبلاء بهذا المفهوم الواسع الشامل؛ مع ما فيه من الشدة والضيق والخوف ... وغيرها؛ إنما هو من معاني الأزمة.

ثانياً: الشدة:

وقد وردت الشدة وما اشتق منها في كتاب الله بمعانٍ عدة أقربها لمفهوم الأزمة ستة معانٍ منها [2]:

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾[يونس: 88] والشدّ: هو العسر، ومنه الشدة للمصيبة والتحرج... والمعنى هنا أنه يدعو عليهم بالأنكاد والأحزان التي تجعل قلوبهم في ضيق وحرج، أي اجعلهم في عناء وبلبلة ما داموا في الكفر، وهذا حرص منه –عليه الصلاة والسلام– على وسائل هدايتهم رجاء أنهم إذا زالت عنهم النعم وضاقت صدورهم بكروب الحياة تفكروا في سبب ذلك، فعجلوا بالتوبة... ويجوز أن يكون من الشد وهو الهجوم ... تمثيلاً لحال اصابة نفوسهم بالأكدار والأحزان بحال من يشد على عدوه ليقتله...[3]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلا قَلِيلا مِمَّا تُحْصِنُونَ﴾[يوسف: 48]. أي سبع سنين مجدبات، والشداد الصعاب التي تشتد على الناس.[4]

فالشدة من أقرب المعاني للأزمة كما رأينا لما ما فيها من معاني الضيق والكدر.

([1]) انظر: السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، (ت 1376هـ)، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق عبد الرحمن بن معلا، مؤسسة الرسالة، عمان، ط1، 2000م، ج1، ص 75.

([2]) محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص 376 –377 .

([3]) انظر: ابن عاشور، الإمام محمد الطاهر، (ت 1393هـ–1973م)، التحرير والتنوير، الدار التونسية، تونس، 1984م، ج11، ص 270–271.

([4]) انظر: الرازي، محمد فخرالدين ابن العلامة ضياء الدين عمر، (ت 604 هـ) ، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، دار الفكر، بيروت، ط 1، 1981، ج12، ص 153.

ثالثاً: الضر: وهذا اللفظ ومشتقاته واسع الأمثلة في كتاب الله تعالى بمعنى الأزمة ودرجاتها؛ وقد ورد (خمسٌ وأربعون مرةً) فيه[1]، ومنه: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[يونس: 12].

يقول إذ مس الكافر ما يكره من المرض والفقر والبلاء "دعانا" يقول أخلص في الدعاء إلينا "لجنبه" يعني وهو مطروح على جنبه إذا اشتد به المرض "أو قاعداً" إذا كانت العلة أهون "أو قائماً" إذا بقي فيه أثر العلة ويقال دعانا في الأحوال كلها مضطجعا كان أو قائماً أو قاعداً "فلما كشفنا عنه ضره "يعني فلما رفعنا عنه بلاءه" مر "يقول استمر على ترك الدعاء ونسي الدعاء [2]

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾[الروم: 33].

والضر:(الوجع، والشدة، والبلاء، وسوء الحال في البدن أو العيش أو المال، وجميع أنواع المكاره والكُرب...[3] ومقابل الضر والأزمة؛ الرحمة والفرج وهو ما يأتي بعد الأزمات إن قدر لها أن تنتهي. (ويصور الحق سبحانه حال البشر؛ الذين لم يرتبطوا دائماً بالإله، وبمنهج الإله؛ هؤلاء الذين يتجهون الى الله في لحظات الأزمات، ثم ينسون الإيمان وتكاليفه من بعد ذلك. وحياتنا مليئة بهذا الصنف من البشر...).[4]

وفي سورة التوبة موضوع بحثي؛ ذكر هذا المفهوم باشتقاقه "ضراراً" بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[التوبة: 107]،

---

(1) محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص 419 – 420.

(2) السمرقندي، أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم، (ت 373هـ)، بحر العلوم، تحقيق: محمود مطرجي، دار الفكر، بيروت، ج2، ص 106 .

(3) انظر: الطبري، ج21، ص262، وانظر: ابن عاشور، الإمام محمد الطاهر (ت1973م)، التحرير والتنوير، ج21، ص97 .

(4) انظر: الشعراوي، محمد متولي، (ت 1418 هـ)، تفسير الشعراوي، دار أخبار اليوم، 1991 ، ج9، ص 5771.

أي اتخذوا المسجد ضراراً ليضاروا المؤمنين، وإثارة العداوة وإزالة الألفة وإيقاع الوحشة، وموجبات النفرة، كما وذكر المفسرون في تفسير الضرار بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا﴾[البقرة: 231] وجوهًا أحدها: ما روي أن الرجل كان يطلق المرأة ثم يدعها، فإذا قارب انقضاء القرء الثالث راجعها، وهكذا يفعل بها حتى تبقى في العدة تسعة أشهر أو أكثر، والثاني: في تفسير الضرار سوء العشرة والثالث: تضييق النفقة، كما أنهم كانوا يفعلون في الجاهلية أكثر هذه الأعمال رجاء أن تختلع المرأة منه بمالها...[1] وهذه المعاني كلها من الشدة، والضيق، وسوء الحال، ما هي الا من معاني الأزمة ومدلولاتها .

رابعاً: العذاب: وهو أكثر لفظ ومشتقاته، ذكراً في كتاب الله؛ مرادفاً لمعنى الأزمة، والشدة والضيق، في الدنيا والآخرة؛ فقد ذكر (ثلاثمائة واثنان وسبعون) مرةً؛ وفي سورة التوبة موضوع دراستي، ذُكر (تسع عشرة مرة).[2]

ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآَيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾[الانعام: 65]، أما العذاب الذي توعدهم به أن يبعثه عليه من فوقهم، فالرجم، وأما الذي توعدهم أن يبعثه عليهم من تحتهم، فالخسف.[3]

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ *وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ *حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ [المؤمنون: 75-77]، يعني: أصابتهم محنة كأنهم من وراء باب مغلق تفاجئهم ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ آيسون من النجاة متحسرون على ما فاتهم ... [4] وكل محنة مفاجئة هي أزمة تحتاج حل.

---

(1) انظر: الرازي مفاتيح الغيب، ج6 ، ص 118.

(2) محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص 451 – 455 .

(3) الطبري، جامع البيان، ج11، ص 416.

(4) انظر: الشعراوي، محمد متولي، تفسير الشعراوي، ج16، ص 10105.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ﴾ والعذاب هنا (الشدائد والأزمات بأنواعها من القتل والجوع والحاجة والأمراض... وغيرها[1]؛ وفي سبب نزول الآية: (أن النبي –صلى الله عليه وسلم– دعا على قريش أن يجعل عليهم سنين كسني يوسف، فأصابهم القحط، فجاء أبو سفيان إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال أنشدك الله والرحم، ألست تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين؟ فقال: بلى، فقال: قد قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع، فادع الله أن يكشف عنا هذا القحط، فدعا فكشف عنهم، فأنزل الله هذه الآية...)[2]، وقد يكون هذا العذاب وهذه الأزمات الشداد في الآخرة ﴿حتى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ (هو عذاب الآخرة كما يُنبىء عنه التَّهويلُ بفتح الباب والوصفُ بالشدَّةِ...).[3]

خامساً: العُسر: الشدة، والضيق الشديد[4]، وقد صور القرآن الأزمات بآيات عدة، بما فيها من الشدة والضيق بالعُسر، وقد وردت بهذا اللفظ ومشتقاته في كتاب الله (اثنتي عشرة مرة)[5]، ووردت في سورة التوبة بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾[التوبة: 117] أي: في وقت العسرة، ولم يرد ساعة بعينها، وكانت غزوة تبوك تسمى غزوة العسرة، والجيش يسمى جيش العسرة. والعسرة: الشدة، وكانت عليهم غزوة عسرة في الظَّهر والزاد والماء.[6]

---

(1) انظر: القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي، شمس الدين القرطبي، (ت 671 هـ)، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق هشام سمير البخاري، دار الكتب، الرياض، ط1، 2003 م، ج12، ص 143.

(2) انظر: البغوي، الحسين بن مسعود، معالم التنزيل، ج 5، ص425، وانظر: الواحدي، أسباب النزول، حديث رقم 318، ص 323– 324.

(3) أبو السعود، محمد بن محمد العمادي الحنفي قاضي القضاة، (ت 982 هـ)، ارشاد العقل السليم الى مزايا الكتاب الكريم، تفسير أبو السعود، مصر، (ت 1275 هـ)،ج2، ص204.

(4) انظر: البغوي، الحسين بن مسعود، معالم التنزيل، ج 8، ص 464. وانظر: الشعراوي، محمد متولي: تفسير الشعراوي، ج9، ص 5551 .

(5) محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص 461 .

(6) انظر: البغوي، الحسين بن مسعود، معالم التنزيل، ج4، ص 104.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً* إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾[الشرح: 5-6]، ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾... بشارة عظيمة، أنه كلما وجد عسر وصعوبة، فإن اليسر يقارنه ويصاحبه، حتى لو دخل العسر جحر ضب لدخل عليه اليسر، فأخرجه كما قال تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾[الطلاق: 7]، وتعريف "العسر" في الآيتين، يدل على أنه واحد، وتنكير "اليسر" يدل على تكراره، فلن يغلب عسر يسرين، وفي تعريفه بالألف واللام، الدالة على الاستغراق والعموم يدل على أن كل عسر -وإن بلغ من الصعوبة ما بلغ- فإنه في آخره التيسير ملازم له، أي مع الضيق، و الشدة، والشقاوة، والحزونة ... اليسر والرخاء والفرح ... وهذا بشارة للمؤمن).[1]

سادساً: الفتنة: تشديد المحنة، يقال فتن فلان عن دينه إذا اشتدت عليه المحنة حتى رجع عن دينه...[2] والفتن: ادخال الروع والاضطراب على العقل بسبب تسليط ما لا تستطيع النفس تحمله[3]، والفتنة هي ما كانوا يفتنون المسلمين عن دينهم، تارة بإلقاء الشبهات في قلوبهم، وتارة بالتعذيب، كفعلهم ببلال وصهيب وعمار بن ياسر...

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أموالكم وأولادكم فِتْنَةٌ﴾[التغابن: 15] أي امتحان لكم لأنه إذا لزمه إنفاق المال في سبيل الله تفكر في ولده، فصار ذلك مانعاً له عن الإنفاق، وقال تعالى: ﴿الم*أَحَسِبَ الناس أَن يُتْرَكُواْ أَن يَقُولُواْ ءامَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ﴾[العنكبوت: 1، 2] أي لا يمتحنون في دينهم بأنواع البلاء، وقال: ﴿وفتناك فُتُوناً﴾[طه: 40] وإنما هو الامتحان بالبلوى، وقال: ﴿وَمِنَ الناس مَن يِقُولُ ءامَنَّا بالله فَإِذَا أُوذِىَ فِى الله جَعَلَ فِتْنَةَ الناس كَعَذَابِ الله﴾[العنكبوت: 10] والمراد به المحنة التي تصيبه من جهة الدين من الكفار وقال: ﴿إِنَّ الذين فَتَنُواْ المؤمنين والمؤمنات ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ﴾[البروج: 10] والمراد أنهم آذوهم وعرضوهم على العذاب ليمتحنوا ثباتهم على دينهم[4]،

([1]) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج2، ص 107، وانظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ج1، ص 372، و ص 929 .

([2]) الرازي، التفسير الكبير، ج 22، ص 55 .

([3]) ابن عاشور، الإمام محمد الطاهر، التحرير والتنوير، الدار التونسية، تونس، 1984، ج11، ص 260 .

دينهم[1]، (وإطلاق اسم الفتنة على العذاب جائز، وذلك من باب إطلاق اسم السبب على المسبب، قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النار يُفْتَنُونَ﴾[الذاريات: 13]، ثم قال عقيبه: ﴿ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ﴾[الذاريات:14] أي عذابكم، وقال: ﴿إِنَّ الذين فَتَنُواْ المؤمنين والمؤمنات﴾ [البروج: 10] أي عذبوهم، وقال: ﴿فَإِذَا أُوذِىَ فِى الله جَعَلَ فِتْنَةَ الناس كَعَذَابِ الله}[العنكبوت: 10] أي عذابهم كعذابه[2]، و(جعل فتنة الناس كعذاب الله، بأن صدته المكاره عما هو بصدده، وثنته المحن عن مقصده)[3] .

والعذاب والأذى والبلاء والمحن والمكاره، وغيرها من معاني الفتنة، هي من معاني الأزمات ومشتقاتها لغةً واصطلاحاً؛ كما بينا سابقاً. وقد وردت لفظة الفتنة ومشتقاتها في كتاب الله (ستون) مرة ، منها ثلاث مرات في سورة التوبة ...[4]

سابعاً: الكرب: وهي من الألفاظ الواضحة بمعنى الأزمات والشدائد؛ وقد ذكرها الله تعالى أربع مرات فقط في كتابه العزيز، بهذا اللفظ.[5]

ودليله من القرآن الكريم: قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾[الأنعام: 64]. والكرب غاية الغم الذي يأخذ بالنفس، ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ يريد أنهم يقرون أن الذي يدعونه عند الشدة هو الذي ينجيهم ثم تشركون معه الأصنام التي قد علموا أنها لا تضر ولا تنفع[6]. والكرب والغم، من مرادفات الشدائد، والشدائد من معاني الأزمات.

ثامناً: المصيبة: وهو الأمر الذي ينال الإنسان منه المشقة والألم، وهي مأخوذة من إصابة الهدف[7]، وقد ذكرت في كتاب الله، بهذا اللفظ(عشر مرات)، وذكرت بمشتقاتها

---

(1) الرازي، التفسير الكبير، ج6، ص 36 -37 .

(2) الرازي، التفسير الكبير، ج5، ص141، وانظر: الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج20 ، ص 12.

(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، ج1، ص 96 .

(4) محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص511-512.

(5) محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص 602 .

(6) البغوي، معالم التنزيل، ج3، ص 153 .

(7) الشعراوي، محمد متولي، ج2، ص 663 .

بمشتقاتها (خمس وستون) مرة بشكل عام، ووردت بمشتقاتها في سورة التوبة خاصةً (سبع مرات)[1]، دالة كلها بوضوح على معنى الأزمة، والشدة، والضيق... فتارةً تأتي بمعنى الموت، وتارةً بمعنى الفقر، وتارةً أخرى بمعنى الهزيمة، والعذاب، والمكروه... وغيرها.

ومن أمثلتها في كتاب الله قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾[الحديد: 22] وقد بيّن المفسرون أن المصيبة في الأرض هي: جدوبها وقحوطها، وذهاب زرعها وفسادها،(وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ) بالأوصاب والأوجاع والأسقام، وفقد الأولاد...[2]

وفي سورة التوبة قوله تعالى: ﴿إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ*قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُون﴾ [التوبة: 51/50]

والمعنى: إن تصبك في بعض الغزوات حسنة سواء كان ظفراً، أو كان غنيمة، أو كان انقياداً لبعض ملوك الأطراف، يسؤهم ذلك، وإن تصبك مصيبة من نكبة وشدة ومصيبة ومكروه يفرحوا به، ويقولوا قد أخذنا أمرنا الذي نحن مشهورون به، وهو الحذر والتيقظ والعمل بالحزم، من قبل أي قبل ما وقع وتولوا عن مقام التحدث بذلك، والاجتماع له إلى أهاليهم، وهم فرحون مسرورون، ثم قال تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ الله لَنَا﴾ أي لن يصيبنا خير ولا شر، ولا خوف ولا رجاء، ولا شدة ولا رخاء، إلا وهو مقدر علينا مكتوب عند الله.[3]

تاسعاً: الخطب: ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [يوسف: 51].

([1]) محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص 415– 416 .

([2]) انظر: الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج 23، ص 195، وانظر: البغوي، معالم التنزيل، ج 8، ص 40 .

([3]) الرازي، مفاتيح الغيب، ج 15، ص 87 .

والخطب: الشأن المهم من حالة أو حادثة. قيل: سمي خطباً لأنه يقتضي أن يخاطِب المرء صاحبه بالتساؤل عنه[1]؛ وأصله الأمر العظيم، والحدث الجلل الذي يحق لعظمته أن يكثر فيه التخاطب ويخطب له؛ فهو حدث غير عادي يتكلم به الناس؛ ليس حديثاً بينهم وبين أنفسهم؛ بل يتكلمون عنه بحديث يصل الى درجة تهتز لها المدينة...[2] فالخطب الأمر العظيم المشكل، والضيق، والأزمة الذي يحتاج لحل وإدارة لتخطيه.

عاشراً: الغمة: وقد وردت في كتاب الله بهذا اللفظ ومشتقاته **(**سبع مرات**)**[3] ومنه قوله تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[آل عمران: 153]، أي غماً يتبع غماً، غم بفوات النصر وفوات الغنيمة، وغم بانهزامكم، وغم أنساكم كل غم، وهو سماعكم أن محمداً –صلى الله عليه وسلم– قد قتل[4]، والانهزام، والقتل، وفوات الغنيمه، وغيرها من معاني الغم؛ هي أزمات قد تواجه المؤمن في حياته، يلزمها إدارة وحكمة لتخطيها.

كما أن هناك ألفاظٌ متعددة في القرآن الكريم بمعنى الأزمة مثل الهلاك، والفقر، والموت، والرجز، والمرض... وغيرها.[5]

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج12، ص 290.

(2) الألوسي، محمود الألوسي أبو الفضل، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج12، ص259، وانظر: الشعراوي، محمد متولي، ج 11، ص 6988 –6989.

(3) محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص505 .

(4) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ج1، ص 152.

(5) للمزيد أنظر: الربيعة، ابراهيم بن عبد الرحمن، فاعلية التدريب في تنمية القدرة على توقع الأزمات، رسالة ماجستير، 1420هـ، ص 32– 34، وشقرة، محمد عاصم محمد ابراهيم، نحو أنموذج اسلامي لإدارة الأزمات، ص 52–57، والشيخ سوسن سالم، ادارة ومعالجة الأزمات في الإسلام، رسالة ماجستير، ص 13.

2.1 بين يدي سورة التوبة وفيه أربعة مطالب:

1.2.1 اسمها وعدد آياتها وترتيبها وتصنيفها:

(هي السورة الرابعة عشر بعد المائة نزولا، نزلت بعد سورة الفتح، وعدد آياتها مائة وتسع وعشرون آية عند الكوفيين، ومائة وثلاثون آية عند جمهور العلماء). [1]

أسماؤها: للسورة أسماء عديدة من أهمها: تسعة أسماء ذكرها أهل التفسير: أحدها سورة التوبة، والثاني براءة؛ وهذان مشهوران بين الناس، والثالث سورة العذاب، والرابع المقشقشة، والخامس: سورة البَحُوث؛ لأنها بحثت في سرائر المنافقين، والسادس: الفاضحة، لأنها فضحت المنافقين، والسابع: المبعثرة، لأنها بعثرت أخبار الناس، وكشفت عن سرائرهم، والثامن المثيرة، لأنها أثارت مخازي المنافقين ومثالبهم، والتاسع الحافرة، لأنها حفرت عن قلوب المنافقين)[2]، وسميت المقشقشة لأنها تقشقش من النفاق أي تبرىء منه، وسميت سورة العذاب لأنها ما تركت أحداً من المنافقين إلا نالت منه[3]، وزاد السيوطي في الإتقان فقال: (والمُنَقِّرَة نقرت في قلوب المشركين، فأرعبتهم، وقال فيها: هي إلى العذاب أقرب ما كادت تقلع عن الناس، حتى ما كادت تبقي منهم أحدا، وزاد: (المخزية والمنكلة والمشردة والمدمدمة)[4]، وهي المخزية (لأن فيها خزى المنافقين وهي المدمدمة لأن فيها هلاك المنافقين وهي المشردة؛ لأنها شردت جموع المنافقين وفرقتهم وهي المثيرة وقد كشفت عن أحوالهم وهتكت أستارهم[5]،

---

(1) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق فواز أحمد، دار الكتاب العربي، بيروت، 2004، ص 177، وانظر: رضوان، علي حسن، تفسير سورة التوبة، ج1 ، دار الطباعة المحمدية، القاهرة ، ط1، 1992، ص 4 .

(2) انظر: ابن الجوزي، أبي الفرج جمال الدين بن عبدالرحمن بن علي بن محمد الجوزي، (ت597 هـ)، زاد المسير في علم التفسير، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 2002م، ص565. وانظر: الشوكاني، فتح القدير، ج1، ص 553 .

(3) انظر: الزمخشري ، الكشاف، ج 2، ص 171.

(4) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، الإتقان في علوم القرآن، ص145-146 .

أستارهم[1]، وذكر ابن عاشور في تفسيره من أسمائها: المشدِّدة[2]،وهذه الأسماء(وكلها في كشف المنافقين)[3] ذكرها عامة المفسرين؛ كالإمام الرازي والإمام الزمخشري وغيرهم[4]، كما اجتهد المفسرون بتعليل المشهورين من أسمائها بقولهم: وسميت التوبة بهذا الاسم العظيم لتناولها موضوع التوبة من أول السورة، ووسطها إلى نهايتها، والتي رغَّبَ الله جل في علاه عباده فيها، ولم يفقدهم الأمل في التوبة، كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [التوبة: 3]، ﴿فَإِنْ تابُوا وَأَقامُوا الصَّلاةَ﴾[التوبة: 5، 11]، وقوله: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ عَلى مَنْ يَشاءُ﴾[التوبة: 27]، وقوله: ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ﴾ [التوبة: 74] ﴿وقوله عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾[التوبة: 102] وقوله: ﴿لَقَدْ تابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ﴾ [التوبة:117] ، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ﴾[التوبة: 104] ، وقوله: ﴿التَّائِبُونَ الْعابِدُونَ﴾[التوبة: 112] [5]

أما تسميتها براءة: فهو العنوان السياسي للسورة، سميت بهذا الاسم العظيم، لأن الله –جل في علاه– بدأ السورة بإعلان سياسي شديد اللهجة، أمر فيه بقطع العلاقات مع المشركين، ليضفي مهابة على افتتاحية السورة... ويستبعد السامع أي نوع من الرأفة والرحمة، لِتظْهِرَ قسوة البراءة منهم... [6]

([1]) الخازن، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي (ت 741 هـ)، تفسير الخازن المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل، تصحيح: محمد علي شاهين، الناشر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1415 هـ، ج2، ص 332 .

([2]) ابن عاشور، محمد الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر والتوزيع، 1997، ج10، ص 96.

([3]) انظر: الشعراوي، محمد متولي: تفسير الشعراوي، ج 8، 4857 .

([4]) انظر: الزمخشري، محمود بن عمر، (ت 538 هـ)، الكشاف، دار الفكر، ج2، ص171، وانظر: الرازي ، مفاتيح الغيب، ج15، ص 223 .

([5]) انظر: القاسمي، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق (ت 1332هـ)، محاسن التأويل، المحقق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1418 هـ ، ج5، ص 342.

([6]) الألوسي، العلامة أبي الفضل شهاب الدين، السيد محمود، (ت 127هـ)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ضبط: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية،

إن أسماء سورة التوبة تبين محور وموضوع السورة الأساس "التوبة"، وما انبثق عنه من موضوعات أخرى، كأساس التعامل مع المشركين، وفضح المنافقين وأفاعيلهم في المجتمع المسلم، وغيرها.

ترتيبها بالمصحف: (هي السورة التاسعة في الترتيب بالمصحف فقد سبقتها كل من الفاتحة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال... وهي آخر السبع الطوال "أولها البقرة ، وآخرها براءة"...).[1]

أما **تصنيفها** يبين الإمام السيوطي أنها (مدنية بالاتفاق... إلا آيتين، قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ*فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾[128، 129].[2]

2.2.1 التناسب في السورة بما قبلها وما بعدها من السور:

إن معرفة المناسبة بين آيات سورة الأنفال وسورة التوبة، وآيات سورة التوبة وسورة يونس؛ تساعد على حسن التأويل ودقة الفهم، وإدراك اتساق المعاني بين الآيات والسور والوصول إلى ترابط الأفكار لتحديد الأزمات في العهد النبوي في المدينة المنورة، وذلك على النحو التالي:

مناسبة السورة لما قبلها "سورة الأنفال": هناك الكثير من التشابه بين موضوعات السورتين وقد وردت روايات، ذكرها المفسرون تبين هذا التشابه بالتفصيل،

بيروت، ط 1، 2001 م، مجلد 4، ج5، ص 238. وانظر: الخطيب، حسن عبد الله طه: أهداف ومقاصد موضوعات سورة التوبة، رسالة ماجستير، بإشراف الجامعة الاسلامية، غزة، 2008 م، ص 4 .

([1]) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، الإتقان في علوم القرآن، ص 167 .

([2]) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، الإتقان في علوم القرآن، ص 49، وانظر: مقاتل أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخي (ت 150هـ)، تفسير مقاتل بن سليمان، المحقق: عبد الله محمود شحاته، الناشر: دار إحياء التراث، بيروت، الطبعة: الأولى، 1423 هـ ، ج2، ص 153 .

لا مجال لذكرها[1]، ولكن أذكر أمورا بسيطةً بينها المفسرون، وضحت مناسبة هذه السورة لما قبلها: (هي كالمتممة لسورة الأنفال في معظم ما فيها من أصول الدين وفروعه والسنن الإلهية والتشريع، وجله في أحكام القتال وما يتعلق به من الاستعداد له وأسباب النصر فيه، وغير ذلك من الأمور الروحية والمالية، واحكام المعاهدات والمواثيق وحفظها ونبذها عند وجود المقتضى له، وأحكام الولاية في الحرب وغيرها بين المؤمنين بعضهم مع بعض، والكافرين بعضهم مع بعض، وكذا أحوال المؤمنين الصادقين، والكفار والمذبذبين من المنافقين ومرضى القلوب، فما بدئ به في الأولى أتم في الثانية..)[2].

ويقول الإمام الزمخشري: (كلتاهما نزلت في القتال، تُعدان السابعة من الطوال وهي سبع وما بعدها المئون، وهذا قول ظاهر لأنهما معاً مائتان وست فهما بمنزلة إحدى الطوال). [3]

مناسبة السورة بما بعدها "سورة يونس": بين المفسرون التناسب بين السورتين بدقة، وبإسهاب من خلال الموضوعات التي تناولتها السورتين، وأن أول سورة يونس كالمتمم لآخر سورة التوبة لا مجال لبيانها جميعها[4]؛ أذكر منها أن:

(سورة التوبة: تُعنى بجانب التشريع، وقواعد الإصلاح والبناء، وأسس التربية الإسلامية داخل المجتمع الإسلامي... وسورة يونس مكية تتميز بطابع خاص هو العقيدة في مفهومها الواسع، وتتناول الجوانب الأخرى من إثبات الوحي والنبوة وإثبات

([1]) للمزيد انظر: القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري، (ت 671هـ)، الجامع لأحكام القرآن، ج7، مؤسسة مناهل العرفان، بيروت، ص 61-62، وانظر: البقاعي، نظم الدرر، ج 8، ص 355 – ص 361 .

([2]) رضا، محمد رشيد، (ت 1935م)، تفسير القرآن الحكيم (المنار)، دار المنار، القاهرة، ط2، 1947، ج 10، ص147. وانظر: الخطيب، حسن عبد الله طه: أهداف ومقاصد موضوعات سورة التوبة، ص 24 –26 .

([3]) الزمخشري، الكشاف،ج2، دار الفكر، ص171، وانظر: البقاعي، نظم الدرر، ج8، ص356.

([4]) انظر: طنطاوي جوهري، الجواهر في تفسير القرآن الكريم، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، 1346 هجري ، ج6 ص4.

البعث والجزاء كسائر السور المكية والتناسب بينها وبين سورة التوبة واضح، خاصة فيما يتعلق بإثبات الوحي ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم).[1]

كما تناولت سورة التوبة أشهر السنة الإثني عشر، التي هي أصل حساب السنين، وفي سورة يونس ذكر ما يستند عليه في تعلم عدد السنين والحساب، و تحدثت كل منهما عن موضوع عدم إعجاز المشركين لله تعالى في شيء، وغيرها من الموضوعات ...[2]

3.2.1 الموضوعات التي تعالجها:

هذه السورة الكريمة هي آخر ما نزل على رسول الله – صلى الله عليه وسلم–؛ أي في نهاية الدعوة في العهد النبوي، وكأن هذه السورة تمثل البيان الختامي للدعوة والرسالة، وقد نزلت في وقت كان المسلمون يستعدون للخروج برسالة الإسلام إلى خارج الجزيرة العربية، والانفتاح بهذه الرسالة على العالم كله، وخلاصة ما جاءت به السورة هو كيفية التعامل مع أطياف المجتمع الضالة، وبيان القانون الإسلامي في معاملة المشركين، وأهل الكتاب، والمنافقين، وإظهار ما كانت عليه النفوس حينما استنفرهم الرسول لغزو الروم.[3]

وقد قسّم سيد قطب موضوعات هذه السورة ستة مقاطع:

(المقطع الأول: تحديد العلاقات النهائية بين المعسكر الإسلامي والمشركين عامة في الجزيرة، أما المقطع الثاني: فقد تضمن تجديدا للعلاقات النهائية بين المجتمع المسلم وأهل الكتاب عامة، وفي المقطع الثالث: يبدأ النعي على المتثاقلين عن الجهاد، المقطع الرابع – وهو أطول مقاطعها، وهو يستغرق أكثر من نصفها– يجيء في فضح

([1]) صفوان جاج اسماعيل عبد الله، معالم الجهاد في سورة التوبة، رسالة ماجستير، 2000، ص 18 .

([2]) انظر: الألوسي، روح المعاني، مجلد 4، ج6، ص 55، وانظر: الخطيب، حسن عبد الله طه، أهداف ومقاصد موضوعات سورة التوبة، ص 30 .

([3]) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 10، ص 98–101، وانظر: الصابوني، محمد علي، صفوة التفاسير، دار القرآن، بيروت، ط2، 1981، ج 1، ص 581.

المنافقين وأفاعيلهم في المجتمع المسلم، ووصف أحوالهم النفسية والعملية، والمقطع الخامس هو استعراض التصنيف القرآني الوارد في السورة للجماعات المتنوعة التي كان المجتمع المسلم يتألف منها في هذه الفترة، والمقطع السادس: يتضمن تقريراً لطبيعة البيعة الإسلامية مع الله على الجهاد في سبيله وطبيعة هذا الجهاد وحدوده...).[1]

والمحور الرئيس للسورة هو التوبة، وذلك ترغيب من الله في التوبة والإقلاع عن الشرك الموجب لكون الله ورسوله موصوفين بالبراءة منه وإن أعرضوا عن التوبة فسينزل أشد العذاب بهم [2] (فأول السورة توبة، قال الله تعالى: ﴿فإن تبتم فهو خير لكم﴾[التوبة:3]، وتوبة يتبعها مغفرة من الله ورحمة، قال الله تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[التوبة:5]، وفي وسط السورة توبة، رغم عظم جرم المشركين بشديد عداوتهم للمؤمنين، وبالرغم من قسوة المنافقين؛ قال الله تعالى: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِنْكُمْ﴾[التوبة:66]، ويتوب جل في علاه عليهم، قال الله تعالى: ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾[التوبة:74] ، وختم السورة بقصة الثلاثة الذين خلّفُوا وتوبته عليهم بأجمل صور التوبة ومعانيها، قال الله تعالى:﴿وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّواْ أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[التوبة:118]، وبالتالي فإن جو السورة العام هو التوبة والرحمة والرأفة والعفو والصفح، وأن ديننا خيرٌ محض، مع أن بدايتها شديدة على المشركين عموما، إلا أنها ختمت بأروع الآيات وأحسنها...[3]

([1]) قطب، سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي، (ت 1385هـ)، في ظلال القرآن، دار العلم، جدة، المجلد 3، ط 12 ، 1986، ص 1564 – ص 1570، بتصرف.

([2]) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ج15، ص 527 .

([3]) انظر: القاسمي، محاسن التأويل، ج5، ص342 ، والخطيب ، حسن عبد الله طه : أهداف ومقاصد موضوعات سورة التوبة، ص 45 بتصرف.

الجو الذي نزلت فيه السورة :

نزلت سورة التوبة في السنة التاسعةِ للهجرة –كما أوضح كثير من المفسرين كالزمخشري، والرازي ... وغيرهم– وهو العام الذي خرج فيه رسول الله –صلى الله عليه وسلم– لغزو الروم؛ وهي ظروف مواتية لإقرار أحكام نهائية مع معسكر الكفر، بعد أن أصبح للإسلام العزة والقوة.(1)

يقول سيد قطب مبيناً مراحل نزول السورة: (ومع أننا لا نملك الجزم بالمواقيت الدقيقة التي نزلت فيها مقاطع السورة في خلال العام التاسع، إلا أنه يمكن الترجيح بأنها نزلت في ثلاث مراحل: **المرحلة الأولى** منها كانت قبل غزوة تبوك في شهر رجب من هذا العام، **والمرحلة الثانية** كانت في أثناء الاستعداد لهذه الغزوة ثم في ثناياها، **والمرحلة الثالثة** كانت بعد العودةِ منها...(2)، أي كأن آياتها وموضوعاتها؛ أتت شديدة اللهجة مناسبة لجو الأزمات من القتال والغزوات، والبراءة، ونقض العهود... وغيرها.

وكان الموسم الذي نزلت فيه أوائل السورة : هو موسم الحج فقد روى المفسرون أنه قد (بعث رسول الله –صلى الله عليه وسلم– أبا بكر – رضي الله عنه– أميراً على الموسم سنة تسع، وبعث علي بن أبي طالب –رضي الله عنه– بثلاثين آية من براءة؛ فقرأها عل الناس، يؤجل المشركين أربعة أشهر يسيحون في الأرض فقرأها عليهم يوم عرفة أجلهم عشرين من ذي الحجة والمحرم وصفر وشهر ربيع الأول وعشراً من ربيع الآخر، وقرأها عليهم في منازلهم وقال: لا يحجن بعد عامنا هذا مشرك ولا يطوفن بالبيت عريان ...(3)

---

(1) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ج 15، ص 226، وانظر: عبد الله، صفوان جاج اسماعيل، معالم الجهاد في سورة التوبة، ص 22 .

(2) قطب، سيد، في ظلال القرآن، المجلد 3، ص 1564 –1565.

(3) ابن كثير، عماد الدين أبي الفداء اسماعيل بن كثير القرشي، (ت 774 هـ)، تفسير القرآن العظيم، مجلد 2، دار الخير، بيروت، ط1، 1990، ص 366. وانظر نص الحديث: في البخاري، كتاب التفسير، باب قوله تعالى ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الناسِ يَوْمَ الحَجِّ

4.2.1 خصائصها (فضلها) وما تميزت به:

1-إنّ أول ما يميّزها عن غيرِها -كونها آخر ما نزل من القرآن- أنها (تضمنت أحكاماً نهائيةً في العلاقات بين الأمة المسلمة وسائر الأمم في الأرض؛ كما تضمنت تصنيف المجتمع المسلم ذاته، وتحديد قيمه ومقاماته، وأوضاع كل طائفة فيه وكل طبقة من طبقاته، ووصف واقع هذا المجتمع بجملته وواقع كل طائفة منه وكل طبقة وصفاً دقيقاً[1]، وقد (كانت هذه السورة سورة الحسم الكامل لأوضاع غير المسلمين، وربما كانت من أهم السور التي حشدت جيش الإيمان وأعدته للمعركة الفاصلة النهائية بين المسلمين وغيرهم، سواء في داخل الدولةِ بتصفيةِ جذور النفاق، والقضاء على مكر اليهود، أو في خارج الدولة بالتصدي لغطرسةِ الروم في غزوة تبوك التي أرهبتهم، وجمّدت كل تحركاتهم المشبوهة للقضاءِ على الإسلام والمسلمين).[2]

2- لقد تكرر ذكر لفظة "التوبة" في السورة الكريمة سبعة عشر مرة [3]؛ في كل مرة تحمل معنى جديد من معاني التوبة وذلك من بداية السورة لنهايتها[4]؛ لتشمل توبة الله ومغفرته جماعات كثيرة، وتحث آخرين، وتهيء لآخرين أسباب التوبة ليتوبوا .

3-عدم ورود البسملة من أول هذه السورة: اختلفت أقوال العلماء في سبب ترك الصحابة الذين كتبوا المصحف كتابة البسملة قبل سورة براءة؛ ولا مجال لذكر أقوال العلماء كلها هنا؛ ولكن الرأي المعتمد المختار في تعليل ذلك : أنها لم تنزل معها كما نزلت مع غيرها من السور، وأن كل ما جاء في القرآن الكريم

الأَكْبَرِ أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ منَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾، [سورة التوبة: 2]، حديث رقم 4656، ج6، ص 65.

([1]) قطب، سيد، في ظلال القرآن، المجلد 3، ص 1564 .

([2]) بتصرف الزحيلي، وهبة، التفسير المنير، دار الفكر، بيروت، ط 1، 1991،ج 9، ص95.

([3]) انظر: محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص 156-158 .

([4]) انظر: القاسمي، محاسن التأويل، ج5، ص 342.

توقيفي؛ كما أبلغه الوحي للرسول محمد–صلى الله عليه وسلم–[1]، و(ليعلم أنه يخص من يشاء وما يشاء بما يشاء، ويفرد من يشاء وما يشاء بما يشاء، ليس لصُنعه سبب، وليس له في أفعاله غرضٌ ولا أرب، واتضح للكافة أن هذه الآية أُثبتت في الكتاب لأنها منزلة، وبالأمر هنالك محصلة).[2]

4- (بينت هذه السورة أن القاعدة الصلبة من المهاجرين الأوائل، والتي انضم إليها السابقون من الأنصار ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[التوبة: 100]؛ والتي اتسعت أبعادها قبيل الفتح لتشمل "أصحاب بيعة الرضوان" ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا*وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[الفتح: 18-19]، صارت هذه القاعدة تتمثل في المجتمع المدني بجملته، وهي التي حرست الإسلام وصانته من الهزات بعد الفتح، ثم من الهزة الكبرى بعد وفاة رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وارتداد الجزيرة عن الإسلام؛ وبالتالي نجاح الدعوة الإسلامية إلى يومنا هذا ...[3]

([1]) انظر: القرطبي، محمد بن أحمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن، ج7، ص63، السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، الإتقان في علوم القرآن، ص199–203 ، الرازي، مفاتيح الغيب، ج15، ص224، الشعراوي، محمد متولي، تفسير الشعراوي، ج8، ص4832 ، رضا، محمد رشيد، المنار، ج 10، ص 146.

([2]) القشيري، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك، (ت 465هـ)، لطائف الإشارات، تحقيق إبراهيم بسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط3، 2000، ج2، ص5.

([3]) قطب، سيد، في ظلال القرآن، المجلد 3، ص1575–1577، بتصرف.

الفصل الثاني

أسباب الأزمات الأساسية وأشكالها في السورة

1.2 أسباب نشوئها:

لكل ظاهرة أسباب ودوافع تؤدي إلى وجودها، إذ لا يختلف على ذلك اثنان، والأزمات ظاهرة من هذه الظواهر أسبابها متعددة؛ قد تكون انسانية، أو إدارية، أو خاصة، أو عامة، وقد تعود أسبابها في المنهج الإسلامي، إلى بعدٍ سلبي: (كالذنوب والمعاصي، الفساد والظلم، جحود نعم الله... وغيرها، أو بعدٍ إيجابي (كالابتلاء الواقع على المؤمن لاختباره وتمحيصه، ونحو ذلك ...).[1]

وقد اعتبر بعضهم آية الابتلاء في سورة البقرة ، بقوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾[البقرة: 55]، محددة لأسباب الأزمات بشكل عام بخمسة أمور لا تخرج عنها هي:

1-الخوف: ويكون الخوف من العدو إما على النفس أو الدين أو غير ذلك مما يسبب الشدة والضيق.

2-الجوع: وهو سبب من أسباب الأزمة وقد يؤدي إلى صراع أو تخلي عن قيم ومبادئ.

3-نقص الأموال: والمال هو عصب الحياة ومما جبلت النفوس على حبه لأن به قيام الحياة وبه تقوى المجتمعات .

4-نقص الأنفس: وفي نقص الأنفس نقص في الموارد البشرية فيقل الإنتاج ويزداد العبء على المجتمعات ويطمع فيها الأعداء .

---

(1) انظر: محمد ايثار عبد الهادي، استراتيجية ادارة الأزمات، تأطير مفاهيمي على وفق المنظور الاسلامي، البحث منشور في مجلة العلوم الاقتصادية والإدارية، كلية الادارة والاقتصاد، جامعة بغداد، المجلد (17)، العدد (64)، كانون الأول (2011)، 47-63. ص 51- 52 .

5-نقص الثمرات: وذلك لتعلق النفس فيها من الضيق والشدة مما يستدعي الاستئثار بالقليل.[1]

وعند تمحيص النظر في سورة التوبة، والتركيز على الأزمات التي حوتها هذه السورة الكريمة، أرى أن أسباب الأزمات فيها تعود لما يلي :

المطلب الأول: النسيج المجتمعي غير المنسجم حينئذ .

المطلب الثاني: غياب مقومات الاستقرار الديني والأمني والسياسي.

المطلب الثالث: الفساد الأخلاقي والتربوي .

المطلب الرابع: الإساءة لقائد الأمة .

1.1.2 النسيج المجتمعي غير المنسجم حينئذ:

إذ كان يتكوّن مجتمع المدينة حينها من فئات مختلفة فكرياً، وعقدياً، ومنهجاً، وانتماءً، وولاءً؛ تتمثل في الاتجاهات الآتية: (المؤمنون، المشركون، المنافقون، وأهل الكتاب)، يضاف إلى ذلك أن المسلمين أنفسهم متباينون من جهة الإيمان والسبق، فمنهم السابقون الأولون، ومنهم المهاجرون، والأنصار، وأصحاب البيعة، والأعراب الذين دخلوا في الإسلام مؤخراً... وهكذا.

وقد جاءت هذه السورة تبين نوع هذه الخلخلة، وتوضح قلة التناسق بين مستوياته الإيمانية... وأخذت حيزاً مع المشركين، وحيزاً مع اليهود والنصارى، وحيزاً مع المنافقين، كما وحددت المؤمنين في آخر السورة، حددت أيضاً مواقف كل من هؤلاء، وقد كان بيان موقف هؤلاء ضرورياً؛ لأن المنافق مثلاً متعارض الملكات، والكافر منسجم الملكات، فالمنافق ينطق لسانه عكس ما في قلبه، والكافر إنما ينطق ما في قلبه، ولكن المنافق والكافر يتفقان في عداوة المؤمن؛ ولذلك فضح الله سبحانه وتعالى هؤلاء الأعداء، وأظهر ما في أعماق الكافرين والمنافقين، وخصومتهم

([1]) انظر: البغوي، معالم التنزيل،ج1، ص169، وقطب، سيد، في ظلال القرآن، ج1، ص139، وانظر: الشلوي، فهد بن ناجي، دور التربية الإسلامية في مواجهة الأزمات، رسالة ماجستير، 1428هـ، ص11 – 12.

للإسلام...[1]، وقد كشف الحق سبحانه وتعالى لرسوله وللمؤمنين كل أصناف الأعداء؛ وهذا واضح من خلال الأسماء المتعددة للسورة؛ فمثلاً أُطلق على هذه السورة بأنها "الفاضحة" لأنها فضحت كل العيوب، وسورة العذاب؛ لأنها تكشف ما في الصدور، وأعطت لكل عدو للإسلام جزاؤه، وكشفت الستار عن أعماق كل منافق، وكذلك سميت المقشقشة لأنها تقشقش من النفاق، والمبعثرة؛ فهي تبعثر أسرار المنافقين، والمثيرة، والحافرة، والمدمدمة، والمهلكة، وكل ذلك في كشف المنافقين.[2]

أما الطبقات التي تقوم على قيم اسلامية بحتة؛ فيقول عزّ وجلّ فيها "مبيناً سبب نزول الابتلاءات، والمحن" عليهم: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ اللّهِ وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾[التوبة: 16].

أي (أَمْ حَسِبْتُمْ)، أيها المؤمنون أن يترك, الله بغير محنة يمتحنكم بها، وبغير اختبار يختبركم به، فيعرف الصادقَ منكم في دينه من الكاذب فيه، ويعرف به أهل ولايته المجاهدين منكم في سبيله، من المضيِّعين أمرَ الله في ذلك المفرِّطين[3]، وقيل إن الخطاب (إما لمن شق عليهم القتال من المؤمنين، أو المنافقين ...).[4]

إنّ الإخلاص والصدق هو عنوان الجماعة المؤمنة، وأيّ خلطٍ سيؤدّي إلى تعرّض الجماعة المؤمنة للابتلاءات والأزمات ليُمحّص الله المخلصين الصّادقين من الكاذبين، ويمثل هذا السبب البُعد الإيجابي، من أبعاد أسباب الأزمات؛ في اختبار المؤمنين؛ كما مر معنا قريباً.

---

(1) انظر: قطب، سيد، في ظلال القرآن، المجلد 3، ص1564– 1570، وانظر: الشعراوي، محمد متولي، تفسير الشعراوي، ج 8، 4835 .

(2) انظر: الشعراوي، محمد متولي، تفسير الشعراوي، ج8، 4857.

(3) الطبري، أبو جعفر، محمد بن جرير بن يزيد الآملي، (ت 310 هـ)، جامع البيان في تأويل القرآن، ج 14، ص 163.

(4) أبو السعود، محمد بن محمد العمادي الحنفي قاضي القضاة، (ت 982 هـ)، ارشاد العقل السليم الى مزايا الكتاب الكريم، تفسير أبو السعود، دار احياء التراث العربي، بيروت، ط4، 1994 م، ج 3، ص 49 .

2.1.2 غياب مقومات الاستقرار الديني والأمني والسياسي، وفيه : الكفر والشرك بالله، نقض العهود، زوال الأمان والحروب:

هناك عقبات وأزمات كان سببها أهل الشرك والكفر وأعمالهم، بينتها الآيات؛ سواء من المشركين، أو من أهل الكتاب، أو المنافقين، دالة على سوء فهم، وإدراك، وسوء تقييم وتقدير أهل الكفر؛ فكل من كان إيمانه غير إيمان الموحدين وإيمانهم غير إيمان بمحمد عليه الصلاة و السلام، و بما جاء به فقد سبب أزمة (1)... فمثلاً قال تعالى في أهل الكتاب: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾[التوبة: 29]، فقد حددت الآيات حقيقة ما عليه أهل الكتاب؛ ونصت على أنه " شرك" و" كفر" و"باطل" وقدمت الوقائع التي يقوم عليها هذا الحكم، سواء من واقع معتقدات أهل الكتاب، والتوافق والتضاهي بينها وبين معتقدات "الذين كفروا"، أو من سلوكهم وتصرفهم الواقعي، ومن هذه النصوص تقرر أنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الأخر، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله "كالنسيء مثلاً "، ولا يدينون دين الحق، وأنهم قالوا على الله غير الحق؛ فاليهود منهم من قالت: عزيرٌ ابن الله، والنصارى منهم من قالت: المسيح ابن الله، وأنهم في هذين القولين يضاهئون قول الذين كفروا من قبل، وأنهم أيضاً اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، وأنهم محاربون لدين الله يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم وأنهم لهذا "كافرون"، وأن كثيراً من أحبارهم ورهبانهم يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله.(2)

ومما سبب للمنافقين العذاب؛ الفتن بأنواعها، قال تعالى: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾[التوبة: 49]؛ فالفتنة : تشديد المحنة، يقال فتن فلان عن

---

(1) انظر: الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي (ت 468 هـ)، الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق صفوان عدنان داووي، دار القلم، بيروت، ط 1، 1415 هجري، ج1، ص 285 .

(2) انظر: الزمخشري، الكشاف، ج2، ص184، وانظر: قطب، سيد، في ظلال القرآن، المجلد3، ص1621-1653.

دينه إذا اشتدت عليه المحنة حتى رجع عن دينه...[1]، وكما مر معنا في الفصل الأول من البحث، فأهل الشرك والكفر يستحقون العذاب الشديد لأفعالهم، يقول تعالى: ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾[التوبة: 52] أي ونحن ننتظر بكم أن يصيبكم الله بعقوبة من عنده عاجلة، تهلككم، (أو بأيدينا)، فنقتلكم)[2]. فمن أسباب هلاك أهل الشرك والكفر والنفاق بالعذاب، والفتن في هذه الآيات وغيرها في السورة؛ ابدالهم الايمان بالكفر، وجحودهم بنعم الله، وارتكابهم الذنوب والمعاصي... وغيرها.

أما نقض العهود، وزوال الأمان، والقتل:

فهي من أهم أسباب البراءة منهم، وهلاكهم جميعاً، ومن أهم أسباب الأزمات في هذا العام من الدعوة فقد (كان رسول الله –صلى الله عليه وسلم– عاهد قريشاً، وعاهد اليهود، ولم يوفّ هؤلاء بالعهود، وكان لزاماً أن ينقض رسول الله –صلى الله عليه وسلم – هذه العهود [3] .

وقوله تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [سورة التوبة:1]، قال المفسرون: لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك، كان المنافقون يرجفون الأراجيف وجعل المشركون ينقضون عهودا كانت بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأمر الله –عز وجل– بنقض عهودهم، ثم إذلالهم بالقتل في الدنيا والعذاب في الآخرة[4]، (ولذلك أوضح سبحانه وتعالى بهذه الآية لأصحاب العهود التي كانت بينهم وبين محمد –صلى الله عليه وسلم– : أنتم لستم أهلاً للأمان

([1]) الرازي، الإمام محمد فخرالدين ابن العلامة ضياء الدين عمر، (ت 604 هـ)، تفسير الفخر الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، دار الفكر، بيروت، ط 1، 1990،ج 22، ص55.

([2]) الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج 14، ص 291.

([3]) الشعراوي، محمد متولي، تفسير الشعراوي، ج 8، 4858، ومن المناسب أن أشير إلى أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– لم ينقض عهداً في حياته، بل أنه عاملهم بما يستحقون من نقض العهود .

([4]) البغوي، معالم التنزيل، ج4، ص8، وانظر: الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج14، ص 96 .

ولا للوفاء بالعهود؛ لذلك نحن قد قطعنا هذه العهود، وهذه القطيعة ليست من إرادة بشرية من محمد –صلى الله عليه وسلم–، وأصحابه، ولكنها قطيعة بأمر الله تعالى...)[1]، وقد أمر الله الصحابة بقتالهم، فهم البادئون، والباديء أظلم، فقال: ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[التوبة: 13]، وقوله تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ* وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[التوبة: 14، 15]، فقد ذكر الله تعالى ثلاثة أسباب كل منها يوجب مقاتلتهم لو انفرد، فكيف بها في حال الاجتماع: أحدها: نكثهم العهد ﴿نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ﴾، ثانيها: قوله ﴿وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾ فإن هذا من أوكد من يجب القتال لأجله، وثالثها: قوله: ﴿وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ يعني بالقتال يوم بدر، وقوله: ﴿يُعَذِّبْهُمُ الله بِأَيْدِيكُمْ﴾، أنه تعالى سمى ذلك عذاباً وهو حق فإنه تعالى يعذب الكافرين فإن شاء عجله في الدنيا وإن شاء أخره إلى الآخرة، وأن المراد من هذا التعذيب: القتل تارة، والأسر أخرى، واغتنام الأموال ثالثاً...). [2]

وقد أزال الله تعالى عنهم الأمان، وذلك من بداية السورة؛ بعدم ذكر البسملة في أوله كباقي سور القرآن؛ فقد (روي عن محمد بن الحنفية[3]، قال: قلت لأبي: لِمَ لَمْ تكتبوا في "براءة" "بسم الله الرحمن الرحيم"؟ فقال: يا بني، إن "براءة" نزلت بالسيف، وإن

([1]) الشعراوي، محمد متولي، تفسير الشعراوي، ج 8، 4859 .

([2]) انظر: الرازي التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، نهاية، ج15، ص 243، وبداية ج 16، ص3، وانظر: الزمخشري، الكشاف، ج2، ص 177 .

([3]) محمد بن علي بن أبي طالب، ولد وتوفي بالمدينة (21–81هـ)، الهاشمي القرشي، المعروف بابن الحنفية، أحد الأبطال في صدر الإسلام، هو أخو الحسن والحسين، غير أن أمهما فاطمة الزهراء، وأمه خولة بنت جعفر الحنفية، يُنسب إليها تمييزاً له عنهما، وكان أسود اللون، واسع العلم، ورعاً، شجاعاً...، انظر: الزركلي، خير الدين، الأعلام، ج 6، ص 270 .

"بسم الله الرحمن الرحيم" أمان. وسئل سفيان بن عيينة[1] عن هذا، فقال : لأن التسمية رحمة، والرحمة أمان، وهذه السورة نزلت في المنافقين).[2]

3.1.2 الفساد الأخلاقي والتربوي، وفيه :

الفساد في الأرض بشتى صوره كالظلم والشح... وغيرها من الأسباب الواضحة في خسران وعذاب أهل الباطل، وأمثلته متعددة في السورة أهمها: الفساد في التعامل في الأموال العامة والخاصة؛ مثل الظلم، والشح، والاعتداء على أموال الآخرين، فهم معتدون، ظلمة، قال تعالى يصف ظلمهم في السورة: ﴿لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلا وَلا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾[التوبة: 10](فهم معتدون: أي مجاوزون الغاية القصوى من الظلم والشرارة).[3]

ويُعد الفساد في التعامل بالأموال من أهم مسببات الأزمات في جميع الدول عبر الزمان والمكان، ومن الظلم والفساد الذي وضحته الآيات في السورة عند جماعات

([1]) سفيان بن عيينة بن ميمون الهلالي الكوفي، أبو محمد، محدث الحرم المكي، من الموالي، ولد بالكوفة سنة 107هـ، وسكن مكة، وتوفي فيها سنة 198هـ، كان حافظاً ثقة، واسع العلم، كبير القدر، وكان أعور، وحج سبعين سنة، إذا حدث له الجامع في الحديث، وكتاب في التفسير، انظر: الزركلي، الأعلام، ج 3، ص 105

([2]) ابن الجوزي، جمال الدين بن عبدالرحمن بن علي بن محمد، (ت 597هـ)، زاد المسير في علم التفسير، حققه محمد بن عبدالرحمن عبد الله، دار الفكر، بيروت، ط 1، 1978، ج3، ص 265، وانظر: الحاكم النيسابوري، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه (ت 405هـ)، المستدرك على الصحيحين، تحقيق أبو عبد الرحمن مقبل بن هادي الوادعي، دار الحرمين، القاهرة، ط1، 1997م، حديث رقم 3333، ج2، ص392، وعقّب ابن حجر على اسناده: إِسْنَادٌ ضَعِيفٌ جِدًّا. وَمُحَمَّدُ بْنُ زَكَرِيَّا هُوَ الْعَلائِيُّ، وَهُوَ مَتْرُوكٌ. إِسْنَادٌ ضَعِيفٌ جِداً. انظر: إتحاف المهرة بالفوائد المبتكرة من أطراف العشرة، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (ت 852هـ)، تحقيق: مركز خدمة السنة والسيرة، بإشراف زهير بن ناصر الناصر، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف (بالمدينة) ط1، 1415 هـ- 1994 م، ج11، حديث رقم 14530، ص 510.

([3]) الألوسي، روح المعاني، مجلد 4، ج 5، ص 252 .

من أهل الكتاب، أنهم يأكلون أموال الناس بالباطل قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[التوبة: 34].

(والباطل يشمل وجوها كثيرة، منها تغيير الأحكام الدينية لموافقة أهواء الناس، ومنها القضاء بين الناس بغير إعطاء صاحب الحقّ حقّه المعين له في الشريعة، ومنها جحد الأمانات عن أربابها أو عن ورثتهم، ومنها أكل أموال اليتامى، وأموال الأوقاف والصدقات)[1]، (ويكون أيضاً بالظلم، والكذب، ويحرفون كتاب الله، ويكتبون بأيديهم كتباً يقولون: هذه من عند الله، ويأخذون بها ثمناً قليلاً من سفلتهم، وذكر الأكل لأنه معظم المقصود من المال...)[2]، ثم أشار الله تعالى الى الكثير من الأحبار والرهبان الذين تجتمع فيهم خصيلتان ذميمتان: الرشا، وكنز المال والشح والبخل، والضن بها عن الإنفاق في سبيل الخير، ومن أشركهم في صفتهم الذميمة هذه من المسلمين ، يدخل في حكمهم، وقد قرن بينهم وبين المرتشين من أهل الكتاب تغليظا، ودلالة على أن من يأخذ السحت، ومن لا يعطي منكم طيب ماله؛ سواء في استحقاق البشارة بالعذاب الأليم[3]. وقال تعالى يبين سبب عذاب طائفة منهم وهم المنافقون، ويبين كذبهم بالتعامل بما أنعم الله عليهم من المال: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آَتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ* فَلَمَّا آَتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾[التوبة: 75–77]، وهؤلاء هم من المنافقين الذين كذبوا فيما عاهدوا عليه وأكدوه غاية التأكيد، فلم يتصدقوا بل منعوا الحق الواجب إظهاره فضلاً عن صدقة السر وكلفوا أنفسهم الإعراض عن الطاعة لمن تفضل عليهم مع معرفتهم بقبح نقض

(1) ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، الدار التونسية، تونس، 1984، ج10، ص175 .

(2) انظر: ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، ج 3، ص 291، وانظر: البغوي، معالم التنزيل، ج 4، ص 41 .

(3) انظر: الزمخشري، الكشاف، ج2، ص 187.

العهد[1]، ثم يبين الله –جل في علاه– عدم الاغترار بأموالهم وإن كثرت فهي سبب عذابهم، وسبب العسر الذي سيواجههم بقوله : ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾[التوبة: 85]، وهناك صنف من الأعراب، ينفقون من أموالهم، وتكون سبب هلاكهم، وعذابهم، يقول تعالى: ﴿وَمِنَ الأعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[التوبة: 98]، (فهو مضطر لأن ينفق من ماله في الزكاة، وفي غزوات المسلمين؛ تظاهراً بالإسلام، ليستمتع بمزايا الحياة في المجتمع المسلم؛ ومداراة للمسلمين وهم أصحاب السلطان اليوم في الجزيرة، وهو يعد ما ينفقه غرامة وخسارة يؤديها كارهاً، لا مساعدة للغزاة المجاهدين، ولا حباً في انتصار الإسلام والمسلمين، وينتظر متى تدور الدائرة على المسلمين، ويتمنى ألا يعودوا من غزاة سالمين، وهنا يعاجلهم السياق بدعاء من الله –سبحانه– عليهم؛ ودعاء الله معناه وقوع مدلول الدعاء عليهم: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾، كأن للسوء دائرة تطبق عليهم فلا تفلتهم؛ وتدور عليهم فلا تدعهم. وذلك من باب تجسيم المعنوي وتخييله، الذي يعمق وقع المعنى ويحييه)[2]، (ولكن لماذا قال الحق: {الدوائر}؟ نعلم أن الخطب الشديد حين يصيب الإنسان أو القوم إن كان فظيعاً، وقوياً يقال: "دارت عيهم الدوائر"، أي أن المصيبة أحاطت بهم؛ فلا منفذ لهم يخرجون منه؛ فكانت بعض الأعراب تتمنى وتنتظر أن يصيب المسلمين كارثة؛ فلا يأخذوا منهم الزكاة التي اعتبروها مغرما...).[3]

ومن أعمال الفساد التي سببت الأزمات وبوضوح ذكرها الله تعالى في السورة :

الإرجاف والتثبيط، وإثارة الفتن والإشاعات: وهي من أسباب الأزمات في كل زمان ومكان: يقول تعالى في المنافقين المتخلفين عن غزوة تبوك: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلا خَبَالا وَلأوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾[التوبة: 47]، (فالمنافقون لو خرجوا معكم ما زَادُوكُمْ إلا فساداً وشراً، والفساد: إيقاع الجبن والفشل بين المؤمنين بتهويل الأمر، ثم لأسرعوا في وسطكم

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ج 8، ص 552 –553 .

(2) قطب، سيد، في ظلال القرآن، المجلد 3، ص1701 .

(3) الشعراوي، محمد متولي، تفسير الشعراوي، ج 9، 5439.

يوقعون العداوة والبغضاء بينكم بالنميمة ونقل الحديث من البعض إلى البعض... وغيرها[1]، وهذه وظيفة جماعة من المنافقين وطائفة من (القلوب الحائرة تبث الخور والضعف في الصفوف، والنفوس الخائنة خطر على الجيوش؛ ولو خرج أولئك المنافقون ما زادوا المسلمين قوة بخروجهم بل لزادوهم اضطراباً وفوضى، ولأسرعوا بينهم بالوقيعة والفتنة والتفرقة والتخذيل، وفي المسلمين من يسمع لهم في ذلك الحين .) [2]

أما الاعجاب والاغترار بالقوة؛ فهو من الأسباب القوية للتراجع بعد القوة، وللهزيمة بعد الانتصار ومن الأمثلة عليها في السورة: ما حدث للمسلمين في غزوة حنين، يقول تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾[التوبة: 25]، أي قلتم: لن نغلب اليوم من قلة، ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ﴾ كثرتكم، ﴿شَيْئًا﴾ يعني إن الظفر لا يكون بالكثرة، ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ أي برحبها وسعتها، ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾ منهزمين...[3]. فالغرور والعجب من أسباب الفشل، والهزيمة، والضيق الشديد.

4.1.2 الإساءة لقائد الأمة وفيه:

عدم اعطاء رسول الله –صلى الله عليه وسلم– حقه، والاستهزاء به من أسباب الأزمات الواضحة في السورة، وغيرها من سور القرآن، وهو من أهم الأسباب للأزمات وهلاك الأمم عبر الزمان، والمكان؛ فما أن بعث رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وجاء بدعوة الخير، حتى واجه إيذاءً وتمرداً من قومه، وهم أصحاب النفوذ الذين يخافون أن يذهب منهج هذا النبي بنفوذهم، وثرواتهم، وما أخذوه ظلماً من الضعفاء؛ (ولا يجيء رسول بدعوة خير إلا إذا كان الشر قد عم المجتمع، وحين يعم الشر في المجتمع فهناك مستفيدون منه، فإذا أتى رسول الله بالخير أسرع جنود الشر

---

(1) البغوي، معالم التنزيل، ج4، ص 56.

(2) قطب، سيد، في ظلال القرآن، المجلد 3، ص1663 .

(3) البغوي، معالم التنزيل، ج 4، ص31 .

ليؤذوا صاحب رسالة الخير، إذاً : فمن الطبيعي أن يكون للنبي أعداء...)[1]. وقد أكثر الله تعالى من ذكر نبيه الكريم في السورة؛ مبيناً مكانته عند ربه، وهداية دينه، وحقوقه على أمته؛ فقد اقترن اسمه باسم رب العالمين، وحقه – صلى الله عليه وسلم – بحقه –عز وجل–، في أربعة عشر شاهداً في السورة، وفي علو مكانته وعناية الله تعالى به وتكريمه وتأديبه، ذكر فيه إحدى عشر منقبة بالإجمال، وأضعاف ذلك بالتفصيل، وذكر في فضله –صلى الله عليه وسلم– على أمته، وحقوقه الواجبة عليها، وحكم إخلاله بها والتقصير فيها، في أكثر من خمسة عشر شاهداً...[2]، وسأذكر بعضاً من هذه الآيات في السورة: قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[التوبة: 24].

﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: 29]، ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[التوبة: 33]، ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[التوبة: 40]، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ*وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آَتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾[التوبة: 58/59]، ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة:61]، ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾[التوبة:84]، ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا

([1]) الشعراوي، محمد متولي، تفسير الشعراوي، ج 9، ص5243–5245 .

([2]) رضا، محمد رشيد، المنار، ج 11، ص147 .

بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[التوبة: 107].

وهكذا رأينا أن الله تعالى جعل في هذه السورة، "وغيرها " الإيمان برسول الله عليه الصلاة والسلام وطاعته، وحبه، وإرضائه مقرونة في المرتبة والثناء، والثواب بما له عز وجل من ذلك على عباده وجعل ما يقابل ذلك من الكفر به وعصيانه وبغضه وإغضابه، وإيذائه مقرونة في الحظر والكفر والوعيد واستحقاق العذاب الأليم بالكفر بالله وعصيانه ... وقد ذكر الله تعالى في السورة خمسة محظورات في التقصير في حقه عليه السلام توجب العذاب وهي: حظر إيذائه فداؤه أبي وأمي ونفسي، والوعيد عليها في الآية [61]، وحظر محادته أي معاداته والوعيد عليها في الآية [63]، والكفر الصريح بالاستهزاء به في الآية [65]، وحظر القعود عن الخروج معه للجهاد في الآيتين [81 و 90]، وحظر تخلفهم عنه والرغبة بأنفسهم عن نفسه في الآية [120](1) وعلى قدر عصيانه والإساءة له تكون الأزمات وتكون المصائب ويكون العذاب أشد من الله تعالى، وليست هناك أسباب للنيل من شخص الرسول وعدم طاعته والاستهزاء به؛ الا دليل على غيرة وغيض هؤلاء منه عليه الصلاة والسلام، وخوفهم من انتشار الإسلام، ورفعة شأن أهله، صلى الله عليه وسلم... ولقد ساءنا في هذه الأيام ما قام به سفهاء مجرمون في دول عدة من الاستهزاء بنبينا محمد –صلى الله عليه وسلم– بكلام ورسومات وعبارات وافتراءات كاذبه تسخر منه عليه السلام، وبالتالي تحتقر مشاعر المسلمين في العالم الإسلامي بالإساءة لنبيهم أطهر البشرية جمعاء وأزكاها، وهنا يقول تعالى واعداً نبيه بنصره: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ*إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾[الحجر: 95/94] أي: (لا تبال بهم واترك مشاتمتهم ومسابتهم مقبلا على شأنك بك وبما جئت به وهذا وعد من الله لرسوله، أن لا يضره المستهزئون، وأن يكفيه الله إياهم بما شاء من أنواع العقوبة، وقد فعل تعالى فإنه ما تظاهر أحد بالاستهزاء برسول الله صلى الله عليه وسلم وبما جاء به إلا أهلكه الله وقتله شر قتلة).(2) أما نتيجة الاستهزاء في زمن النبي –صلى الله عليه وسلم– فهي واضحة فقد سماهم الله

---

(1) انظر: رضا، محمد رشيد، المنار، ج 11، ص108– ص 114 .

(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ج1، ص 435.

تعالى منافقين، ومعلوم أن المنافقين في الدرك الأسفل من النار، أما عواقب الاستهزاء في زماننا الحاضر، فعاقبة الاستهزاء بالشيء الانصراف عنه احتقاراً واستكباراً ،والله يقول عن الكفار ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آياتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِها وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَكانُوا عَنْها غافِلِينَ﴾... فهؤلاء لا تفتح لهم طرق العلم التي لا تفتح أبواب السماء لهم إلا بمفاتيحه.[1]

ولكن هذه الأزمة أعادت الاعتبار للمسلمين وجعلت لهم وزناً، وأصبح كل حاقد على الإسلام يعيد حساباته قبل أن ينال من الإسلام وأهله، وأثبتتْ هذه الحادثة الدنيئة، أنَّ أمّتنا أمّة عظيمة، وفيها رجال يذودون بكل ما أوتوا دونَ نبيّهم الكريم –صلى الله عليه وسلم–، وأن فيها خيراً كثيراً، وهذا ما رأيناه من التسابق في المساهمة والبذل، وما نسمعه من استنفار الأمة كلها، والتحرك في جميع المجالات؛ حيث شارك في هذه الحملة المحامون والتجار والصناع والأكاديميون والطلاب والصغار والكبار والرجال والنساء، كما أن الأمة الإسلامية في العصر الحديث قلَّما قابلت حدثاً كان له مثل هذا التأثير، ثم أنها أرسلت رسالة واضحة للغرب، أننا نحن المسلمين لا نرضى أبداً أن يُمَسَّ دينُنا أو يُنَال منه، أو يعتدى على رسولنا؛ فكلّنا فداء له؛ بأبي هو وأمي –صلى الله عليه وسلم–.[2]

2.2 أهم أشكال الأزمات الأساسية العامة في السورة:

الأزمة السياسية:

وتعد الأزمة السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية من الأزمات الأساسية العامة في الدولة من حيث الشمول والتأثير: (وهذا النوع من الأزمات يصيب الدولة ككل، ويتأثر به المجتمع ككل، لكونه متصلاً بأدائه ككل، وهي أزمات شاملة عامة سواء في أسبابها أو نتائجها التي أفرزتها، أو في متطلبات العلاج الخاص بها،

(1) انظر: طنطاوي جوهري، الجواهر في تفسير القرآن الكريم، ج5، ص 141 .

(2) انظر: مجلة البيان، العدد 222، ص7، صفر، 1427هـ، وقفات شرعية مع جريمة الإساءة إلى مقام النبي –صلى الله عليه وسلم– ، الشيخ محمد بن صالح المنجد .

ولها من التداخلات والأبعاد المختلفة التأثير، ومن أهم المجالات التي تتصل بها هذه الأزمات: البنيان والأداء الاقتصادي للدولة، والنظام السياسي، والاستقرار السياسي والاجتماعي للدولة، والوضع الأمني الداخلي والخارجي وسيادة الدولة...[1] وأهم هذه الأزمات، وأولاها:

الأزمة السياسية:

وتعني هذه الأزمة وتُمثّل (موقف يستدعي اتخاذ القرار لمواجهة التحدي، والاستجابة الروتينية تكون غير كافية، الأمر الذي يتطلب تجديدات حكومية إذا كانت النتيجة لا تريد التضحية بمركزها)[2]، (وهي مرحلة متطورة من مراحل الصراع الدولي، قد يرجع هذا الصراع إلى أسباب اقتصادية واجتماعية أو ايدلوجية).[3]

وتُعد البيئة السياسية من أكثر البيئات خطورةً، وتأثيراً على الأزمات، وتتعلق هذه البيئة أساساً بالحقوق السياسية للمواطن، وطُرق وأساليب الانتخاب، وطُرق مباشرة الحقوق السياسية، وطُرق التعبير عن الرأي المعارض... ومدى تطبيق النُظم الديموقراطية أو الدكتاتورية في الدولة، ومن خلال هذا كله يُمكن قياس ومعرفة أداء الأزمة، وتحديد المسارات التي سوف تمر بها[4] وأستطيع تعريفها في بحثي هذا أنها "المواقف المتوقعة وغير المتوقعة واجهت رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فيما يخص الدولة الإسلامية، والتي تستدعي اتخاذ قرارات لمواجهتها، أو تطبيق قرارات إلهية بكونه عليه الصلاة والسلام نبياً مرسلاً ".

وسأتحدث عن هذه الأزمة بثلاثة مطالب:

المطلب الأول: قطع العصمة إلا بإيمانٍ أو أمان .

المطلب الثاني: أزمة الحريات الشخصية، وإقرار العقوبات.

المطلب الثالث: نزاعات وتحديات في بنية الدولة الداخلية.

---

(1) الخضيري، محسن أحمد، إدارة الأزمات، ص 83 – 84 .

(2) عبوي، زيد منير، إدارة الأزمات، ص 19.

(3) النوايسة، رياض حسين، أنموذج مقترح لإدارة الأزمات في وزارة التربية والتعليم، رسالة دكتوراة، 2006م، ص18.

(4) الخضيري، محسن أحمد، إدارة الأزمات، ص 47 .

1.2.2 أزمة قطع العصمة إلا بإيمانٍ أو أمان وفيه:

البراءة من المشركين، وعدم الاستغفار لهم: إن افتتاح السورة بالبراءة، وبدون بسملة يدخل في النفس الرهبة الشديدة والخوف الأشد(1)، وهو قرار شديد الوقع على النفوس، أزال الأمن وقطع العلاقة مع هؤلاء المشركين، وهو من أقوى الشدائد المفاجئة، والقرارات الحاسمة للمسلمين، وغيرهم من المشركين على حدٍ سواء؛ فهو باعتبار (إعلان عام، بإيقاع عالٍ؛ يتضمن المبدأ العام للعلاقة بين المسلمين والمشركين في ذلك الحين في جزيرة العرب قاطبة، والإعلان ببراءة الله وبراءة رسوله من المشركين، يحدد موقف كل مسلم؛ ويوقع إيقاعاً عميقاً عنيفاً على قلب كل مسلم، بحيث لا يبقى بعد ذلك مراجعة ولا تردد(2)، على أن في ذلك تفخيماً لشأن البراءة وتهويلاً لأمرها وتسجيلاً على الكفرة بغاية الذل والهوان ونهاية الخزي والخذلان...(3)، فالفراق بهذا الشكل، وبهذا الزمان والمكان، وبهذا الأُسلوب شديد، وأشده ألا يعقبه وصال، وفراق المشركين كذلك، وما أشد هذه الفرقة –لا سيما إذا كانت بغتة على غير ترقب–(4)، وقد وردت البراءة من المشركين مرتين في السورة الكريمة، قال تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[التوبة: 1]، وقال أيضاً: ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾[التوبة: 3]، وذلك لعظيم قوتها وشدتها؛ وقد أورد المفسرون عللاً لهذا التكرار، منها أن المقصود من الكلام الأول الإخبار بثبوت البراءة ، ومن الثاني إعلام جميع الناس بما حصل وثبت، أو أن المراد من الكلام الأول البراءة من العهد، ومن الكلام الثاني البراءة التي هي نقيض الموالاة الجارية مجرى الزجر والوعيد...(5)، ولما بين تعالى في أول السورة وما بعدها أن البراءة من المشركين والمنافقين واجبة، بيّن سبحانه في نهايتها ما يزيد ذلك تأكيداً، حيث نهى عن الاستغفار لهم بعد تبين شركهم

---

(1) الزحيلي، وهبة، التفسير المنير، ج 9، ص105 .

(2) انظر : قطب، سيد، في ظلال القرآن، المجلد 3، ص 1598 .

(3) الألوسي، روح المعاني، مجلد 4، ج 5، ص 238 .

(4) انظر: القشيري، لطائف التفسير، ج 2، ص 6 .

(5) للمزيد انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ج15، ص 230 .

وكفرهم، لأن ظهوره موجب لقطع الموالاة، حتى مع الأقرباء، لأن قرابتهم، وإن أفادتهم المناسبة بهم والرحمة بهم، فلا تفيدهم قبول نور الاستغفار فجاءت سورة التوبة في نهايتها لتقطع الدعاء والاستغفار للمشركين من رسول الله عليه الصلاة والسلام والمؤمنين بعد الموت[1]؛ (فإذا كان الوالدان كافرين فللولد أن يدعو لهما حال الحياة بالهداية والإرشاد، وأن يطلب لهما الرحمة بعد حصول الإيمان، أما بعد الموت فقد نهى القرآن عن الاستغفار للمشركين الأموات، ولو كانوا أولي قربى[2]، قال تعالى: ﴿مَا كانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كانُوا أُولِي قُرْبى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحابُ الْجَحِيمِ * وَما كانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْراهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾[التوبة: 113-114] أي: ما كان ينبغي للنبي محمدٍ صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا أن يدعوا بالمغفرة للمشركين، ولو كان المشركون الذين يستغفرون لهم ذوي قرابة لهم من بعد ما ماتوا على شركهم بالله وعبادة الأوثان، وتبين لهم أنهم من أهل النار، لأن الله قد قضى أن لا يغفر لمشرك، فلا ينبغي لهم أن يسألوا ربهم أن يفعل ما قد علموا أنه لا يفعله. فإن قالوا: فإن إبراهيم قد استغفر لأبيه وهو مشرك؟ فلم يكن استغفارُ إبراهيم لأبيه إلا لموعدة وعدها إياه، فلما تبين له وعلم أنه لله عدوٌّ، خلاه وتركه، وترك الاستغفار له، وآثر الله وأمرَه عليه، فتبرأ منه حين تبين له أمره[3]، وقطع استغفاره ﴿إِنَّ إِبْراهِيمَ لَأَوَّاهٌ﴾ أي كثير التأوه شفقا لفرط ترحمه ورقته حَلِيمٌ أي: صبور على البلاء، صفوح عن الأذى، ومن حلمه أنه كان يدعو لأبيه وأبوه يتهدده ويتوعده بالرجم[4]، ومن هنا تبين لنا وفاء سيدنا ابراهيم بوعده، ووجوب الوفاء بالوعود والعهود[5]، ولكنه هنا (لم يبين هذه الموعدة التي وعدها إياه، ولكنه بينها في سورة «مريم» بقوله: ﴿قالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كانَ

(1) انظر: القاسمي، محاسن التأويل ،ج5، ص 515.

(2) الزحيلي، التفسير المنير، ج15، ص56.

(3) الطبري، جامع البيان، ج 14، ص 509.

(4) حوا، سعيد، الأساس في التفسير، ج4، ص 2360.

(5) انظر: الجزائري، أيسر التفاسير، ج2، ص432.

بِي حَفِيًّا﴾[مريم: 47])[1]، وقد قيل للنبي صلى الله عليه وسلم: إن فلانا يستغفر لأبويه المشركين، قال: «ونحن نستغفر لآبائنا المشركين»، فأنزل الله ﴿مَا كانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا﴾[التوبة: 113] إلى قوله ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: 114] «فأمسكوا عن الاستغفار لهم»[2]، وقيل إن هذه الآية نزلت في استغفار النبي–صلى الله عليه وسلم– لعمه أبي طالب، فقد جاء في الحديث عن سعيد بن المسيب، عن أبيه، قال: (لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبي صلى الله عليه وسلم، وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " أي عم، قل: لا إله إلا الله أحاج لك بها عند الله"، فقال أبو جهل، وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لأستغفرن لك ما لم أنه عنك»، فنزلت الآية[3] ولكن الله تعالى لا يؤاخذ به عباده الذين هداهم للإسلام، ولا يسميهم ضلالاً، ولا يخذلهم إلاّ إذا أقدموا عليه بعد بيان خطره عليهم وعلمهم أنه واجب الاتقاء والاجتناب، وأما قبل العلم والبيان فلا سبيل عليهم، وهذا بيان لعذر من خاف المؤاخذة بالاستغفار للمشركين قبل ورود النهي عنه، يقول تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[التوبة: 115].[4]

نقض العهود والتعامل مع أصناف المعاهدين:

إن الاسلام يقدّس العهود ويحترمها، ويوجب الوفاء بها؛ ولكن مصلحة الاسلام تكون أحيانا بالنقض لبعض هذه العهود مع أهل الشرك، وقد جُعلت العقود التي عقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم (لازمة للمسلمين، لأنها كانت لمصلحتهم؛ في وقت عدم استجماع قوتهم، وأزمان كانت بقية قوة للمشركين، وإلا فإن أهل الشرك ما كانوا

([1]) الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ج2، ص 149 .

([2]) مجاهد، تفسير مجاهد، ج1، ص375.

([3]) البخاري، صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، بَابُ قَوْلِهِ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾[التوبة: 113]، حديث رقم 4675، ج 6، ص96، وانظر: الواحدي، أسباب النزول، حديث رقم 262، ص 266–268 .

([4]) الزمخشري، الكشاف، ج2 ، ص 217 .

يستحقون من الله ورسوله توسعةً ولا عهداً، لأن مصلحة الدين تكون أقوم إذا شدد المسلمون على أعدائه... والآن لما كانت مصلحة الدين متمخضة في نبذ العهود؛ أذن الله لرسوله بالبراءة من تلك العهود...)[1]، وقد كان نقض العهد، والغدر؛ من أبشع وأشنع ما يكون عند العرب، فكانت بالنسبة لهم من أشد الأزمات ، والكرب؛ وقد جاءت هذه القرارات الإلهيه من جنس أعمالهم؛ فهم أهل النقض والنبذ والخيانة، وقيل أن: هذه الآية في أهل مكة، وكان الرسول –صلى الله عليه وسلم– صالح قريشاً عام الحديبية على أنْ يضعوا الحرب عشر سنين يأمن فيها الناس، فدخلت خزاعة[2] في عهد الرسول، وبنو بكر بن عبد مناة في عهد قريش، وكان لبني الديل[3] من بني بكر دمٌ عند خزاعة فاغتنموا الفرصة وغفلة خزاعة، فخرج نوفل بن معاوية الديلي[4] فيمن

([1]) ابن عاشور، الإمام محمد الطاهر، التحرير والتنوير، الدار التونسية، تونس، 1984، ج10، ص 105 .

([2]) خزاعة: قبيلة من الأزد، من القحطانية ، كانوا بأنحاء مكة، في مرّ الظهران وما يليه، ومن جبالهم: الأبواء، ومن مياههم: الوتير، والمريسيع والغرابات. ومن بطونهم بنو المصطلق، ومن أصنامهم: «مناة» ، كان لهذيل وخزاعة بين مكة والمدينة، انظر: شُرَّاب، محمد بن محمد حسن، المعالم الأثيرة في السنة والسيرة، الدار القلم، الدار الشامية، دمشق، بيروت، ط1، 1411 هـ، ص 108 .

([3]) الديلى: بكسر الدال المهملة وسكون الياء آخر الحروف، هذه النسبة إلى بنى الديل بن هداد بن زيد مناة بن الحجر، من الأزد، انظر: السمعاني، عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي المروزي، أبو سعد (ت 562هـ)، الأنساب، المحقق: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، ط1، 1962 م، ج5، ص 449 .

([4]) نوفل بن معاوية الديلي، (ت 70 هـ) له صحبة ورواية وشهد الفتح، وغزا وحج مع الصديق سنة تسع، روى عنه: عبد الرحمن بن مطيع، وعراك بن مالك، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، ونزل المدينة في بني الديل، شهد بدرا مع المشركين وأحدا والخندق، وكان له ذكر ونكاية، قال: وتوفي في خلافة معاوية، وقال غيره: توفي في خلافة يزيد. وقيل: عاش ستين سنة في الجاهلية، وستين في الإسلام، انظر: الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز (ت 748هـ)، تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير

أطاعه من بني بكر وبيتوا خزاعة فاقتتلوا، وأعانت قريش بني بكر بالسلاح، وقوم أعانوهم بأنفسهم، فهزمت خزاعة إلى الحرم، فكان ذلك نقضاً لصلح الحديبية، فخرج من خزاعة بديل بن ورقاء[1] وعمرو بن سالم[2] في ناس من قومهم، فقدموا على الرسول –صلى الله عليه وسلم– مستغيثين، فتجهز رسول الله –صلى الله عليه وسلم– إلى مكة وفتحها سنة ثمان، ثم خرج إلى غزوة تبوك وتخلف من تخلف من المنافقين وأرجفوا الأراجيف، فجعل المشركون ينقضون عهودهم، فأمره الله تعالى بإلقاء عهدهم إليهم... وذلك قوله عز وجل: ﴿وإِمّا تَخافنّ مِنْ قومٍ خيانةً﴾ [الأنفال: 58][3]، فأوقعهم

والأعلام، المحقق: الدكتور بشار عوّاد معروف ، دار الغرب الإسلامي، ط 1، 2003 م، ج 2، ص 728.

([1]) بديل بن ورقاء بن عبد العزى بن ربيعة بن جزي بن عامر بن مازن بن عدي بن عمرو بن ربيعة كتب إليه النبي صلى الله عليه وسلم وإلى بسر بن سفيان يدعوهما إلى الإسلام، وابنه نافع بن بديل كان أقدم إسلاما من أبيه، وشهد نافع بئر معونة مع المسلمين، وقتل يومئذ شهيداً. وابنه عبد الله بن بديل قتل يوم صفين مع علي بن أبي طالب عليه السلام، وشهد بديل بن ورقاء مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فتح مكة وحنين، وقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم سبي هوازن من حنين إلى الجعرانة، واستعمل عليهم بديل بن ورقاء الخزاعي، وبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمرو بن سالم، وبسر بن سفيان إلى بني كعب يستنفرهم إلى عدوهم حين أراد أن يخرج إلى تبوك، وشهدوا جميعا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم تبوك، وشهد بديل بن ورقاء حجة الوداع مع رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، انظر ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء، البصري، البغدادي (ت 230هـ)، الطبقات الكبرى، المحقق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط1، 1968م، ج 4، ص 294 .

([2]) عمرو بن سالم بن حضيرة بن سالم. من بني مليح بن عمرو بن ربيعة. وكان شاعرا، أقبل عمرو وبديل بن ورقاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية، فأخبراه عن قريش، كان عمرو يحمل أحد ألوية بني كعب الثلاثة التي عقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم يوم فتح مكة، انظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج 4، ص 293 .

([3]) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، تهذيب عبد السلام هارون، ص 244–246، وانظر: أبي حيان الأندلسي، محمد بن يوسف، (ت 745 هـ)، البحر المحيط، تحقيق عادل أحمد

الله بالخزي والذل والهوان من عنده بنقض عهودهم، وقطع العصمة والبراءة منهم، وفضحهم؛ لأنهم يضمرون الغدر والخيانة للمسلمين، فهم إن يظفروا بهم بعد العهد والميثاق؛ لا ينظروا ويرعوا في أذاهم "بكل جليل وحقير" لا قرابة محققة، ولا عهداً، يعني أن الأمر المبيح للنبذ خوف الخيانة، وعلام الغيوب يخبركم أنهم في غاية الخيانة لكم...[1]، أما قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾[التوبة: 7]، قال قتادة: «هو يوم الحديبية» ، قال: «فلم يستقيموا فنقضوا عهدهم أعانوا بني بكر حلفاء قريش على خزاعة حلفاء النبي صلى الله عليه وسلم»[2] ﴿إِلَّا الَّذِينَ عاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ﴾ بالحديبية فلهم العهد ﴿فَمَا اسْتَقامُوا لَكُمْ﴾ بالوفاء إلى مدتهم يعني تمام هذه الأربعة الأشهر من يوم النحر ﴿فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ بالوفاء ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾[3]، وحتى مع نقض القرآن للعهود بينه وبين المشركين، فقد تعامل مع أصناف المعاهدين، ومعها بدقة متناهية، وبحكمة لا مثيل لها في أقوى الدول، وأبهى الحضارات:

فقد جاءت القرارات الإلهية بنقض معاهدات المشركين المطلقة غير المؤقتة بزمن؛ لأنهم نكثوا العهد وأخلوا بشروط التعاهد، ومن كان له عهد دون أربعة أشهر، تُكمل له مدة أربعة أشهر، ومن كان له عهد مؤقت، فيبقى على عهده إلى انتهاء مدته، مهما كان، ما لم ينقض العهد، أو يخل بشرط من شروطه.

ثم جاء قرار **السياحة في الأرض:** وهو يعطي ضماناً إيمانياً؛ دالاً على سماحة الإسلام تمنع أخذهم وقتلهم على غرة ؛ فعلى الذين قطع الإسلام معهم العهد أن يسيروا وهم مطمئنون وفي أمن وأمان، ولا يتعرض لهم أحد، خلال المدة المضروبة، ثم

عبد الموجود وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1993، ج 5، ص8، محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، معالم التنزيل، ج 4، ص8 .

(1) انظر: البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ج 8، ص 384 .

(2) عبد الرزاق، أبو بكر بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني (ت 211هـ)، تفسير عبد الرزاق، دراسة وتحقيق: محمود محمد عبده الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، سنة 1419هـ ، ج2، ص 135، حديث رقم 1055 .

(3) مقاتل، تفسير مقاتل بن سليمان، ج2، ص158.

ليتفكروا ويحتاطوا ويستعدوا بما شاءوا ويعلموا أن ليس لهم بعد إلا الإسلام أو السيف ولعل ذلك يحملهم على الاسلام، ولأن المسلمين لو قاتلوهم عقيب إظهار النقض فربما نسبوا إلى الخيانة؛ فامهلوا سداً لباب الظن وإظهاراً لقوة شوكتهم وعدم اكتراثهم بهم وباستعدادهم...[1] .

إن هذا الدين إعلام لمن لا يعلمون، وإجارة لمن يستجيرون، حتى من أعدائه الذين شهروا عليه السيف وحاربوه وعاندوه، فجاء قرار: **إجارة المشركين** في السورة؛ وهو في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ﴾[التوبة: 6]، أي أنه إذا جاءك أحد من المشركين، الذين أمرناكم بقتالهم وطلب أن تعامله في الإكرام معاملة الجار، وطلب الحماية، وطلب الدليل والحجة، وطلب استماع القرآن بعد انقضاء مدة السياحة؛ فآمنه، وأمهله، ودافع عنه من يقصده بسوء حتى يسمع كلام الله، فيعلم بذلك ما يدعو إليه من المحاسن، ويتحقق أنه ليس كلام الخلق، (فيكون له بعدها إما توبة، أو إصرار)، فإما التوبة، أو إن أراد الانصراف ولم يسلم أبلغه الموضع الذي يأمن فيه، ثم قاتله بعد بلوغه المأمن إن شئت من غير غدر ولا خيانة، وأنه في هذه الحالة يكون قد آمن حربهم وتجمعهم وتألبهم عليه، ودال أيضاً على أن المقصود من شرع القتل قبول الدين والإقرار بالتوحيد، ويدل أيضاً على أن النظر في دين الله أعلى المقامات وأعلى الدرجات، فإن الكافر الذي صار دمه مهدراً لما أظهر من نفسه كونه طالباً للنظر والاستدلال زال ذلك الإهدار؛ لأنهم قوم لا عهد لهم بنبوة ولا رسالة ولا كتاب، فإذ اعلموا أوشك أن ينفعهم العلم، فالإسلام منهج هداية لا منهج إبادة ...[2]، وفي كلام الله وجهان، أحدهما: أنه عني سورة براءة خاصة ليعلم ما فيها من حكم المقيم على العهد، وحكم الناقض له والسيرة في المشركين والفرق بينهم وبين المنافقين،

---

(1) الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، مجلد 4، ج5، ص239. وانظر: الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج 9، ص 4861 .

(2) انظر: البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ج8، ص382، وانظر: الرازي، تفسير الفخر الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج15، ص 235. وانظر: قطب، سيد، في ظلال القرآن، المجلد 3، ص 1603.

الثاني: يعني القرآن كله، ليهتدي به من ضلاله ويرجع به عن كفره[1]، وفي ذلك يجب (احترام الجوار، والإقرار به، وتأمين السفراء والممثلين لدولة كافرة)[2]

2.2.2 أزمة الحريات الشخصية، والعقوبات وفيه:

القتل والاعتقال والحبس والترصد:

كان من أشد الأزمات والكرب التي واجهت المشركين؛ –لمناصبتهم العداء للصف المؤمن– الحد من حرياتهم الشخصية، والتي تخص أمنهم وحياتهم، وحتى حرية الحركة والسير في الأرض، (فمن العذاب المهين ما أمر الله به حزبه المؤمنين وأنصار دينه الموحدين من قتلهم وقتالهم حيثما ثقفوهم، ويأخذوهم ويحصروهم، ويقعدوا لهم كل مرصد، ويحذروهم في جميع الأحوال، ولا يغفلوا عنهم، خشية أن ينال الكفار بعض مطلوبهم فيهم، فلله أعظم حمد وثناء على ما مَنَّ به على المؤمنين، وأيَّدَهم بمعونته وتعاليمه التي لو سلكوها على وجه الكمال لم تهزم لهم راية، ولم يظهر عليهم عدو في وقت من الأوقات)[3]، وهذا التضييق على أهل الشرك، وإيقاعهم بالأزمات التي يستحقونها بعد انقضاء الأشهر الحرم، وذلك بأنواع من العقوبات بالقتل في أي مكان وزمان، وأخذهم أسرى وحصرهم، ومنعهم من دخول أرض الإسلام، والتضييق عليهم ثم المرابطة والمراقبة والرصد والقعود لهم كل ثنية وموضع يمرون عليه، إلى البيت أو إلى الصحراء أو إلى التجارة، وتتبع حركاتهم، وكلامهم، وأفعالهم،... كل هذا؛ حتى يأمنوا مكرهم؛ فلا يتصل بعضهم ببعض؛ وينشئوا تكتلاً يعادي الإسلام ... ثم

---

(1) الماوردي، أبو الحسن، علي بن محمد بن حبيب، (ت 450 هـ)، النكت والعيون، تحقيق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ج2، ص 341 .

(2) الجزائري، جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة الخامسة، 1424هـ/2003م، ج 2، ص 342.

(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ج 1، ص 198 .

بين الله تعالى شروط إخلاء سبيلهم؛ وهي التوبة والعودة إلى الإيمان، وإقامة الصلاة، وايتاء الزكاة ... وفيها خروجهم من هذه الأزمة.[1]

وهذه العقوبات تختلف باختلاف مواقع المشركين من العداء للإسلام، فهناك أئمة الكفر الذين يحاربون الدين، ويحرضون على قتال المسلمين، فهؤلاء جزاؤهم القتل، وهناك من لا يؤذون المسلمين، وإنما يجاهرون بالعداء للدعوة، هؤلاء شأنهم أقل؛ فنأخذهم أسرى، وهناك من الكفار من لا يفعل شيئاً إلا أنه غير مؤمن، فهؤلاء نراقب حركاتهم ليتقي المسلمون شرهم ليكونوا على استعداد بصفة دائمة لمواجهتهم إذا ما انقلبوا ليؤذوا المسلمين ويهاجموهم...[2]، والمقصود العام من هذا القرار هو: (إيصال الأذى إليهم بكل طريق، إما بطريق القتال وإما بطريق الاغتيال). [3]

منع المشركين من زيارة البيت وعمارة المساجد:

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ﴾[سورة التوبة: 17]، أي: (ما ينبغي للمشركين أن يعمروا مساجد الله وهم شاهدون على أنفسهم بالكفر، لأن المساجد إنما تعمر لعبادة الله فيها، لا للكفر به، فمن كان بالله كافرًا، فليس من شأنه أن يعمُرَ مساجد الله[4]، وقال أيضاً: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾[سورة التوبة: 27]، ومعناه (ذو ونجس، لأنّ معهم الشرك الذي هو بمنزلة النجس، ولأنهم لا يتطهرون ولا يغتسلون ولا يجتنبون النجاسات، فهي ملابسة لهم. أو جعلوا كأنهم النجاسة بعينها)[5].

إن من أشد الأزمات والعذاب لأهل الشرك؛ أن حرمهم الله تعالى ما اعتادوا عليه، وظنوه حقاً لهم، ولكن الله تعالى يعز من يشاء ويذل من يشاء، وفي إذلالهم هذا،

---

(1) انظر: الرازي، تفسير الفخر الرازي، ج15، ص233، وانظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ج 1، ص 329، وانظر: الشعراوي، محمد متولي، تفسير الشعراوي، ج 9 ، ص4877- 4879 .

(2) الشعراوي ، محمد متولي، تفسير الشعراوي، ج 9، ص 4877 – 4878 .

(3) أبي حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج5، ص 14 .

(4) الطبري، جامع البيان، ج14، ص165.

(5) الزمخشري، الكشاف، ج 15، ص 183 .

وقوعهم بأشد المصائب والكرب، بأن ليس لهم الحج لبيت الله؛ (لأن المؤمنين والمشركين كانوا يحجون إلى البيت جميعًا"؛ فنودي فيهم بالمنع عن المسجد الحرام، وهو أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– بعث أبا بكر أميراً على الموسم سنة تسع، وبعث علي بن أبي طالب أن يؤذن بالبراءة؛ وأن لا يحجن بعد هذا العام مشرك ولا يطوفن بالبيت عريان...[1]

وعمارة المساجد: تطلق على عبادة الله تعالى فيه مطلقاً، وعلى النسك المخصوص المسمى بالعمرة، وهي خاصة بالمسجد الحرام، وعلى لزومه والإقامة فيه لخدمته الحسية، وعلى بنيانه وترميمه...)[2]، وأياً كانت القراءة لها؛ على التوحيد، أي المسجد الحرام، أو على التعميم؛ أي جميع المساجد "والخاص يدخل تحت العام"، هو قرارٌ إلهي؛ يوجب على المسلمين تولي أحكام المساجد، ومنع المشركين من دخولها؛ وذلك لأن أمور البيت كالسدانة والسقاية والرفادة كانت إلى المشركين، فبين أنهم ليسوا أهلاً لذلك، بل أهله المؤمنون، وقيل: إن العباس لما أسر وعير بالكفر وقطيعة الرحم قال: تذكرون مساوئنا ولا تذكرون محاسننا؛ فقال علي: ألكم محاسن؟ قال: نعم إنا لنعمر المسجد الحرام ونحجب الكعبة ونسقى الحاج ونفك العاني، فنزلت هذه الآية رداً عليه... [3].

([1]) انظر نص الحديث: في البخاري، كتاب التفسير، باب قوله تعالى ﴿فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾[سورة التوبة: 2]، وبَابُ قَوْلِهِ: ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ المُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ، فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ، وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[التوبة: 3] "وبَابُ ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ المُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: 4] حديث رقم 4655– 4657، ج6، ص64–65. وانظر: الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج 9، ص 478، وانظر: تفسير عبد الرزاق، ج2، ص 131، حديث رقم 1038–1039

([2]) رضا، تفسير القرآن الحكيم (المنار)، ج 11، ص 206–207 .

([3]) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج7، ص89–90، وانظر: الواحدي، الإمام أبي الحسن علي بن أحمد، ت 468 هجري، تحقيق كمال بسيوني زغلول، أسباب نزول القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1991م، باب رقم 238، ص 246 .

وقد تعامل القرآن الكريم مع هذا القرار بكل حكمة فبين أن ذلك القرار كان:

أولاً: بسبب أنهم ﴿شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ﴾[سورة التوبة: 17] بشهادتهم على أنفسهم بالقول، أو بالفعل؛ هم من أهل الكفر؛ لا يستحقون الاقتراب من مساجد الله تعالى، ولا الاشتراك في الأعمال الصالحة فيها، فأعمالهم مهما بلغ صلاحها، وافتخارهم بها فقد أحبطها الله تعالى، وأفسدها فلم يبق لها قيمة مع الشرك والكفر.[1]

ثانياً: وأن عمارة المساجد من حق المؤمنين وحدهم؛ المتصفين بصفات أربع لا خامس لها ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾[التوبة: 18]، وهذه الصفات الأربع: الإيمان بالله، إقامة الصلوات، وإيتاء الزكاة، والخشية والخوف والتقوى في باب الدين، هذه جامعة لأصول الدين الثلاثة.[2]

3.2.2 أزمة النزاعات، والتحديات في بُنية الدولة الداخلية:

وذلك بسبب وجود قوى رافضة للكيان الإسلامي الجديد؛ سواءً في مكة في بداية الأمر أو في المدينة بعد الهجرة، وقد كانت الهجرة محاولة لتجنب قوى الضغط للحفاظ على الكيان الإسلامي، ومن ثم مواجهة هذه القوى، وكانت الهجرة موقف عظيم لتأمين حرية الحركة ووسيلة لتحقيق التحرر من قيود داخل مكة، ثم الانطلاق لتأسيس الدولة الإسلامية والتي من خلالها جُوبهت الأزمات[3]، وهي أولى هذه الأزمات في هذا المطلب:

مكر أهل الشرك وإخراجهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من بلده:

يقول تعالى: ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[التوبة: 13]، ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة: أن كفار مكة هموا بإخراجه

([1]) انظر: الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج9، ص 4956.

([2]) انظر: الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج16، ص10–11، وانظر: رضا، المنار، ج 11، ص 212.

([3]) انظر: شقرة، محمد عاصم محمد إبراهيم، نحو أنموذج اسلامي لإدارة الأزمات، ص62– 66 .

صلى الله عليه وسلم من مكة، وصرح في مواضع أخر بأنهم أخرجوه بالفعل، كقوله: ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ الْآيَةَ [الممتحنة: 1]، وقوله: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾[محمد: 13]، وقوله: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا... الْآيَةَ﴾[التوبة: 40]، وذكر في مواضع أخر: محاولتهم لإخراجه قبل أن يخرجوه، كقوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾[الأنفال: 30]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾[الإسراء: 76][1]؛ فقوله تعالى:﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾[الأنفال: 30]، وهي مكر المشركين في مكة حيث تشاوروا فيه ليلة وهم بمكة بدار الندوة، فقال بعضهم: إذا أصبح فأوثقوه بالوثاق، وقال بعضهم: بل اقتلوه، وقال بعضهم: بل اخرجوه؛ فلما أصبحوا رأوا عليًّا رحمة الله عليه ، فردَّ الله مكرهم.[2]

وقوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ التى أَخْرَجَتْكَ﴾[محمد: 13]، أي (وكم يا محمد من قرية هي أشد قوة من قريتك، يقول أهلها أشدّ بأساً، وأكثر جمعاً، وأعدّ عديداً من أهل قريتك، وهي مكة، وأخرج الخبر عن القرية، والمراد به أهلها)[3]، وهؤلاء الضعفاء من أهل مكة، الذين أخرجوك عن وطنك وكذبوك، وعادوك، وأنت أفضل المرسلين، وخير الأولين والآخرين، ولم تفد فيهم المواعظ هم أحق من غيرهم بالإهلاك والعقوبة[4]، وفي هذه السورة يقول تعالى في ذلك: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[التوبة: 40]، وذلك أن قومه أجبروه واضطروه على الخروج والهجرة من البلد التي أحبها فقد روى الطبراني في معجمه عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (قد علمت أن أحب البلاد إلى الله

([1]) محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي، (ت 1393هـ)، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت، لبنان، عام النشر: 1415 هـ- 1995م، ج 2، ص 115 .

([2]) الطبري، جامع البيا، ج 13، ص 495، وانظر: السيوطي، الدر المنثور، ج4، ص53 .

([3]) الطبري، جامع البيان، ج22، ص 164.

([4]) انظر : السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ج 1، ص 786.

عز وجل مكة ولولا أن قومي أخرجوني ما خرجت)[1] ثم أن قومه آذوه –عليه الصلاة والسلام–، وضايقوه في الدعوة إلى الدين، وضايقوا المسلمين بالأذى والمقاطعة، فتوفّرت أسباب خروجه، ولكنّهم كانوا مع ذلك يتردّدون في تمكينه من الخروج خشية أن يظهر أمر الإسلام بين ظهراني قوم آخرين، فلذلك كانوا في آخر الأمر مصمّمين على منعه من الخروج، وأقاموا عليه من يرقبه وحاولوا الإرسال وراءه ليردّوه إليهم، وجعلوا لمن يظفر به جزاءً جَزلاً، كما جاء في حديث سُراقة بن جُعْشُم[2])[3]، وقد (أعدّ الرسول –صلّى الله عليه وسلّم– عدّته للهجرة بعد أن أمره الله بها، ووضع خطتها، وكانت في غاية الإحكام والدقة ونهاية الحيطة، بتوجيه الله له، ووحيه الأمين، في أمور شرحها وبيانها وذكر معجزاتها يطول، منها: أنه بدل أن يتجه الركب المبارك إلى الشّمال اتجه إلى الجنوب– محفوفا بعناية الله– ملاحقا من قوى الكفر، تبتغي قتله، معلنة عن جائزة ضخمة؛ لمن يأتي به حيا أو ميتا، وأعدت أربعين شابا لقتله، في خطّة عنيفة مخيفة ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ﴾[الأنفال: 30]، فخرج صلّى الله عليه وسلّم من بينهم– بقدرة الله– في الليل، واتّجه إلى دار أبي بكر الصديق رضي الله عنه، حيث خرجا ليلا من هناك، من

([1]) الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم، (ت 360 هـ)، المعجم الكبير، مكتبة العلوم والحكم، الموصل، ط2، 1404–1983، تحقيق: حمدي بن عبدالمجيد السلفي، حديث رقم 13347، ج12، ص 361، وانظر: الأزرقي، أبي الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد، (ت 250 هـ)، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، دراسة وتحقيق: علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، ط1، ج2، ص148.

([2]) سراقة بن مالك بن جُعشم المدلجي الكناني، أبو سفيان، صحابي له شعر كان ينزل قديداً، له في كتب الحديث 19 حديثاً، وكان في الجاهلية قائفاً أخرجه أبو سفيان ليقتاف أثر رسول الله –صلى الله عليه وسلم– حين خرج إلى الغار مع أبي بكر، وأسلم بعد غزو الطائف سنة 8 هجري، توفي سنة 24 هجري، انظر الزركلي الأعلام، ج 3، ص80.

([3]) انظر: حديث سراقة، البخاري، صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب هجرة النبي –صلى الله عليه وسلم وأصحابه للمدينة، حديث رقم 3906، ج5، ص 60، وانظر: ابن هشام، السيرة النبوية، تهذيب عبد السلام هارون، دار البحوث العلمية، الكويت، ط 10، 1984، ص 116–118. وانظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 10، ص 201.

خوخة[1] في ظهر دار أبي بكر، مبتدئين هذه الرحلة المباركة الكريمة من هناك[2]، (وأراد الله تعالى هدفاً غير الذي أراده الكفار، فهم أرادوا قتله، وحين خرج ظنّوا أن دعوته تُختنق بالعزل عن الناس، فأخرجه الله لتنساح الدعوة، وأوضح لهم سبحانه أنه سيخرجه مدعوماً بالأنصار، لذلك قالوا إن الهجرة توأم البعثة)[3]، ثم أن تنشغل قريش كلّها وأهل مكة، وتبذل لذلك، وتحضّر، وتخطط، فذلك دليل–وهو حال متكرر– أن أهل الباطل– أفرادا وهيئات ودولاً ومعسكرات وجهات ومؤسسات وأحزابا– إذا حاربوا الحق، وهم يحاربونه دوما– يلجؤون إلى كل الوسائل، دون النظر إلى صلتها بمثل أو قانون أو عرف، حتى تلك التي وضعوها، أو ادّعوا التعامل معها، وهكذا دينهم وديدنهم، في كل الأمور، لا ترتبط بشيء غير مصلحتهم، وكلما يدّعون، أو يضعون من قوانين إنما هي لحماية هذه المصلحة، ويوم تعوّقها يدوسونها، ومع كل ذلك إذا فشلوا في شيء لمصلحتهم اتبعوا سبيل القتل والإبادة، لا يصدّهم عن ذلك وأكثر منه شيء، وهكذا فعلت قريش، ودبّرت له، رغم أنهم يتعاملون مع رسول الله صلّى الله عليه وسلم المعروف لديهم، وهو يدعوهم إلى الله، ودعوته الحقة الخيرة، يفعلون ذلك ظنا أنهم يقضون على هذه الدعوة المباركة، وهيهات![4]، (كما أن تفكير قائد الدعوة، أو رئيس الدولة، أو زعيم حركة الإصلاح في النجاة من تآمر المتربصين والمغتالين، وعمله لنجاح خطة النجاة ليستأنف حركته أشد قوة ومراسا في ميدان آخر، لا يعتبر

([1]) (خوخة) هي الباب الصغير، وهو موضع المرور، انظر تعليق البغا، مصطفى ديب، البخاري، الجامع المسند، كتاب المناقب، باب هجرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى المدينة، حديث رقم 3904، ج 5، ص57، وكتاب الصلاة، باب الخوخة والممر في المسجد، حديث رقم 467، ج1، ص 100.

([2]) الحجى، عبد الرحمن على، السيرة النبوية منهجية دراستها واستعراض أحداثها، دار ابن كثير، دمشق، ط 1، 1420هـ، ص 306. وانظر: ابن هشام، السيرة النبوية، تهذيب عبد السلام هارون، ص114–115.

([3]) الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج 8، ص 5125 .

([4]) الحجى، عبد الرحمن على، السيرة النبوية منهجية دراستها واستعراض أحداثها، ص305– 306 .

جبنا ولا فرارا من الموت، ولا ضنا بالتضحية بالنفس والروح)[1]، وهكذا لم يكن لرسول الله – صلى الله عليه وسلم– وصحابته الكرام بالبلد العتيق شأن ولا دولة لها اعتبار سياسي بين الدول؛ فمن هنا جاءت القرارات الإلهية بالهجرة الى المدينة المنورة؛ لتحل أزمتهم، (وينشأ لهم بذلك الكيان السياسي الذي يحمي الدعاة ويدفع عنهم الأذى من أعدائهم ، وتتكون دولة الدعوة التي أخذت على عاتقها نشر الإسلام، وتكفلت بالدفاع عنهم وحمايتهم من أي اعتداء قد يقع؛ ولو أدى ذلك إلى قيام حرب أو حروب)[2].

ودائماً نصر الله قريب، ومعيته جنباً إلى جنب مع رسوله الكريم .

قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[التوبة: 40]، فقوله: ﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ الله﴾ أي: إن تركتم نصره في تبوك فالله متكفل به، فقد نصره في مواطن القلة، وأظهره على عدوه بالغلبة والقهر، وسينصره من نصره حين لم يكن معه إلا رجل واحد وقت إخراج الذين كفروا له حال كونه ﴿ثَانِيَ اثنين﴾ أي: أحد اثنين، وهما: رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وأبو بكر الصديق –رضي الله عنه–، ويدير رسول الله أزمته ويطمئن صاحبه بقوله: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ الله مَعَنَا﴾ أي: دع الحزن، فإن الله بنصره وحفظه وعونه وتأييده معنا، ومن كان الله معه فلن يغلب، ومن لا يغلب فيحق له أن لا يحزن...[3]، فقد أخرج البخاري عن أنس بن مالك –رضي الله عنه–: قال: حدثني أبو بكر قال: «كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في الغار فرأيت آثار المشركين فقلت: يا رسول الله لو أن أحدهم رفع قدمه لأبصرنا تحت قدمه، فقال عليه الصلاة والسلام: يا أبا بكر ما

---

(1) السباعي، مصطفى بن حسني السباعي (ت 1384هـ)، السيرة النبوية دروس وعبر، الناشر: المكتب الإسلام، ط3، 1405 هـ–1985 م، ص68 .

(2) أبو فارس، محمد عبد القادر، الهجرة النبوية، دار الفرقان، عمان، ط1، 1982، ص13.

(3) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج7، ص143–149، والشوكاني، فتح القدير، ج1، ص 573.

ظنك باثنين الله تعالى ثالثهما»[1]، ثم أنزل الله طمأنينته وسكونه على رسوله، وقيل: على أبي بكر، وقوّاه بجنودٍ من عنده من الملائكة، وجعل كلمة الذين كفروا، (السُّفْلى)، لأنها قُهِرَت وأذِلَّت، وأبطلها الله تعالى، ومحق أهلها، وكل مقهور ومغلوب فهو أسفل من الغالب، والغالب هو الأعلى، وكلمة الله هي العليا وهي دين الله وتوحيده وقولُ لا إله إلا الله، وهي كلمتُه (العليا)، على الشرك وأهله[2]، ولا يخفى ما بين قول النبي صلّى الله عليه وسلّم: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنا﴾ وقول موسى عليه السلام: ﴿إِنَّ مَعِي رَبِّي﴾ [الشعراء: 62] من الفرق الظاهر لأرباب الأذواق حيث قدم نبينا صلّى الله عليه وسلّم اسمه تعالى عليه وعكس موسى عليه السلام، وأتى صلّى الله عليه وسلّم بالاسم الجامع وأتى الكليم باسم الرب، وأتى عليه الصلاة والسلام- بنا- في مَعَنا وأتى موسى عليه السلام بياء المتكلم.[3] و﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنا﴾ (ينبغي أن نعيشها في علاقتنا مع أقاربنا، مع أصدقائنا، مع جيراننا، مع أعدائنا، مع الناس جميعاً، في أخذنا وعطائنا، في بيعنا وشرائنا، في حربنا وسلمنا، في خصوماتنا وقضائنا، في كلامنا وصمتنا... فينبغي أن تحكم هذه القاعدة جميع أمور حياتنا العامة والخاصة، فإذا عاش المسلمون هذه الحقيقة، تغير ما في نفوسهم، وإذا تغير ما في نفوسهم غيّر الله من أحوالهم، وصاروا خير أمة كما كانوا من قبل).[4]

كما وتعد الهجرة **بدايةً لأزمة شهدها التاريخ الإسلامي،** (فالذي تعرفه السيرة النبوية، أن النبي والذين آمنوا معه من المهاجرين والانصار، واجهوا مع الهجرة مرحلة خطرة معقدة، كان عليهم فيها أن يخوضوا حربا في أكثر من جبهة، وأن يستبسلوا في الجهاد تحت لواء عقيدتهم من حيث يأتيها الخطر: من مواقع مكشوفة سافرة، وأخرى

([1]) البخاري، صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ حديث رقم 4663، ج6، ص 66 .

([2]) الطبري، جامع البيان، ج14، ص261، وانظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج 2، ص395 .

([3]) الألوسي، روح المعاني، ج5، ص 296، وانظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج7، ص 147 .

([4]) أبو فارس، محمد عبد القادر، الهجرة النبوية، ص 55 .

خفية ماكرة...)[1]، ولم يكن معنى الهجرة هو التخلص من الفتنة والاستهزاء فحسب، بل كانت الهجرة مع هذا تعاونا على إقامة مجتمع جديد في بلد آمن، ولا شك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الإمام والقائد والهادي في بناء هذا المجتمع، وكانت إليه أزمة الأمور بلا نزاع، كما أن الأقوام التي كان يواجهها رسول الله –صلى الله عليه وسلم– في المدينة كانت على ثلاثة أصناف، يختلف أحوال كل واحد منها بالنسبة إلى الآخر اختلافاً واضحاً، وهذه الأصناف الثلاثة هي: أصحابه الصفوة الكرام البررة رضي الله عنهم، والمشركون الذين لم يؤمنوا بعد، وهم من صميم قبائل المدينة، واليهود...[2] وقد واجه المهاجرون الضيق والأزمة في بداية الهجرة؛ والتي كان من أهم أسبابها: اختلاف مناخ مكة عن المدينة، وإصابتهم بالحمى، كما أنهم تركوا أهليهم فتولّد لديهم إحساسٌ بالوحشية والحنين إلى بلدهم، وتركوا معظم ثرواتهم بمكة، ثم أنّ مهارتهم كانت في التجارة التي تمرست بها قريش ولم تكن في الزراعة والصناعة، وهما يشكلان أساسين مهمين في اقتصاديات المدينة، وبما أن التجارة تحتاج إلى رأس المال فإن المهاجرين لم يتمكنوا من شق طريقهم في المجتمع المدني بسهولة[3]، ولكن هذه الأزمة مع شدتها وما فيها من الكرب؛ تحمل في لبها الفرج والنصر والفلاح ، وهذا ما يسمى عند علماء الإدارة "بالإدارة بالأزمات" (وهو فن مستحدث للسيطرة على الآخرين، وإخضاعهم وابتزازهم، فضلا عن تحريك الثوابت الراسخة فيما يتصل بالقواعد المستقرة، والأسس المتعارف عليها، ومن خلال صناعة الأزمة تجنى المكاسب، وتتحقق الأهداف)[4] فكانت أحداث الهجرة كلها انتصارات لرسول الله ومن معه وبداية الفتوحات لدين قوي ودولة عظيمة؛ فالإخراج نفسه من مكة فيه النصر، ووجودهما في الغار نصر آخر، ثم إنزال السكينة على رسول الله وصاحبه، والتأييد بالجنود الإلهية،

---

(1) للمزيد انظر: بنت الشاطيء، عائشة عبد الرحمن (ت 1998م)، مع المصطفى عليه الصلاة والسلام، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1972، ص189–190.

(2) المباركفوري، صفي الرحمن (ت 1427هـ)، الرحيق المختوم، دار الوفاء، المنصورة ، ط1، ٢٠٠٤، ج1، ص 160.

(3) انظر: شقرة، محمد عاصم محمد ابراهيم، نحو أنموذج اسلامي لإدارة الأزمات، ص83 .

(4) الخضيري، ادارة الأزمات، ص17 .

وجعل كلمة الله والحق هي العليا؛ فأراد الله سبحانه وتعالى أن يلفتنا إلى أن الباطل لا يمكن أن يعلو على الحق، وأن الحق دائماً هو الأعلى، وأن كلمة الكفار والمشركين هي السفلى الذين أرادوا القضاء على الدعوة بقتل رسول الله –صلى الله عليه وسلم– أو نفيه بإخراجه إلى مكان بعيد، أو سجنه، وغيرها من الأذى...[1] (وهكذا لم تكن الهجرة في الحس الإسلامي مجرد نجاة من عدو، أو هروب من محنة، لقد كانت الهجرة فاتحة تاريخ جديد، وكانت بالنسبة للمسلمين في الأرض، ابتداء وجودهم وتاريخهم، فصار التاريخ الهجري، المبتدىء في هجرة الرسول –صلى الله عليه وسلم– هو سمة هذه الأمة، على مدار القرون، وبه ومن خلاله تعرف)[2]، كما ويعد حدث الهجرة إلى المدينة المنورة، إعلاناً واضحاً لبزوغ مرحلة الدولة الإسلامية، وتحولات عميقة وجذرية على جميع المستويات السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية ... وغيرها، وقد وضع رسول الله –صلى الله عليه سلم– المعالم الأساسية للمجتمع الإسلامي في كل أبعاده الفردية والجماعية، العامة والخاصة، وذلك من خلال بناء المسجد، والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وإصدار دستور ووثيقة لتنظيم العلاقات، وتعزيز صلة الأمة بعضها بالبعض الآخر سواءً المسلمين منهم، أو من الأجانب ممن لا يدينون دين الإسلام، كما أنشأ البنية التحتية من خلال اختيار الموقع الجغرافي، وإنشاء المرافق الاجتماعية والاقتصادية من خلال السوق والطرقات وغيرها.... كما حمى الدولة الناشئة ببناء الجيش[3]، أما الهجرة بشكلٍ عام من دار الكفر إلى دار الإسلام فهي (مطلوبة وواجبة حال وجود أذى الكفار وتعذر إقامة شعائر الدين، فعلى المسلم أن

---

(1) للمزيد انظر: الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج 9، ص5126 – 5133، وانظر: محمد، أحمد عبد العظيم، التخطيط للهجرة، دار التوزيع، مصر، ط1، 2003، ص 76– 100، وانظر: الغزالي، محمد، فقه السيرة، دار الكتب الحديثة، مصر، ط 6، 1965، ص168–179، وانظر: أزمة الهجرة كاملة من الجمل، صديقة محمد سليمان، الهدي النبوي في إدارة الأزمات الاجتماعية العامة، ص44–49 .

(2) الغضبا، منير محمد الغضبان (ت 1435هـ)، فقه السيرة النبوية، جامعة أم القرى، ط2، 1992 م، ص 342 .

(3) انظر: الغزالي، محمد، فقه السيرة، ص 187–198 .

يتلمس عبادة الله في أرضه مع صالحي عباده، فإن كان في حال مضايقة من إظهار الإيمان في أرض، فهاجر إلى أرض أخرى، فإن أرض الله واسعة، لإظهار التوحيد بها، وهذا كان مناسباً للمؤمنين في صدر الإسلام حيث هاجروا من مكة مهد الشرك والوثنية إلى المدينة الطيبة المطهرة، ثم ارتفع الوجوب ولم تعد الهجرة واجبة بعد فتح مكة، وإنما بقيت الهجرة بمعنى هجر السوء وترك ما نهى الله عنه، والآية في قوله تعالى: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾[العنكبوت: 56] نزلت في الهجرة قبل الفتح، لا في الهجرة مطلقا في كل زمان ومن أي بلد، ولكن بعمومها تعد مستندا للقول بوجوب الهجرة على الدوام عند الإمكان إذا لم يتمكن المسلم من إقامة شعائر دينه)[1]، فالهجرة وقعت في الإسلام على وجهين، الأولى: الانتقال من دار الخوف إلى دار الأمن، كما في هجرتي الحبشة وابتداء الهجرة من مكة إلى المدينة، والثاني: الهجرة من دار الكفر إلى دار الإيمان، وذلك بعد أن استقر النبي– صَلّى اللهُ عليّه وسلّم– بالمدينة، وهاجر إليه من أمكنه ذلك من المسلمين .[2]

كما وتحمل لنا الهجرة النبوية الكثير من العبر والدروس، التي يمكن أن تكون سبيلا للخروج من الأزمات المعاصرة للأمة الإسلامية اليوم يجب النظر فيها .

مسجد ضرار:

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إلا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ*لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾[التوبة: 108/107]، ومما واجه رسول الله –صلى الله عليه وسلم– من أزمات؛ مواجهته جماعة حاربت الله بطرق مخفية وبأساليب شيطانية كشفها الله عليهم، وفضحهم وبين سوء نيتهم وعملهم، ومن هذه المكائد المذكورة في سورة التوبة؛ أنه كان أناس من المنافقين –وعلى رأسهم أبي

([1]) الزحيلي، وهبة بن مصطفى، التفسير المنير، ج21، ص 27 .

([2]) القاسمي، محاسن التأويل، ج3، ص 292.

عامر الراهب[1] من أهل قباء اتخذوا مسجدًا إلى جنب مسجد قباء[2]، يريدون به المضارة، والإساءة، والمشاقة والتفريق بين المؤمنين، وتقوية كفرهم ويعدونه لانتظار وترقب من يرجونه من المحاربين للّه ورسوله، يكون لهم حصناً ومكاناً مرصداً عند الاحتياج إليه، فبين تعالى خزيهم، وأظهر سرهم وكذبهم... وأمر الله نبيه أن لا يقم الصلاة فيه، ثم بعث إليه النبي –صلى الله عليه وسلم– من يهدمه ويحرقه، فهدم وحرق، وصار بعد ذلك مزبلة... ومات أبو عامر طريداً وحيداً غريباً بالشام ...[3].

ما يزال صاحب الكيد الخادع مزعزع العقيدة في شك ونفاق، لا يزول وسمه عن قلوبهم ولا يضمحل أثره، حائر الوجدان، لا يطمئن ولا يستقر، وهو من انكشاف ستره في قلق دائم، وريبة لا طمأنينة معها ولا استقرار...، والتعبير القرآني الفريد يرسم هنا صورة حافلة بالحركة، تنبئ عن مصير كل مسجد ضرار يقام إلى جوار مسجد التقوى، وكل مسجد بني مباهاة أو رياء وسمعة أو لغرض سوى ابتغاء وجه الله أو بمال غير طيب، أو أُريد به ما أريد بمسجد الضرار؛ فهو لاحق بمسجد الضرار، وتكشف عن نهاية كل محاولة خادعة تخفي وراءها نية خبيثة؛ وتطمئن العاملين المتطهرين من كل كيد يراد بهم، مهما لبس أصحابه مسوح المصلحين وهذا المسجد ما يزال يتخذ في صور شتى تلائم ارتقاء الوسائل الخبيثة التي يتخذها أعداء هذا الدين، في الإضرار

([1]) عمرو بن صيفي بن مالك بن أمية، أبو عامر، من الأوس جاهلي من أهل المدينة، كان يذكر البعث ودين الحنيفية، ويُعرف بالراهب، ولما ظهر الإسلام حسد النبي –صلى الله عليه وسلم– وعاندهُ، وخرج من المدينة فشهد مع مشركي قريش وقعة أُحد ثم سكن مكة، ولما انتشر الإسلام خرج إلى بلاد الروم، فمات فيها سنة 9 هجري، انظر: الزركلي، الأعلام، ج5، ص 79 .

([2]) هذا المسجد بناه بنو عمرو بن عوف من الأنصار، وبعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتاهم فصلى فيه، انظر: ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت 597هـ)، مثير العزم الساكن إلى أشرف الأماكن المحقق: مرزوق علي إبراهيم، تقديم: حماد بن محمد الأنصاري، دار الراية، ط1، 1415 هـ–1995م، باب ذكر مسجد قباء، ج2، ص 275 .

([3]) انظر: الواحدي، الإمام أبي الحسن علي بن أحمد، أسباب نزول القرآن، باب رقم 260، ص 264–265، وانظر:الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج 14، ص471–474.

بالمسلمين، والكفر بالله، وستر المتآمرين على الجماعة المسلمة، الكائدين لها في الظلام، والتعاون مع أعداء هذا الدين على الكيد له تحت ستار الدين...[1].

وهناك اليوم بعض الجماعات التي تحاول التفريق وإيقاع الفساد بين المسلمين باسم الإسلام وتمارس العدوان؛ أفراد أو جماعات أو دول بغيا على الإنسان (دينه، وعقله، وماله، وعرضه) وهو ما يُسمى بالإرهاب في عصرنا الحالي، والذي يشمل صنوف التخويف والأذى والتهديد والقتل بغير حق، وما يتصل بصور الحرابة وإخافة السبيل وقطع الطريق وكل فعل من أفعال العنف أو التهديد يقع تنفيذا لمشروع إجرامي فردي أو جماعي، ويهدف إلى إلقاء الرعب بين الناس أو ترويعهم بإيذائهم، أو تعريض حياتهم أو حريتهم أو أمنهم أو أحوالهم للخطر، ومن صنوفه إلحاق الضرر بالبيئة أو بأحد المرافق والأملاك العامة أو الخاصة أو تعريض أحد الموارد الوطنية أو الطبيعية للخطر، فكل هذا من صور الفساد في الأرض التي نهى الله سبحانه وتعالى المسلمين عنها) .[2]

معوقات الجهاد، وأهمها:

الاعتذار والتخلف عن الجهاد من أصناف المجتمع المختلفة، وقضية الإذن للمنافقين بالتخلف:

وكان مما واجهه –عليه الصلاة والسلام– من مشاق في سبيل الدعوة وقتال أعداء الدين؛ أن كان هناك ما يعوق غزوهم وجهادهم... وفي هذه السورة تحديداً ذكر القرآن بعضها؛ ولكنه عليه السلام بعناية ربه، ثم بحكمته تغلب على كثير من هذه الشدائد والصعاب هو ومن معه من المؤمنين، وخرج منها عليه الصلاة والسلام منتصراً فاتحاً، وهذه المعوقات متنوعة الأشكال؛ فمنها المعوقات المادية، ومنها المعوقات النفسية وحب الدنيا ومتاعها، ومنها معوقات طبيعية بسبب الحر والعجز والمرض وبعد المسافة... وغيرها، وقد روى ابن هشام عن الزهري مبيناً العوائق والظروف التي واجهت رسول الله والمسلمين في غزوة تبوك، فقال: (في زمان من

([1]) انظر: الزمخشري، الكشاف، ج2، ص215، وانظر: قطب، سيد، في ظلال القرآن، المجلد3، ص1710– 1712 .

([2]) انظر: مجلة البحوث الإسلامية، العدد70، ص125، من رجب–شوال، 1424هـ.

عسرة الناس وشدة من الحر وجدب من البلاد وحين طابت الثمار والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم ويكرهون الشخوص على الحال من الزمان الذي هم عليه وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قلما يخرج في غزوة إلا كنى عنها وأخبر أنه يريد غير الوجه الذي يصمد له إلا ما كان من غزوة تبوك فإنه بينها للناس لبعد الشقة وشدة الزمان وكثرة العدو الذى يصمد له ليتأهب الناس لذلك أهبته فأمر الناس بالجهاز وأخبرهم أنه يريد الروم) [1].

ولكن من أهم ما واجهه عليه الصلاة والسلام من عوائق في تلك الغزوة بالذات؛ هو عائق النفاق، والاعتذار عن الجهاد والتخلف عنه... وكانت من أشد المصائب والكرب، وواجه عليه السلام أيضاً جماعات تعتذر من غير المنافقين بأعذار مكشوفة مقنعة وأعذار أخرى غير مقنعة، وجماعات تعتذر بنية خفية حاقدة، وغيرها... سببت شيء من الضيق والشدة ، وأصحاب الأعذار المتخلفين في غزوة تبوك كما ذكروا في السورة فيه شيء من التشابك والتنوع يصعب التعامل معهم؛ إلا من قائدٍ سياسيّ حكيم، ويمكن تصنيفهم بالشكل الآتي، أولاً: مؤمنون صادقون تخلفوا عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– كسلاً، وميلاً الى الراحة، ثانياً: مؤمنون صادقون تخلفوا عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– عجزاً، بسبب المرض أو الفقر، ثالثاً: المنافقون المتخلفون "من منافقي المدينة، ومن منافقي الأعراب"، أما المتخلفون من المؤمنين بغير عذر عن غزوة تبوك فريقان: الفريق الأول: ﴿وَآَخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآَخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[التوبة:102]، وهم من تاب الله عنهم مباشرة بعد الغزوة والفريق الثاني: ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾[التوبة: 106]، وهم من أخّر الله توبتهم، وأنزل فيهم آيات...[2]، والفريق الأول قيل هم عشرة أنفس كانوا تخلَّفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك، منهم أبو لبابة، فربط سبعةٌ منهم أنفسهم إلى السّواري عند مَقْدم النبي صلى الله

([1]) ابن هشام، السيرة النبوية، تهذيب عبد السلام هارون، ص285–286 .

([2]) انظر: التصنيف في السورة: قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج3، ص1699–1709. وانظر: عبد الله، صفوان جاج اسماعيل، معالم الجهاد في سورة التوبة، ص195– 202.

عليه وسلم، توبةً منهم من ذنبهم[1]، والفريق الثاني: وهؤلاء هم غير المنافقين والمعتذرين والمخطئين التائبين، وهذا الفريق لم يكن حتى نزول هذه الآية قد بت في أمره بشيء، وكان أمرهم موكولاً إلى الله، لم يعلموه ولم يعلمه الناس بعد. وقد روي أن هذه الآية نزلت في الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك وهم: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن ربيعة، رهط من الأنصار، فوقف أمرهم الى الله تعالى خمسين ليلة، وهجرهم الناس، وكانوا بأزمة وضيق شديد حتى نزلت توبتهم، وهم الذين ذكروا في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[التوبة: 118]، وكانوا قد قعدوا عن غزوة تبوك كسلاً وميلاً إلى الدعة، واسترواحاً للظلال في حر الهاجرة ... [2].

أما المتخلفون المعذورون فهم من قال فيهم جل في علاه: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[التوبة: 91]، فهؤلاء سقط التكليف عنهم؛ سواء كان عجزهم من جهة القوة، أو من جهة المال، وهؤلاء بين الله تعالى أن ليس عليهم ذنبٌ أو حرجٌ، أو ضيق إذا بذلوا جهدهم لنفع الإسلام والمسلمين بأن يتعهدوا أمورهم وأهلهم، ولا يكونوا كالمنافقين الذين يشيعون الأراجيف في نفوس المؤمنين إذا تخلفوا[3]، ثم توعد الله كل من يتخلف و يحب متاع الدنيا وزينتها على الهجرة و الجهاد بالعذاب الشديد، والمصائب والأزمات الخانقة، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ

---

(1) انظر: الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج 14، ص 447، وانظر الواحدي، أسباب النزول، باب 258، ص 263 .

(2) انظر: الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج 14، ص 464–476، وانظر: الواحدي، أسباب النزول، باب 259، ص 264، وانظر: قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج3، ص1709 .

(3) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج7، ص 226، وانظر: الألوسي، روح المعاني، مجلد 4، ج 5، ص 345 .

تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[التوبة: 24]، فهو تهديد شديد اللهجة لكل من تخلف عن رسول الله وعن الجهاد.[1]

أما المنافقون المتخلفون: فهم كما نعرف متصفون بالخوف، والجبن الشديد من الجهاد، ويعتذرون بحجج واهية، ولا يخرجون للقتال إلا لمصالحهم الخاصة، ومن هؤلاء المتخلفين عن غزوة تبوك كما ذكرت كتب السيرة، الجد بن قيس[2]، وعبد الله بن أبي[3]، وجماعات معهم...[4]؛ وبذلك سببوا نوعا من الخلخلة والضيق، وخرجوا على القرارات الإلهية في الجهاد، وقد أذن لهم رسول الله –صلى الله عليه وسلم– بالقعود عن الغزو وقبل اعتذارهم، ولكن الله تعالى عاتب نبيه لما أذن لهم بالتخلف قبل أن يظهر له الصادق من الكاذب منهم؛ فقال: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ

---

(1) الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج 14، ص177، وانظر: البقاعي، نظم الدرر، ج 8، ص 422 .

(2) الجد بن قيس بن صخر بن خنساء بن سنان بن عبيد بن عدي بن تميم بن غنم بن كعب بن سلمة الأنصاري السلمي، يكنى أبا عبد الله، كان ممن يظن فبه النفاق من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان قد ساد في الجاهلية جميع بني سلمة فانتزع رسول الله صلى الله عليه وسلم سؤدده، ويقال إنه مات في خلافة عثمان، وقد قيل إنه تاب فحسنت توبته والله أعلم، انظر: ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، ج1، ص 468.

(3) عبد الله بن أبي من مالك بن الحارث ابن عبيد الخزرجي، أبو الحباب، المشهور بابن سلول، وسلول جدته لأبيه، من خزاعة: رأس المنافقين في الاسلام، من أهل المدينة ، كان سيد الخزرج في آخر جاهليتهم، وأظهر الاسلام بعد وقعة بدر، تقية، ولما تهيأ النبي صلى الله عليه وآله لوقعة أحد، انخزل أبي وكان معه، ثلاثمائة رجل، فعاد بهم إلى المدينة. وفعل ذلك يوم التهيؤ لغزوة تبوك، وكان كما كلما حلت بالمسلمين نازلة شمت بهم، وكلما سمع بسيئة نشرها، ولما مات عام (59هـ) تقدم النبي صلى الله عليه وآله فصلى عليه، ولم يكن ذلك رأي "عمر" فنزلت: ﴿وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾[التوبة: 84]، كان عملاقا، يركب الفرس فتخط أبهاماه في الارض، انظر الزركلي: الأعلام، ج 4، ص65.

(4) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، تهذيب عبد السلام هارون، ص285–288. وانظر: الواحدي، أسباب النزول، باب 244–245، ص 251– 252 .

الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾[التوبة: 43]، فقيل: (شيئان فعلهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يؤمر بهما: إذنه للمنافقين، وأخذه الفدية من الأسارى، فعاتبه الله تعالى)[1]. وهنا خاطب الله تعالى نبيه مبيناً له أنه ما كان ينبغي لك أن تأذن لهم في التخلف عنك؛ حتى تعرف مَن له العذر منهم في تخلفه، ومن لا عذر له منهم، فيكون إذنك لمن أذنت له منهم على علم منك بعذره، وتعلم من الكاذب منهم المتخلف نفاقًا وشكاً في دين الله.[2] وسأتحدث بإذن الله تعالى، فيما بعد بشيء من التفصيل عن أزمة النفاق كما بينتها السورة، وأثرها في المجتمع المسلم، وكيف تعامل معهم رسولنا الكريم وفق المنهج القرآني.

هذه بعض الأزمات التي اجتهدت وضعها تحت الأزمات السياسية في السورة، أما أهم أزماتنا السياسية في العصر الحالي فمتعددة، أهمها(ذلك التحول الواضح من الهموم العامة إلى الهموم الخاصة؛ فعلى مستوى المسلمين عموماً تكرست العزلة بين ما يسمى بـ (العالم الإسلامي) وبين ما يسمى بـ (العالم العربي) بفعل القوميات، ثم تجذرت العزلة بين أجزاء كل عالم منهما بعد ذلك بفعل الوطنيات؛ فالهَمُّ المحلي الآن هو منتهى اهتمام الجميع).[3]

3.2 الأزمة العسكرية:

تُعرّف الأزمة العسكرية بأنها (حالة طارئة غير متوقعة تهدد المصالح الوطنية، وعنصر الوقت فيها يكون حاكماً، ولا يتيسر حلها بالأساليب التقليدية حيث إن ذلك يستلزم تضافر قدرات عسكرية ومدنية عديدة)[4] [5]، وقد تكون الأزمة العسكرية ناتجة عن صراع مسلّح تستخدم فيه –الأسلحة– القوات المُسلحة مع دول أُخرى أو التهديد

([1]) الزمخشري، الكشاف، ج 2، ص 192 .

([2]) انظر: الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج 14، ص273.

([3]) مجلة البيان، كامل، عبد العزيز، نظرات في منازلة النوازل، محرم، 1425هـ، العدد 197، ص 32 .

([4]) الجمل، صديقة محمد سليمان، الهدي النبوي في ادارة الأزمات الاجتماعية العامة،ص 23.

([5]) السيد، رمزي حبيب، مراكز إدارة الأزمات، الحرس الوطني، العدد(171)، 1996/11/10م، ص 35 .

باستخدامها يخلق نوعاً من التوتر والأخطار التي قد تهدد المصالح الوطنية[1]، ولم أجد من عرّف الأزمة العسكرية من الناحية الإسلامية؛ فاجتهدت تعريفها بأنها "حالة طارئة غير متوقعة تهدد كيان الدولة الإسلامية وأهدافها ومصالحها، وتضع الأمة وقائدها في مواجهة مع مواقف صعبة، وتتطلب قرارات سريعة، وقد يُستخدم فيها السلاح لقتال الكفار ونُصرة الإسلام، وتحتاج تضافر جهود المسلمين ككل لإنجاح خططها" والأزمة العسكرية في الدولة الإسلامية وغيرها ذات علاقة بالأزمة السياسية؛ فما ينبني على الأزمة السياسية ينبني على الأزمة العسكرية، والقرار السياسي له تأثير كبير على الناحية العسكرية؛ حيث يؤدي إلى حدوث أزمة عسكرية أو تفادي حدوثها[2]، وتعد الأزمة العسكرية من أصعب ما واجه رسول الله –صلى الله عليه وسلم– من كرب، في مواجهته لمعسكرات الكفر، وذلك لإنهاء النزاع بين أهل الحق وأهل الباطل؛ ذكرته السورة الكريمة.

وقد جعلت الحديث في هذا المبحث في أربعة مطالب:

المطلب الأول: الجهاد(وقتال أئمة الكفر، والمشركين، وأهل الكتاب، والمنافقين)

المطلب الثاني: تحديد زمن القتال .

المطلب الثالث: غزوة حنين .

المطلب الرابع: غزوة تبوك .

1.3.2 أزمة الجهاد وفيه: قتال أئمة الكفر، والمشركين، وأهل الكتاب، والمنافقين:

تُعد أزمات القتال وأزمات الحروب من أشد الأزمات خطورةً، وتحتاج معالجتها إلى رؤية خاصة[3]، وقد واجه رسول الله –صلى الله عليه وسلم– أشد الأزمات في تعامله مع أهل الكفر وجهادهم له هو وأصحابه –رضوان الله عليهم–، فكانت هذه

([1]) الرويلي، علي بن هلهول، إدارة الأزمة، استراتيجية المواجهة ، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية ، الرياض، ج1 ، 2011/4/30 –2011/5/4م، ص 5 .

([2]) انظر: الجمل، صديقة محمد سليمان، الهدي النبوي في ادارة الأزمات الاجتماعية العامة، ص 24 .

([3]) الخضيري، محسن أحمد، إدارة الأزمات، ص 35 .

الأزمات إما في تحول إلى فوز ونصر وانفراج وفتوحات؛ وكانت معظمها كذلك، وإما تراجع في بعض المواقف، وازدياد في الضيق والشدة، ولكنه –عليه الصلاة والسلام– كان يتعامل مع هذه الأزمات بتوجيهات ربانية وبحكمة واضحة، أضفت على تعامله معها طابع العصمة، وقد (حض الله على القتال حضا شديدا في آخر العهد النبوي فنزلت سورة براءة وهي من آخر ما نزل من القرآن، وفيها قوله سبحانه: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾[التوبة: 36]، وقوله: ﴿انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[التوبة: 41]، وقوله: {إِلاَّ تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[التوبة: 39])[1] فقوله تعالى: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[التوبة: 41]، ففي هذه الآية الكريمة حث على الجهاد في كل الظروف والأحوال سواءً كنا: شباناً أو شيوخاً، نشاطاً وغير نشاط، ركباناً أو مشاة، فقراء أو أغنياء، وقيل إن الثقيل الذي له الضيعة، فهو ثقيل يكره أن يدع ضيعته، والخفيف الذي لا ضيعة له، وقيل: خفافا أهل الميسرة، وثقالاً أهل العسرة...[2]

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلا قَلِيلٌ﴾[التوبة: 38]، وهذه الآية حثٌّ من الله جل ثناؤه المؤمنين به من أصحاب رسوله على غزو الروم، وذلك غزوة رسول الله –صلى الله عليه وسلم– تبوك[3]، وروى ابن

([1]) زرقاني، محمد عبد العظيم الزُّرْقاني (ت 1367هـ)، مناهل العرفان في علوم القرآن، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، ط3 ، ج1، ص 102.

([2]) انظر: الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج 14، ص 262– ص266، وانظر: البغوي، معالم التنزيل، ج4، ص53، وأبو السعود، محمد بن محمد العمادي، ارشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، دار احياء التراث العربي، بيروت ، ط 4، ج 3، ص67.

([3]) انظر: الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج 14، ص 251 .

عباس رضي الله عنهما" أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال يوم الفتح: "لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية ، وإذا استنفرتم فانفروا".[1]

القتال فيه من المشاق والصعاب ما فيه، وقد طلب الله تعالى من نبيه الكريم في هذه السورة قتال أصنافٍ متنوعة ونسيج متشابك لأهل الكفر كلٌ بطبيعة حاله:

فنجد هنا الأمر بقتال رؤوس الكفر وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾[التوبة: 12]، وأئمة الكفر: هم رؤوسَ المشركين، أهلَ مكة، وقيل أنهم: أبو سفيان بن حرب، وأمية بن خلف، وعتبة بن ربيعة، وأبو جهل بن هشام، وسهيل بن عمرو، وهم الذين نكثوا عهد الله، وهمُّوا بإخراج الرسول، وقيل هم جميع الرؤساء من الطاعنين في دين الرحمن، وخصهم بالذكر لعظم جنايتهم، ولأن قتالهم قتال لأتباعهم، وليدل على أن من طعن في الدين ونكث العهد يكون أصلاً ورأساً في الكفر، ويكون القتل لزعماء الكفار الذين يحرضون أتباعهم على محاربة دين الله، وهم الذين يخططون وينفذون ويحرضون، وهم –كما يقال في العصر الحديث– مجرمو حرب؛ فهم لا عهود ولا مواثيق يلازمون على الوفاء بها، بل لا يزالون خائنين، ناكثين للعهد، لا يوثق منهم، ولا يؤمن جانبهم، وهم الذين بدأوا بعداوة المسلمين والصد عن الإسلام[2]، ونحن نعلم أن قتال الرؤساء، والزعماء، واتخاذ قرار قتالهم من أصعب القرارات، ويُدخله–عليه الصلاة والسلام– أشد الأزمات؛ لكن البشائر الربانية تأتي حتى في أصعب القرارات فيحرض الله المؤمنين ويرغبهم بالقتال، ويعدهم بالنصر، والفرج بقوله: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ* وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[التوبة: 14، 15]، فأمرهم الله تعالى بقتال هؤلاء المشركين الذين نكثوا أيمانهم، ونقضوا

([1]) البخاري، صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب وجوب النفير، حديث رقم 2825، ج4 ، ص 23 .

([2]) انظر: السيوطي، الدر المنثور، ج 4، ص136، وانظر: الواحدي، أسباب النزول، حديث رقم 237، ص 246، وانظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج7، ص 84، الشعراوي، محمد متولي، تفسير الشعراوي، ج 9، ص 4919 .

عهودهم، وأخرجوا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من بين أظهرهم؛ فإن الله سيقتلهم بأيديكم، ويذلهم بالأسر والقهر، فيعطيكم الظفر عليهم والغلبة، ويبرئ داء صدور قوم مؤمنين بالله ورسوله، بقتل هؤلاء المشركين بأيديكم، وإذلالكم وقهركم إياهم. وذلك الداء، هو ما كان في قلوبهم عليهم من الموْجِدة بما كانوا ينالونهم به من الأذى والمكروه... [1]

وكان قد حذّرهم قبل ذلك من التراخي في مبادرتهم بالقتال بقوله تعالى: ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[التوبة: 13]، فهنا (تحذير من التواني في قتالهم بعد أن أثبتت لهم ثمانية خلال تغري بعدم الهوادة في قتالهم، وهي قوله: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾[التوبة: 7] وقوله: ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾[التوبة:8] وقولُه ﴿يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ﴾[التوبة: 8] وقولُه : ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾[التوبة: 8] وقولُه: ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾[التوبة: 9] وقولُه: ﴿لاَ يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً﴾[التوبة: 10] وقولُه: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُون﴾[التوبة: 10] وقولُه: ﴿إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ﴾[التوبة: 12]، فكانت جملة ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ تحذيراً من التراخي في مبادرتهم بالقتال)[2]. ثم يأتي القرار، بقتال المشركين كافة، حيث وجدوا، وهو بدايةً لعهدٍ عسكريٍ جديد، وهو القتال؛ وهذه الآيات من سورة التوبة فيها آية السيف، أو آية القتال؛ كما أوضح العلماء والمفسرون...[3]: يقول تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾[سورة التوبة:5]، وهذه الآيات تضمّنت الابتداء في الحث على قتال المشركين. [4]

([1]) انظر: الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج 14، ص 160، البغوي، معالم التنزيل، ج4، ص18 .

([2]) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج10، ص 131- 132 .

([3]) الألوسي، روح المعاني، مجلد 4، ج 5، ص 246، البغوي، معالم التنزيل،ج4، ص368، الزحيلي ، وهبة، التفسير المنير، ج 9، ص 107 .

([4]) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج10، ص154.

ويقول تعالى أيضاً: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِين﴾[سورة التوبة: 36] أي (وقاتلوا المشركين بالله، أيها المؤمنون، جميعًا غير مختلفين، مؤتلفين غير مفترقين، كما يقاتلكم المشركون جميعًا، مجتمعين غير متفرقين)[1]، وقال تعالى في قتال الكفار أيضا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾[التوبة: 123].

وهذا قرارٌ عسكريٌ حاسمٌ وأمرٌ صريحٌ من اللهِ تعالى للمؤمنين: فاقتلوهم حيث لقيتموهم من الأرض، في الحرم، وغير الحرم في الأشهر الحرم وغير الأشهر الحرم، وأسروهم، وامنعوهم من التصرف في بلاد الإسلام ودخول مكة، وضيقوا عليهم، واقعدوا لهم بالطلب لقتلهم أو أسرهم كل طريق ومرقَب؛ ثم عرفهم جل وعلا كيفية الجهاد– بعد أمرهم به – وهو أن الابتداء يجب أن يكون بالأقرب فالأقرب من العدو ولهذا بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعرب، فلما فرغ قصد الروم، وكانوا بالشام؛ لأنه من المعلوم أنه لا يمكن قتال جميع الكفار وغزو جميع البلاد في زمان واحد فكان من قرب أولى ممن بعد، ولأن ترك الأقرب والاشتغال بقتال الأبعد لا يؤمن معه من الهجوم على الذراري والضعفاء، وأيضاً الأبعد لا حد له بخلاف الأقرب فلا يؤمر به، وقد لا يمكن قتال الأبعد قبل قتال الأقرب، وقيل: المراد قاتلوا الأقرب فالأقرب حتى تصلوا إلى الأبعد فالأبعد وبذلك يحصل الغرض من قتال المشركين كافة، فهذا إرشاد إلى طريق تحصيله على الوجه الأصلح، وليكن القتال بكل شدة وجراءة وعنف ... وصبر على ذلك كله[2]، وقد بيّن عليه الصلاة والسلام وجوب قتالهم أكثر من مرة، فقد أخرج البخاري عن ابن عباس أنه عليه السلام قال في مرض موته: (أخرجوا المشركين من جزيرة العرب).[3]

([1]) الطبري، جامع البيان، ج14، ص 241.

([2]) انظر: الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج 14، ص 134–137، الألوسي، روح المعاني، مجلد 4، ج6، ص47، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج7، ص297. وانظر: أبي حيان، البحر المحيط، ج 5، ص 118.

([3]) البخاري، صحيح البخاري، كتاب الجزية، باب إخراج اليهود من جزيرة العرب، حديث رقم 3168، ج4، ص99 .

أما ما تناولته الآيات من قتال الكفار من أهل الكتاب –وهم اليهود والنصارَى– أهل التوراة والإنجيل "وهم جبهة قوية لديهم العلم والسلاح" يقول تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾[التوبة: 29]، هذه الآية –والآيات التالية لها في السياق– كانت تمهيداً لغزوة تبوك؛ ومواجهة الروم وعمالهم من الغساسنة المسيحيين العرب؛ فهذه الصفات القائمة لم تذكر هنا على أنها شروط لقتال أهل الكتاب؛ إنما ذكرت على أنها أمور واقعة في عقيدة هؤلاء الأقوام وواقعهم؛ وأنها مبررات ودوافع للأمر بقتالهم، ومثلهم في هذا الحكم كل من تكون عقيدته وواقعه كعقيدتهم وواقعهم، وقد حدد السياق من هذه الصفات القائمة:

أولاً: أنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ثانياً: أنهم لا يحرمون ما حرم الله ورسوله، ثالثاً: أنهم لا يدينون دين الحق، والمقصود من ذلك تمييزهم من المشركين في الحكم، لأن الواجب في المشركين القتال أو الإسلام، والواجب في أهل الكتاب القتال أو الإسلام أو الجزية، والجزية: خراجاً عن رقابهم؛ يبذلونه للمسلمين دَفْعًا عنها، وهم أذلاء مقهورين، كارهين...[1]، أما قتال المنافقين، والغلظة عليهم فيقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾، [سورة التوبة: 73/سورة التحريم: 9]، وتعتبر هذه الآية سيف المنافقين...[2]، وقال أيضاً : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾[سورة التوبة: 123]، أما الغلظة في جهاد الكفار: فهو بالقتل والسيف –كما أسلفنا– أما صفة جهاد المنافقين، والغلظة عليهم فللمفسرين عبارات في تفسيرها، فقيل شجاعة، وقيل شدة، وقيل غيظاً، وغيرها، وهي ضد الرقة، وهي الشدة في إحلال النقمة...؛ والفائدة فيها أنها أقوى تأثيراً في الزجر والمنع عن القبيح؛ وهذه الغلظة إنما تعتبر فيما يتصل بالدعوة إلى الدين. وذلك إما بإقامة الحجة والبينة، وإما بالقتال والجهاد .[3]

([1]) انظر: الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج14، ص198–200، وقطب، في ظلال القرآن، ج 3، ص 1632.

([2]) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج2، ص 408 .

([3]) انظر: الرازي، الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، ج 15، ص 138 و ص 235– 236.

ويمكن القول أن جمهور المفسرين على أن جهاد المنافقين باللسان والزجر والوعيد لأن رسول الله نهى عن قتالهم، فقد جاء في الحديث: عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، يقول: كنا في غزاة فكسع[1] رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فسمعها الله رسوله صلى الله عليه وسلم قال: «ما هذا؟» فقالوا كسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «دعوها فإنها منتنة» قال جابر: وكانت الأنصار حين قدم النبي صلى الله عليه وسلم أكثر، ثم كثر المهاجرون بعد، فقال عبد الله بن أبي: أوقد فعلوا، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «دعه لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه»[2]، ويرى الإمام الطبري أنهم يجاهدون بالسيف إذا أظهروا النفاق، مستدلاً بما روي عن ابن مسعود –رضي الله عنه– (جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ)، قال: بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، فإن لم يستطع فليكفهرَّ في وجهه...[3]

وأياً كان جهاد أهل الكفر والنفاق؛ إنما هو صعاب وشدائد واجهها رسول الله– صلى الله عليه وسلم– وصحابته الكرام ، في التصدي لمعسكر الباطل بشتى أشكاله... ومنها غزوتي حنين وتبوك ذكرتها سورة التوبة؛ ولكن الله تعالى بين للمؤمنين من أهل المدينة وما حولها أن الأزمات والشدائد التي يواجهونها في القتال لهم فيها الأجر

([1]) كسعه، إذا ضرب برجله على مؤخره أو بيده ، انظر : ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة ، طبعة دار الفكر، ج 5، ص 177 .

([2]) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾[المنافقون: 8]، حديث رقم 4907، ج6، ص 154، وانظر: الطبري، جامع البيان، ج23، ص 404.

([3]) وقوله: "فليكفهر في وجهه": (أي فليلقه بوجه منقبض عابس لاطلاقه فيه ولا بشر ولا انبساط). انظر: الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج 14، ص358–359، وأخرج الحديث السيوطي في الدر المنثور، ج4، ص 240، وانظر الخلاصة في جهاد المنافقين: عبد الله، صفوان جاج اسماعيل، معالم الجهاد في سورة التوبة، ص 136.

والثواب، يقول تعالى: ﴿مَا كانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَؤُنَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ*وَلا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وادِياً إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة:121/120] فذلك النهي عن التخلف لأنهم لا يصيبهم ﴿ظَمَأٌ﴾ وهو العطش ولا ﴿نَصَبٌ﴾ وهو التعب ولا ﴿مَخْمَصَةٌ﴾ وهو المجاعة ﴿وَلا يَنالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً﴾ أسرا أو قتلا أو هزيمة فأعلمهم الله أن يجازيهم على جميع ذلك، و﴿لا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً﴾ قيل: تمرة فما فوقها ﴿وَلا يَقْطَعُونَ وادِياً﴾ مقبلين أو مدبرين ﴿إِلاَّ كُتِبَ﴾ لهم أي أثبت لهم أجر ذلك ليجزيهم الله بأحسن ما ﴿كانُوا يَعْمَلُونَ﴾.[1]

2.3.2 أزمة تحديد زمن القتال:

وهي تدابير جديدة لم يعهدها الطرفان، وتعد من غرائب رحمة هذا الدين حتى في الحروب والنزاع، فهم في هدنة للتفكر والنظر في أمرهم وعاقبتهم، للتخيير بين الإسلام، وبين الاستعداد للمقاومة والصدام[2]، قال تعالى: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾[التوبة: 2]، وقد اختلف المفسرون بالأربعة أشهر الممنوع فيها القتال[3]، وأياً كانت الأربعة أشهر فهي أدخلت الكفار عهداً جديداً وقراراً مفاجئاً لم يعتادوا مثله من ذي قبل، فدخلوا أزمات من نوع جديد، كما أن المؤمنين دخلوا قراراً جديداً يحتاج منهم لتخطيط، وقوة في سبيل نشر دعوتهم، ويعتبر هذا (تأجيل من الله للمشركين أربعة أشهر، فمن كانت مدة عهده أكثر من أربعة أشهر حطه(قصره) إلى الأربعة، ومن كانت مدته أقل من أربعة أشهر رفعه

([1]) ابن الجوزي، زاد المسير، ج3، ص 350 .

([2]) انظر: رضا، محمد رشيد، المنار، ج 10، ص 152.

([3]) انظر: الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج 14، ص 98–101، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، ج 3، ص 41، وانظر: عبد الله، صفوان حاج اسماعيل، معالم الجهاد في سورة التوبة، ص 54–56 .

إلى الأربعة، والمقصود من هذا الإعلام أمور: الأول: أن يتفكروا لأنفسهم ويحتاطوا في هذا الأمر، ويعلموا أنه ليس لهم بعد هذه المدة إلا أحد أمور ثلاثة : إما الإسلام أو قبول الجزية أو السيف، فيصير ذلك حاملاً لهم على قبول الإسلام ظاهراً. والثاني: لئلا ينسب المسلمون إلى نكث العهد، والثالث: أراد الله أن يعم جميع المشركين بالجهاد، فعم الكل بالبراءة وأجلهم أربعة أشهر، وذلك لقوة الإسلام وتخويف الكفار، ولا يصح ذلك إلا بنقض العهود والرابع: أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يحج في السنة الآتية، فأمر بإظهار هذه البراءة لئلا يشاهد العراة)[1]، ومع المهلة التي يعطيها للمشركين يزلزل قلوبهم بالحقيقة الواقعة؛ ويوقظهم إلى هذه الحقيقة ليفتحوا عيونهم عليها؛ إنهم بسياحتهم في الأرض لن يعجزوا الله في الطلب، ولن يفلتوا منه بالهرب، ولن يفلتوا من مصير محتوم قدره وقرره : أن يخزيهم ويفضحهم ويذلهم...[2]

بين الله تعالى للمشركين أن الأشهر الحرم هي زمان، والزمان ظرف، فالناس مظروفون في الزمان والمكان، فكأن الأشهر الحرم تحيطهم كوقاية لهم من المؤمنين، فإذا مرت الأشهر الحرم تزول هذه الوقاية عنهم بعد أن كانت ملتصقة بهم... وبعدها يكون العقاب وتكون الشدة عليهم...[3]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآَتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ التوبة: 5] أي (إذا انقضت الأشهر الاربعة التي حرَّم الله فيها قتال المشركين، فافعلوا كل ما ترونه موافقاً للمصلحة من تدابير الحرب وشئونها: اقتلوا الناقضين للعهد في كل مكان، وخُذوهم بالشدّة، واضربوا عليهم الحِصار بسدّ الطرق، واقعدوا لهم في كل سبيل فإن تابوا عن الكفر، واسملوا والتزموا بأحكام الاسلام- فلا سبيل لكم عليم، لدخولهم في دين الله؛ ان الله تعالى يغفر لهم ما سبق من الشرك والضلال، فهو واسع الرحمة بعباده)[4]، فقد أخرج البخاري عن ابن عمر، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أمرت أن أقاتل

([1]) الرازي، مفاتيح الغيب، ج 15، ص 227 .

([2]) قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج 3، ص 1599.

([3]) الشعراوي، محمد متولي، تفسير الشعراوي، ج 8، ص 4874 – 4875 .

([4]) القطان، إبراهيم، تيسير التفسير، ط 1، 1983، عمان، الأردن، ص 286 .

الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله» (1)

3.3.2 غزوة حنين 8 هجرية بعد الفتح:

حنين واد بين مكة والطائف وراء عرفات بينه وبين مكة بضعة عشر ميلاً(2)، وخرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى حنين (لست خلت من شوال وقيل لليلتين بقيتا من رمضان وقيل بأنه بدأ بالخروج في أواخر رمضان وسار سادس شوال وكان وصوله إليها في عاشره وكان السبب في ذلك أن مالك بن عوف النضري جمع القبائل من هوازن ووافقه على ذلك الثقفيون وقصدوا محاربة المسلمين فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فخرج إليهم).(3)

غزوة حنين من الغزوات التي ذكرتها السورة وفيها قاتل رسول الله أهل الكفر، وقاوم أشد الصعاب، وظهر اختلال التوازن في صفوف المؤمنين، وظهرت المفاجآت القوية من العدو، يقول تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾[التوبة: 25]، وفيها (يمتن تعالى على عباده المؤمنين، بنصره إياهم في

---

(1) البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأيمان، باب ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: 5]، حديث رقم 25، ج1، ص 14.

(2) النووي، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف (ت 676هـ)، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط2، 1392هـ، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة حنين، حنين واد بين مكة والطائف وراء عرفات، حديث رقم 1775، ج12، ص113.

(3) ابن حجر، أحمد بن علي أبو الفضل العسقلاني الشافعي، فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة، بيروت، 1379 ، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، كتاب المغازي، باب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ اعجبتكم كثرتكم إِلَى غَفُور رَحِيم﴾، حديث رقم 4314، ج8، ص 28.

مواطن كثيرة من مواطن اللقاء، ومواضع الحروب والهيجاء، حتى في يوم "حنين" الذي اشتدت عليهم فيه الأزمة، ورأوا من التخاذل والفرار، ما ضاقت عليهم به الأرض على رحبها وسعتها... وأصابهم الهم والغم، وولوا منهزمين.(1)

قصة حنين وما فيها من أزمات وأحداث عسكرية ذكرتها كتب السيرة والحديث والتفسير، وملخصها: أن النبي –صلى الله عليه وسلم– لما فتح مكة، سمع أن هوازن اجتمعوا لحربه، فسار إليهم–صلى الله عليه وسلم– في أصحابه الذين فتحوا مكة، وممن أسلم من الطلقاء من أهل مكة، فكانوا اثني عشر ألفا، والمشركون أربعة آلاف، فأعجب بعض المسلمين بكثرتهم، وقال بعضهم: لن نغلب اليوم من قلة؛ فلما التقوا هم وهوازن، حملوا على المسلمين حملة واحدة، فانهزموا لا يلوي أحد على أحد، ولم يبق مع رسول اللّه –صلى الله عليه وسلم–، إلا نحو مائة رجل، ثبتوا معه، وجعلوا يقاتلون المشركين، وجعل النبي –صلى الله عليه وسلم–، يركض بغلته نحو المشركين ويقول: "أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب"، ولما رأى من المسلمين ما رأى، أمر العباس بن عبد المطلب –رضي الله عنه– أن ينادي في الأنصار وبقية المسلمين، وكان رفيع الصوت، فناداهم: يا أصحاب السمرة(2)، يا أهل سورة البقرة... فلما سمعوا صوته، عطفوا عطفة رجل واحد، فاجتلدوا مع المشركين، فهزم اللّه المشركين، هزيمة شنيعة، واستولوا على معسكرهم ونسائهم وأموالهم.(3)

---

(1) السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ج1، ص332.

(2) (أصحاب السمرة) هي الشجرة التي بايعوا تحتها بيعة الرضوان ومعناه ناد أهل بيعة الرضوان يوم الحديبية، انظر: النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة حنين، حديث رقم 1775، ج 12، ص 113.

(3) الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج 14، ص181، والسعدي، عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان،ج1، ص 332 ، وانظر: الشوكاني، فتح القدير، ج1، ص 563–564، وانظر القصة كاملة: ابن هشام، السيرة النبوية، تهذيب عبد السلام هارون، ص261–270، والبخاري، صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب قول الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا ...﴾[التوبة: 25– 27] ،

قد واجه رسول الله –صلى الله عليه وسلم– أزمات الغزوة بكل شجاعة، وحكمة، وصبر، وثبات؛ ومما يستفاد من مواقفه فيها عليه السلام –مواقف القائد الناجح بإدارة الأزمات– في هذه الغزوة؛ دروس عظيمة منها:

1-الثبات وعدم الاضطراب، وتشجيع الفريق، والرفع من معنويات العاملين وقت الأزمات؛ بندائه إياهم : أين أهل بيعة الشجرة، أين أهل سورة البقرة.[1]

2-مكافأة المحسن: ومن ذلك أن النبي –صلى الله عليه وسلم– أعلن عن مكافأة لمن ثبت، وصمد فقال "من قتل قتيلاً فله سلبه".[2]

3-كما أنه في توزيع الغنائم بعد الانتصار في غزوة حنين، وعطايا المؤلفة قلوبهم، وإنعام رسول الله –حكمة منها– صلى الله عليه وسلم– وسياسة بعيدة لم تُفهم أول الأمر، بل أطلقت ألسنة شتى بالاعتراض؛ فهناك مؤمنون ظنوا هذا الحرمان ضرباً من الإعراض عنهم، والإهمال لأسرهم... –حيث أعطى رسول الله للمتألفين من قريش وسائر العرب، ولم يعط الأنصار شيئاً منها–، وكان الأنصار ممن وقعت عليهم مغارم هذه السياسة، وحرموا جميعاً أعطية حنين، وهم الذين نودوا وقت الشدة فطاروا يقاتلون مع رسول الله –صلى الله عليه وسلم– حتى تبدل الفرار انتصاراً ... فقد اختص رسول الله –صلى الله عليه وسلم– في هذه المعركة الذين أسلموا عام الفتح، ولم يراع في تلك القسمة قاعدة المساواة بين المقاتلين، وفي هذا دلالة على أن لإمام المسلمين أن يتصرف بما يراه مناسباً والأوفق لمصلحة الأمة دينا ودنيا[3]؛ فقد أخرج البخاري عن أنس

حديث رقم 4317، ج5، ص 153، مسلم، صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة حنين، حديث رقم 1775-1777، ج 3، ص 1398- 1402.

([1]) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج10، ص 156، وانظر: الثعالبي، عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف (ت 875 هـ)، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1997 م، ج 3، ص 172 .

([2]) البخاري، صحيح البخاري ، كتاب المغازي، باب قول الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا..﴾[التوبة: 25-27]، حديث رقم 4321، ج5، ص 154.

([3]) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، تهذيب عبدالسلام هارون، ص 274 – 279، وانظر: الغزالي، محمد، فقه السيرة، دار الكتب الحديثة، مصر، ط 6، 1965، ص 428- 430.

بن مالك رضي الله عنه، قال: لما كان يوم حنين، أقبلت هوازن وغطفان وغيرهم بنعمهم وذراريهم، ومع النبي صلى الله عليه وسلم عشرة آلاف، ومن الطلقاء، فأدبروا عنه حتى بقي وحده، فنادى يومئذ نداءين لم يخلط بينهما، التفت عن يمينه فقال: «يا معشر الأنصار» قالوا: لبيك يا رسول الله أبشر نحن معك، ثم التفت عن يساره فقال: «يا معشر الأنصار» قالوا: لبيك يا رسول الله أبشر نحن معك، وهو على بغلة بيضاء فنزل فقال: «أنا عبد الله ورسوله»، فانهزم المشركون، فأصاب يومئذ غنائم كثيرة، فقسم في المهاجرين والطلقاء ولم يعط الأنصار شيئا، فقالت الأنصار: إذا كانت شديدة فنحن ندعى، ويعطى الغنيمة غيرنا، فبلغه ذلك فجمعهم في قبة، فقال: «يا معشر الأنصار، ما حديث بلغني عنكم» فسكتوا، فقال: «يا معشر الأنصار، ألا ترضون أن يذهب الناس بالدنيا، وتذهبون برسول الله تحوزونه إلى بيوتكم» قالوا: بلى، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لو سلك الناس واديا، وسلكت الأنصار شعبا، لأخذت شعب الأنصار»)[1]؛ وهكذا بيّن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– للأنصار مكانتهم عنده وذلك بعد "المفاتحة والمعاتبة" وتمت المعالجة عن طريق التعويض بالمكافأة المعنوية...[2]، وفي اسلوب رسول الله –صلى الله عليه وسلم مع مالك بن عوف النضري–رَئِيسِ هَوَازِنَ– مِنْ قَوْمِهِ، وخصه بالعطايا، اسلوب حكيم في استمالة قلبه وقبيلته إلى الاسلام، –وهو الهدف السامي في كل شؤونه عليه السلام – في نشره الدين الإسلامي واستغلال الفرص؛ فقد قيل أن المقصود بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ عَلى مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[التوبة: 27]، أي (أنه لما انهزم مالك بن عوف سار مع ثلاثة آلاف فقال لأصحابه هل لكم أن تصيبوا من محمد مالاً قالوا نعم فأرسل إلى النبي صلى الله عليه وسلم إني أريد أن أسلم فما تعطيني فأرسل إليه النبي

([1]) البخاري، صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الطائف، ج 5، ص160، حديث رقم 4337.

([2]) للمزيد انظر: الكيلاني، عبد الله ابراهيم، ادارة الأزمة مقاربة التراث والآخر، كتاب الأمة، عدد 131، مركز البحوث والدراسات، قطر، ط 1، 2009 م، ص 123 –135 .

صلى الله عليه وسلم إني أعطيك مائة من الإبل ورعاتها فجاء فأسلم فأقام يومين أو ثلاثة فلما رأى المسلمين ورقتهم وزهدهم واجتهادهم رق لذلك فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم يا ابن عوف ألا نفي لك بما أعطيناك من الشرط فقال يا رسول الله أمثلي يأخذ على الإسلام شيئا قال فكان مالك بن عوف بعد ذلك ممن افتتح عامة[1]، ولما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم غنائم حنين بالجِعرانة[2] أتاه وفد هوازن مسلمين، راغبين في العطف عليهم والإحسان إليهم، فخيرهم بين السبي والأموال، فاختاروا السبي، فرد عليهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نساءهم وأولادهم، واستطاب أنفس الغانمين عما بيدهم من الأموال، وعوض من لم تطب نفسه بترك نصيبه من الغنائم أعواضا رضوا بها.[3]

4.3.2 غزوة تبوك في رجب سنة 9 هجرية، وفيه مسائل:

عسرة الغزوة وشدتها: وكانت في شهر رجب من سنة تسع قبل حجة الوداع بلا خلاف، وتبوك مكان معروف هو نصف طريق المدينة إلى دمشق ويقال بين المدينة وبينه أربع عشرة مرحلة، وسببها أن بلغ المسلمين من الأنباط الذين يقدمون بالزيت من الشام إلى المدينة أن الروم جمعت جموعا وأجلبت معهم من متنصرة العرب

([1]) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، تهذيب عبد السلام هارون، ص275-276، وانظر: السمرقندي، بحر العلوم، ج2، ص 50 .

([2]) الجِعرانه: "هكذا بسكون العين وخفة الراء، آبار مقتربة، منها احرم رسول الله "صلى الله عليه وآله وسلم وفيها مسجد لرسول الله " صلى الله عليه وآله وسلم". وهي مكان بين مكة والطائف، انظر: الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، جار الله (ت538هـ)، الجبال والأمكنة والمياه، المحقق: أحمد عبد التواب عوض، دار الفضيلة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1999م، ص 95، وانظر: شُرَّاب، محمد بن محمد حسن، المعالم الأثيرة في السنة والسيرة، ص 90 .

([3]) انظر: الزحيلي، التفسير المنير، ج9، ص164، أبو حيان، البحر المحيط،ج5، ص395. وانظر: ابن هشام، السيرة النبوية، تهذيب عبد السلام هارون، ص274-275.

وجاءت مقدمتهم إلى البلقاء فندب النبي صلى الله عليه وسلم الناس إلى الخروج[1]، (وتعد غزوة تبوك التي تواجه تجمع الروم على أطراف الجزيرة مع عمالهم؛ هي التي يقوم عليها محور السورة كاملة)[2]، وقد لاقى فيها المسلمون الضنك الشديد، والأزمات الصعاب، لم يعهدوها في غزواتهم مع رسول الله –صلى الله عليه وسلم– من ذي قبل، لقد تجسدت أهمية الغزوة "وهو ما زاد من خطورة الموقف" جوانب متعددة سواء من حيث عدد الجيش الإسلامي، أو بعد المسافة ووعورة الطريق، وصعوبة التجهيز، والطقس الذي ساد تلك الفترة الزمنية والمكائد التي يحيكها المنافقون والمندسون في الصفوف الإسلامية، كما كانت الأنباء تترامى إلى المدينة بإعداد الرومان للقيام بغزوة حاسمة ضد المسلمين، حتى كان الخوف يتسورهم كل حين، لا يسمعون صوتا غير معتاد إلا ويظنونه زحف الرومان[3]، وفي الجهاد ومواجهة وقتال أهل الكفر ومنهم الروم يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلا قَلِيلٌ﴾[التوبة: 38].

وهذه الآية حثٌّ من الله جل ثناؤه المؤمنين به من أصحاب رسوله على غزو الروم، وذلك غزوة رسول الله – صلى الله عليه وسلم– تبوك، فمعنى الكلام: ما لكم أيها المؤمنون، إذا قيل لكم: اخرجُوا غزاة "في سبيل الله"، أي: في جهاد أعداء الله ﴿اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ﴾، يقول: تثاقلتم إلى لزوم أرضكم ومساكنكم والجلوس فيها، فما الذي يستمتع به المتمتعون في الدنيا من عيشها ولذَّاتها في نعيم الآخرة والكرامة التي أعدَّها الله لأوليائه وأهل طاعته إلا ﴿قَلِيلٌ﴾، يسير؛ فاطلبوا، أيها المؤمنون، نعيم الآخرة، وشرف الكرامة التي عند الله لأوليائه، بطاعتِه والمسارعة إلى الإجابة إلى أمره في النفير لجهاد عدوِّه .[4]

([1]) ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة تبوك، حديث رقم 4415، ج 8، ص 111.

([2]) قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج 3، ص 1631.

([3]) انظر: المباركفوري، الرحيق المختوم، ج1، ص 395–396 .

([4]) الطبري ، جامع البيان، ج 14، ص 251–253.

وتقرير الكلام أنه تعالى ذكر في الآيات السابقة لهذه الآية من السورة أسباباً كثيرة موجبة لقتالهم، وذكر منافع كثيرة تحصل من مقاتلتهم كقوله: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾[التوبة: 14].

وذكر أقوالهم المنكرة وأعمالهم القبيحة في الدين والدنيا، وعند هذا لا يبقى للإنسان مانع من قتالهم إلا مجرد أن يخاف القتل ويحب الحياة فبين تعالى أن هذا المانع خسيس لأن سعادة الدنيا بالنسبة إلى سعادة الآخرة كالقطرة في البحر، وترك الخير الكثير لأجل الشر القليل جهل وسفه(1)، ثم أدخلهم في أزمة أخرى إن لم يمتثلوا أوامر الله تعالى بقوله: ﴿إِلا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[التوبة: 39] فقوله تعالى: ﴿إِلا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في الدنيا والآخرة، فإن عدم النفير في حال الاستنفار من كبائر الذنوب الموجبة لأشد العقاب، لما فيها من المضار الشديدة، فإن المتخلف، قد عصى اللّه تعالى وارتكب لنهيه، ولم يساعد على نصر دين اللّه، ولا ذب عن كتاب اللّه وشرعه، ولا أعان إخوانه المسلمين على عدوهم الذي يريد أن يستأصلهم ويمحق دينهم، وربما اقتدى به غيره من ضعفاء الإيمان، بل ربما فَتَّ في أعضاد من قاموا بجهاد أعداء اللّه، فحقيق بمن هذا حاله أن يتوعده اللّه بالوعيد الشديد، فقال: ﴿إِلا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ ثم لا يكونوا أمثالكم ﴿وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾ فإنه تعالى متكفل بنصر دينه وإعلاء كلمته، فسواء امتثلتم لأمر اللّه، أو ألقيتموه، وراءكم ظهريا، ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يعجزه شيء أراده، ولا يغالبه أحد(2) والخطاب لقوم معينين في موقف معين، ولكنه عام في مدلوله لكل ذوي عقيدة في الله، والعذاب الذي يتهددهم ليس عذاب الآخرة وحده، فهو كذلك عذاب الدنيا؛ عذاب الذلة التي تصيب القاعدين عن الجهاد والكفاح، والغلبة عليهم للأعداء، والحرمان من الخيرات واستغلالها للمعادين؛ وهم مع ذلك كله يخسرون من النفوس والأموال أضعاف ما يخسرون في الكفاح والجهاد؛ ويقدمون على مذبح الذل أضعاف ما تتطلبه منهم الكرامة لو قدموا لها الفداء، وما من أمة تركت الجهاد إلا ضرب الله عليها الذل، فدفعت مرغمة صاغرة

---

(1) الرازي، تفسير الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، ج 15، ص 61 .

(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ج 1، ص337 .

لأعدائها أضعاف ما كان يتطلبه منها كفاح الأعداء[1]؛ وقد كانت غزوة تبوك من أشد وأصعب الغزوات على رسول الله عليه السلام وصحابته الكرام، ومما دل على أنها كانت في زمن عسرة وشدة وصعاب، وتكوّن أزمات أمور منها:

1-ما ورد في سبب نزول هذه الآية :

أنها نزلت في الحث على غزوة تبوك، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما رجع من الطائف أمر بالجهاد لغزوة الروم، وكان ذلك في زمان عسرة من الناس، وشدة من الحر، حين طابت الثمار والظلال، ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد غزوة إلا ورَّى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة، غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم في حَرٍّ شديد، واستقبل سفرا بعيدا، ومفاوز هائلة، وعدوًا كثيرًا، فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوهم، فشقّ عليهم الخروج وتثاقلوا فأنزل الله تعالى هذه الآية.[2]

2-أن الله تعالى سماها ساعة العسرة: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾[التوبة: 117].

أي في وقت العسرة، ولم يرد ساعة بعينها، وكانت غزوة تبوك تسمى غزوة العسرة، والجيش يسمى جيش العسرة. والعسرة: الشدة، وكانت عليهم غزوة عسرة في الظَّهر والزاد والماء[3]. (ويجوز أن يريد بساعة العسرة الساعة التي وقع فيها عزمهم وانقيادهم لتحمل المشقة، إذ السفرة كلها تبع لتلك الساعة وبها، وفيها يقع الأجر على الله وترتبط النية).[4]

([1]) قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج 3، ص 1655.

([2]) الواحدي، أسباب النزول، باب رقم 243، ص250-251، وانظر: الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج 14، ص 253، والبغوي، معالم التنزيل، ج 4، ص 48.

([3]) البغوي، معالم التنزيل، ج 4، ص 104، وانظر سبب التسمية: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 10، ص 196.

([4]) أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف، (ت 745 هـ)، البحر المحيط، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1993، ج 5، ص111 .

فكانت هذه الغزوة في وقت الشدة والضيق، فقد روي: أنهم كانوا في شدة من الظهر يعتقب العشرة على بعير واحد، وفي شدة من الزاد تزودوا التمر المدود والشعير المسوس والاهالة الزنخة، وبلغت بهم الشدة أن قسم التمرة اثنان، وربما مصها الجماعة ليشربوا عليها الماء، وفي شدة من الماء حتى نحروا الإبل واعتصروا فروثها، وفي شدة زمان من حَمَارَّة القيظ ومن الجدب والقحط، ومن هنا قيل لتلك الغزوة غزوة العسرة ولجيشها جيش العسرة ... [1] .

3-التعب والعطش والجوع: في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلا إِلا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[التوبة: 120]، والظمأ: وهو العطش الشديد، وقد أصابهم في جيش العسرة بشكلٍ ملحوظ؛ لدرجة أن المقاتل كان يذبح البعير، ويصفي الماء الذي في معدته ليبل ريقه، وريق زملائه؛ والنصب: هو التعب، وكانت الغزوة في جو حار مرهق، والمخمصة: المجاعة، وقد كانوا يأكلون التمر الذي أصابه الدود، والشعير الذي انتشر فيه السوس...[2]، كما مر سابقاً.

4-ذكر الله تعالى بعض الصعاب والأزمات في الغزوة مما واجه رسول الله- صلى الله عليه وسلم- وصحابته الكرام، وذلك من المنافقين- وهم أكبر جبهة ذكرت في السورة سببت أزمات خانقة للمسلمين وخاصة في هذه الغزوة- مثل تخلفهم بسبب الحر الشديد، وبعد المسافة، وغيرها...؛ من خلال آيات السورة مثل قوله تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾[التوبة:81]، وذلك أن النبي-صلى الله عليه وسلم-استنفرهم إلى هذه

([1]) انظر: الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج14، ص541، وانظر: ابن هشام، السيرة النبوية، تهذيب عبد السلام هارون، ص 285، وانظر: رضا، محمد رشيد، المنار، ج 10، ص 423-425.

([2]) انظر: الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج 14، ص 565، الشعراوي، محمد متولي، تفسير الشعراوي، ج 9، 5565 .

الغزوة، وهي غزوة تبوك، في حرّ شديدٍ، فقال المنافقون بعضهم لبعض:﴿لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾،فقال الله لنبيه محمد–صلى الله عليه وسلم–: ﴿قُلْ﴾ لهم، يا محمد أن ﴿نَارُ جَهَنَّمَ﴾، التي أعدّها الله لمن خالف أمره وعصى رسوله ﴿أَشَدُّ حَرًّا﴾، من هذا الحرّ الذي تتواصون بينكم أن لا تنفروا فيه...[1]، وقال تعالى أيضاً في المنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[التوبة: 42]. فمن الصعاب في هذه الغزوة: بعد الشقة: وهي المسافة البعيدة، والمشقة الطويلة، والرحلة ذات الأهوال والتضحيات: والمقصود الشام[2]. كما أن الآيات التي أنزلها الله تعالى في كتابه– متعلقة بغزوة العسرة– هي أطول ما نزل في قتال بين المسلمين وخصومهم.[3]

سأتحدث فيما بعد ان شاء الله عن صفات المنافقين الواردة في السورة؛ ضمن أزمة النفاق .

5–القلة في العدد، والعدة أثناء الغزوة: واجه رسول الله صلى الله عليه وسلم قلة في العدد في مواجهته للروم في تبوك؛ مقابل أن أعداد العدو كثيرة جداً، يقول ابن هشام في ذلك:

(... وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قلما يخرج في غزوة إلا كنى عنها، وأخبر أنه يريد غير الوجه الذي يصمد له، إلا ما كان من غزوة تبوك، فإنه بينها للناس، لبعد الشقة، وشدة الزمان، وكثرة العدو الذي يصمد له، ليتأهب الناس لذلك أهبته، فأمر الناس بالجهاز، وأخبرهم أنه يريد الروم...).[4]

([1]) الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج 14، ص 399، الواحدي، أسباب النزول، باب رقم 243 ، ص 250 –251.

([2]) انظر: الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج 14، ص 271، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم،ج2، ص396، الشعراوي، محمد متولي، تفسير الشعراوي،ج8، ص5144.

([3]) الغزالي، محمد، فقه السيرة، ص 437.

([4]) ابن هشام، السيرة النبوية، تهذيب عبد السلام هارون، ص 286 .

وسبب هذه القلة وهذه الأزمة عدة أمور منها:

أولاً: القلة في العدد بسبب المرض والضعف، يقول تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَى وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[التوبة: 91].

﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ﴾ كالشيوخ ومن فيه نحافة خلقية لا يقوى على الخروج، وَلاَ على من عراه سقم واضطراب طبيعة سواء كان مما يزول بسرعة ككثير من الأمراض أولا كالزمانة وعدوا منه ما لا يزول كالعمى والعرج الخلقيين، ولا على الفقراء العاجزين عن أهبة السفر والجهاد ﴿حَرَجٌ﴾ أي ذنب في التخلف وأصله الضيق ﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ بالإيمان والطاعة ظاهراً وباطناً.[1]

ثم يقول الله تعالى لرسوله الكريم: لا تغتر بما أعطاهم اللّه في الدنيا من الأموال والأولاد، فليس ذلك لكرامتهم عليه، وإنما ذلك إهانة منه لهم، يتعبون في تحصيلها، ويخافون من زوالها، ولا يهنئون بها؛ بل لا يزالون يعانون الشدائد والمشاق فيها، وتلهيهم عن اللّه والدار الآخرة، حتى ينتقلوا من الدنيا قد سلبهم حبها عن كل شيء، فماتوا...[2]، ويقول تعالى في ذلك: ﴿فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾[التوبة : 55] .

ويقول أيضاً: ﴿وَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ*وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آَمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾[التوبة: 85 ، 86].

ثانياً: المتخلفون عن رسول الله–صلى الله عليه وسلم– "وقد تحدثنا سابقاً عن المتخلفين في الغزوة" ضمن عوائق الجهاد.

ثالثاً: القلة في العدد بسبب الفقر والحاجة، قال تعالى: ﴿وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾[التوبة: 92] .

([1]) انظر: الألوسي، روح المعاني، مجلد 4، ج5، ص345–346 .

([2]) السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ج1، ص347 .

وهم الذين يبكون حزناً على أنهم لا يجدون ما ينفقون من الفقر والحاجة ، وما يتحمَّلون به للجهادِ في سبيل الله؛ فهؤلاء لا حرج ولا مسؤولية عليهم مع أنهم قادرين جسمياً على الغزو والجهاد، لكنّهم لا يجدون الرواحِلَ التي تحمِلُهم الى أرض المعركة، فإذا جاءوك يطلبون منك العون لتؤمن لهم ما يركبون لم تجد أنت أيضاً ما تحمِلُهم عليه، انصرفوا من عندك وهم يبكون، لأنهم حُرموا من الجهاد ولم يجدوا ما يُعينهم عليه(1)، و(هؤلاء هم البكّاؤن نزلت فيهم الآية وهم سبعة أشخاص: معقل بن يسار وصخر بن خنيس وعبد الله بن كعب الأنصاري وسالم بن عمير وثعلبة بن غنمة وعبد الله بن مغفل، أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا نبي الله إن الله عز وجل قد ندبنا للخروج معك، فاحملنا على الخفاف المرفوعة والنعال المخصوفة نغزو معك، فقال: لا أجد ما أحملكم عليه، فتولوا وهم يبكون).(2)

ولكن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– ربّى صحابته الكرام على التضحية وحل الأزمات ومواجهة الصعاب، فأدار هذه المشكلة وحلها بحكمة وسياسة، فشجعهم على الإنفاق في سبيل الله تعالى، بالقليل والكثير في هذه الغزوة وغيرها لتدارك القلة في العدد والعدة؛ فأنفق من الصحابة الكثير في جيش العسرة مثل: الصحابي عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو بكر الصديق، وأبو خيثمة الأنصاري... وغيرهم – رضوان الله تعالى عليهم جميعا –.(3)

يقول تعالى: ﴿وَلا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[التوبة: 121]؛ فهؤلاء الغزاة في سبيل الله تعالى لا ينفقون من أموالهم قليلاً ولا كثيراً، ولا ساروا إلى أعدائهم؛ إلا جزاهم الله أحسن ما

---

(1) انظر: الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج 14، ص421–423، والقطان، إبراهيم القطان، تيسير التفسير، ص 346 .

(2) الواحدي، أسباب النزول، باب رقم 255، ص 262.

(3) الواحدي، أسباب النزول، باب رقم 78، ص 89، وانظر: الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج 14، ص 549، وانظر: فهد بن ناجي الشلوي، دور التربية الإسلامية في مواجهة الأزمات من خلال السيرة النبوية، رسالة ماجستير، أم القرى، 1428هـ، ص97–100.

كانوا يعملون، وقد حصل لأمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه من هذه الآية الكريمة حظٌ وافرٌ ونصيبٌ عظيمٌ...[1] ومما دل على الصعوبات التي واجهها عليه السلام وصحابته الكرام في السفر؛ بُعد المسافة، وأنه كان يجمع في الصلاة، يقول الواقدي: (وكان في حر شديد، وكان يجمع من يوم نزل ذا خشب بين الظهر والعصر في منزله، يؤخر الظهر حتى يبرد، ويعجل العصر، ثم يجمع بينهما، فكل ذلك فعله حتى رجع من تبوك، وكانت مساجده في سفره إلى تبوك معروفة، صَلّى بستة عشر مسجداً[2]. لقد أصرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قتال الروم مع كل هذه الصعوبات لأنه ينظر إلى الظروف والتطورات بنظر أدق وأحكم من هذا كله، إنه كان يرى أنه لو توانى وتكاسل عن غزو الرومان في هذه الظروف الحاسمة، وترك الرومان تزحف إلى المدينة؛ كان له أسوأ أثر على الدعوة الإسلامية، وعلى سمعة المسلمين العسكرية، فالجاهلية ستحيا مرة أخرى، والمنافقون الذي يتربصون الدوائر بالمسلمين، سيبعجون بطون المسلمين بخناجرهم من الخلف، في حين تهجم الرومان بحملة ضارية ضد المسلمين من الأمام، وهكذا يخفق كثير من الجهود التي بذلها؛ ولذلك قرر القيام- مع ما كان فيه من العسرة والشدة- بغزوة فاصلة يخوضها المسلمون ضد الرومان في حدودهم، ولا يمهلونهم حتى يزحفوا إلى دار الإسلام.[3]

4.2 الأزمة الاقتصادية:

وتعرّف الأزمة الاقتصادية بأنها: (الانقطاع المفاجيء في مسيرة المنظومة الاقتصادية مما يهدد سلامة الأداء المعتاد)[4] وهذا التهديد يؤثر على الحياة في المجتمع من جميع جوانبه، فأزمة الاقتصاد متداخلة مع أزمات مختلفة في الدولة عقدية

---

(1) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج2، ص 439 .

(2) للمزيد انظر: الواقدي، محمد بن عمر بن واقد السهمي الأسلمي بالولاء، المدني، أبو عبد الله، (ت 207هـ)، المغازي، تحقيق: مارسدن جونس، دار الأعلمي، بيروت، الطبعة الثالثة، 1989م، ج3، ص 999 .

(3) انظر: المباركفوري، الرحيق المختوم، ص 396-397 .

(4) عبوي، زيد منير، إدارة الأزمات، ص 19.

وسياسية وعسكرية وصحية وتربوية واجتماعية وغيرها، فالإسلام نظام شامل متكامل، لا يمكن معالجة مشكلة من مشاكله بالانفصال عن المشاكل الأخرى في الدولة، ولابد لأي دولة لنجاح أهدافها من اقتصاد قوي يدعم أركانها...(كما أن في الاقتصاد الإسلامي موضوعين رئيسيين يجب أن يدرسا ويخدما ويجليا من كل جوانبهما: وهما موضوعان متقابلان، أحدها في الجانب الإيجابي، والثاني في الجانب السلبي، أحدها في فرائض الإسلام بل في أركانه الأساسية الخمسة، والآخر في محرمات الإسلام بل في الكبائر الموبقات السبع، فالأول هو الزكاة –وهو ما عالجته سورة براءة بشيء من التفصيل–، والثاني هو الربا، فمن أنكر فرضية الأول، أو حرمة الثاني كان كافراً مرتداً)[1] . لذلك فالزكاة عبادة وهي في نفس الوقت ركن أساسي من أركان الاقتصاد في الدولة، ومصدر رئيسي من مصادر تمويل الجهاد لتحقيق العزة السياسية، وحماية العقيدة... وغيرها .

وعن هذا الموضوع وغيره مما ذكر في السورة عن هذه الأزمة سأجمل كلامي في أربعة مطالب:

المطلب الأول: الفساد المالي .

المطلب الثاني: الفقر .

المطلب الثالث: الموارد الاقتصادية .

المطلب الرابع : التعبئة الاقتصادية في تمويل الغزوات .

1.4.2 أزمة الفساد المالي:

لقد وضع الإسلام للمال قواعداً وأحكاماً، تجعل فيه الأداة الأولى التي تحقق الرفاهية للكيان، وتُبعده أن يكون سبباً يترتب عليه حدوث الأزمات، فبيّن معاملاته، ونظَّمها وبيّن كيفية جمعه وتوزيعه بالعدل، ومنع الاعتداء عليه، وأكله بالباطل، وحرص على الدعوة إلى العمل، ووضّح غيرها من الأحكام والقواعد التي هدفها الأول والأخير تحقيق سعادة ورفاهية الكيان.[2]

([1]) انظر القرضاوي، يوسف، فقه الزكاة، مؤسسة الرسالة، ط 16، 1986، ج 1، ص9.

([2]) شقرة ، محمد عاصم، نحو أنموذج إسلامي لإدارة الأزمات، ص81-82 .

وتحدثت هذه السورة عن بعض أسباب الفساد المالي ، ووضعت القواعد لمنع الجشع ومنها: أكل أموال الناس بالباطل، وكنز الذهب والفضة.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[التوبة: 34].

أما أكل أموال الناس بالباطل من علماء اليهود، وعبّاد النصارى: فهي أزمة سببها رجال الدين من أهل الكتاب؛ أزمة اقتصادية لها عميق الأثر في الدولة الإسلامية بجميع جوانبها، كما مر معنا في المبحث الأول من هذا الفصل، وفي هذا البيان لأهل الإيمان (التحذير من علماء السوء وعباد الضلال... الذين يأكلون الدنيا بالدين ومناصبهم ورياستهم في الناس يأكلون أموالهم بذلك كما كان لأحبار اليهود على أهل الجاهلية شرف، ولهم عندهم خرج وهدايا وضرائب تجيء إليهم... فأطفأها الله بنور النبوة وسلبهم إياها وعوضهم الذل والصغار وباءوا بغضب من الله)[1]؛ وقد نزلت هذه الآية في العلماء والقراء من أهل الكتاب، كانوا يأخذون الرشا من سِفلتهم، وهي المآكل التي كانوا يصيبونها من عوامهم [2]

وأكلهم أموال الناس، هي بأسرها حاضرة في زماننا، وهو الطريق لأكثر الجهال والمزورين إلى أخذ أموال العوام من الخلق، وكان يتمثل في صور شتى وما يزال: منها ما يأخذونه على فتاوى تحليل الحرام وتحريم الحلال لصالح من يملكون المال أو السلطان، ومنها ما يأخذه القسيس أو الكاهن مقابل الاعتراف له بالخطايا وغفرانه، ومنها الربا –وهو أوسع أبوابها وأبشعها–، كذلك ما يجمعونه من أموال الناس لمحاربة دين الحق؛ وقد كان الرهبان والأساقفة والكرادلة والبابوات يجمعون مئات الملايين في الحروب الصليبية، وما يزالون يجمعونها للتبشير والاستشراق للصد عن سبيل الله[3]؛

([1]) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ، ج 2، ص 386.

([2]) الواحدي، أسباب النزول، باب 241، ص 249.

([3]) انظر: الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج 14، ص 216، قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج3، ص1645، وانظر صور الباطل المختلفة: الرازي، تفسير الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، ج15، ص43–44، والمراغي، أحمد بن مصطفى المراغي (ت 1371هـ)،

فبين الله تعالى سلوكهم وسيرتهم المالية؛ ليكشف لأهل الكتاب عن خطئهم في اتخاذهم أرباباً، والاقتداء بهم، وليعلم المسلمون السر في عنادهم وكفرهم ، وأنهم يريدون إطفاء هذا النور.[1]

ومنها: البخل وكنز الذهب والفضة؛ وهي حبس الأموال عن التداول، وكنزه في الصناديق والخزائن، مما يؤدي إلى اختلال التوازن المالي والتجاري والاقتصادي، وبالتالي إلى اختلال التوازن الاجتماعي، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[التوبة: 34]... فحبس الأموال –إن كان سببه البخل والتقتير– فقد ندّد الله سبحانه بالبخلاء والمقترين ، قال تعالى: ﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ [الإسراء: 29]، وإن كان سببه التهرب من الإنفاق في سبيل الله.. أي في سبيل حماية المجتمع ومصالحه، فأحرى به أن يحارب ويعاقب عليه)[2]، وكنز الأموال يعد أزمة اقتصادية، مالية خانقة، خاصة بالقسم الثالث من رؤوس الناس؛ فإن الناس عالة على العلماء وعلى العباد، وعلى أرباب الأموال؛ فإذا فسدت أحوال هؤلاء فسدت أحوال الناس...[3] .

والأموال المكنوزة: وهي الأموال التي لم تؤدّ زكاتها، ولم يخرج حق الله منها، وخصت "الذهب والفضة" بالذكر من بين سائر الأموال؛ لأنهما الأصل المعتبر في الأموال وهما اللذان يقصدان بالكنز[4]، وهما أساس الاقتصاد الدنيوي، والأساس في

تفسير المراغي، مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي، بمصر، ط1، 1946 م، ج10، ص108–110.

([1]) حجازي، محمد محمود، التفسير الواضح، دار الجيل، القاهرة، ط 5، 1970، ج10، ص47 .

([2]) انظر: الرافعي، مصطفى، الإسلام ومشكلات العصر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط2، 1981، ص 86 .

([3]) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج 2، ص386 .

([4]) انظر: الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج 14، ص 217–219، الرازي، مفاتيح الغيب، ج 15، ص 46–49

النقد والتجارة، وفي تسيير حركة العالم الاقتصادي، والله سبحانه وتعالى هنا لا يريد من المال أن يكون راكداً، ولكنه يريده متحركاً ولو كان في أيدي الكافرين؛ لأنه إذا تحرك أفاد الناس جميعاً فيحدث بيع وشراء وإنتاج للسلع وإنشاء للمصانع، وتشغيل للأيدي العاملة إلى غير ذلك، ولكن إن كنز كل واحد منا ماله فلم يستثمره في حركة الحياة، فالسلع لن تستهلك، والمصانع سوف تتوقف، ويتعطل الناس عن العمل.[1]

ولقبح صنيع هؤلاء بشرهم الله تعالى بالعذاب الأليم بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنزتُمْ لأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنزونَ﴾[التوبة: 35]، أي أن النار توقد عليها وهي ذات حمى وحرّ شديد وخص الجباه، والجنوب والظهور؛ لكون التألم بكيها أشدّ لما في داخلها من الأعضاء الشريفة، وقيل: ليكون الكيّ في الجهات الأربع، وقيل: لأن الجمال في الوجه، والقوّة: في الظهر والجنبين، والإنسان إنما يطلب المال للجمال والقوّة ، ثم يقال لهم ﴿هَذَا مَا كَنزتُمْ لأَنْفُسِكُمْ﴾: أي كنزتموه لتنتفعوا به، فهذا نفعه على طريقة التهكم والتوبيخ ﴿فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ أي ذوقوا وباله، وسوء عاقبته، وقبح مغبته، وشؤم فائدته[2]، وذلك لما في الكنز من تعطيل للنفقات الواجبة المستمرة كالزكاة، أو النفقات الواجبة العارضة كالنفقة في الحج، أو النفقة في نوائب المسلمين... وغيرها[3]، وفي هذه الآيات ذمٌ للبخل والبخلاء الذين يعطلون الحياة الاقتصادية، ويزيدون من خطر الفقر والحاجة على المجتمع؛ سواء كانوا من أهل الكتاب، أو من المؤمنين وقيل إن هذه الآيات نزلت عامة؛ في أهل الكتاب والمسلمين: فقد أخرج البخاري في صحيحه عن زيد بن وهب، قال: مررت بالربذة[4] فإذا أنا بأبي ذر رضي الله عنه، فقلت له: ما أنزلك منزلك

([1]) الشعراوي، محمد متولي، تفسير الشعراوي، ج8، ص 5060، وانظر: الرافعي، مصطفى، الإسلام ومشكلات العصر، ص 193.

([2]) الشوكاني، فتح القدير، ج1، ص 569 .

([3]) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 10، ص 178 .

([4]) الربذة : من قرى المدينة، على ثلاثة أميال منها قريبة من ذات عرق، على طريق الحجاز إذا رحلت من فيد تريد مكّة، بها قبر أبى ذرّ، خربت في سنة تسع عشرة وثلاثمائة بالقرامطة، انظر: ابن شمائل، عبد المؤمن بن عبد الحق، القطيعي البغدادي الحنبلي صفيّ

هذا؟ قال: "كنت بالشأم، فاختلفت أنا ومعاوية في: ﴿الَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالفِضَّةَ وَلاَ يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾[التوبة: 34] "قال معاوية: نزلت في أهل الكتاب، فقلت:" نزلت فينا وفيهم، فكان بيني وبينه في ذاك..."[1]، (ويقرن بين المسلمين وبين المرتشين من اليهود والنصارى، تغليظاً ودلالة على أن من يأخذ منهم السحت ومن لا يعطي منكم طيب ماله : سواء في استحقاق البشارة بالعذاب الأليم).[2]

فهي أزمات وشدائد قوية عليهم وعلى غيرهم: فمن بخل بالقليل من ملكه فقد سد على نفسه باب نجاته وفتح عليها طريق هلاكه؛ ولا يخفى أن جمع المال وكنزه وعدم الإنفاق لا يكون الا لاستحكام رذيلة الشح وكل رذيلة كية يعذب بها صاحبها في الآخرة ويخزى بها في الدنيا.[3]

فالذين يجمعون الأموالَ من جميع أصنافها ويكنزونها في خزائنهم، ولا ينفقون منها في سبيل الله بأن يُخرجوا زكاتها، ويتصدّقوا منها –فهؤلاء أنذرهم الله –تعالى– وبشرهم بالعذاب الشديد[4]، وقد وردت روايات صحيحة عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– في تغليظ العذاب يوم القيامة على من يكنز الأموال، ولا ينفقها في سبيل الله تعالى منها ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من آتاه الله مالا، فلم يؤد زكاته مثل له ماله يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة، ثم يأخذ بلهزمتيه –يعني بشدقيه– ثم يقول أنا مالك أنا كنزك[5]، كما أن الأولى لطالب الدين ألّا يجمع المال الكثير، وإن لم يُمنع عنه في ظاهر الشرع؛

الدين (ت 739هـ)، مراصد الاطلاع على اسماء الامكنة والبقاع، دار الجيل، بيروت ط1، 1412 هـ، ج2، ص 601.

(1) البخاري، صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب ما أُدي زكاته فليس بكنز، حديث رقم 1406، ج2، ص 107، وانظر: الواحدي، أسباب النزول، باب 242، ص249–250.

(2) الزمخشري، الكشاف، ج 2، ص 187.

(3) الألوسي، روح المعاني، مجلد 4، ج 5، ص 296 .

(4) انظر: رضا، محمد رشيد، المنار، ج 10، ص 402 – 403 .

(5) انظر: البخاري، صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب إثم مانع الزكاة ، حديث رقم 1403، ج2، ص 106، وانظر: صحيح مسلم، مسلم ، كتاب الزكاة، باب إثم مانع الزكاة، حديث رقم 987، ج2، ص 682 .

لأنه أقرب للتقوى، ولأن تكثير المال سبب لتكثير الحرص في الطلب، والحرص متعب للروح والنفس والقلب، وضرره شديد على النفس، ولأن كسب المال شاق شديد، وحفظه بعد حصوله أشد وأشق وأصعب، ولأن كثرة المال والجاه تورث الطغيان، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى* أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى﴾[العلق: 6، 7]، ولأنه تعالى أوجب الزكاة وذلك سعي في تنقيص المال، ولو كان تكثيره فضيلة لما سعى الشرع في تنقيصه...[1]

وقد ذم الله تعالى البخل في هذه السورة أيضاً عند أهل النفاق الذين بخلوا بما أعطاهم الله من مال فقال: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ*فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾[التوبة: 76/75]، أي أنه من المنافقين من عاهد الله لئن أنعم الله عليه ورزقه، ليبذلن الصدقة، وليصلحن العمل، ولكن هذا العهد إنما كان في وقت فقره وعسرته، في وقت الرجاء والطمع؛ فلما أن استجاب الله له ورزقه من فضله نسي عهده، وتنكر لوعده، وأدركه الشح والبخل فقبض يده، وتولى معرضاً عن الوفاء بما عاهد والنفس البشرية ضعيفة شحيحة، إلا من عصم الله؛ ولا تطهر من هذا الشح إلا أن تعمر بالإيمان...[2] . ويوجد مثلهم في كل زمان ومكان، وهم الذين يلجئون إلى الله تعالى في وقت العسرة والفقر، أو الشدة والضر، فيدعونه ويعاهدونه على الشكر له والطاعة لشرعه، إذا هو كشف ضرهم وأغنى فقرهم، فإذا استجاب لهم نكسوا على رؤوسهم، وكفروا النعمة، وبطروا الحق.[3]

2.4.2 الفقر:

واجه رسول الله وصحابته الكرام ضنك العيش وضيقه من بداية الدعوة الإسلامية، وفي عهديه المكي والمدني؛ وتعتبر ظاهرة الفقر ظاهرة مؤثرة اجتماعيا

([1]) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ج 15، ص47، الزحيلي، وهبة، التفسير المنير، ج9، ص197 .

([2]) قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج3، ص 1679، وانظر سبب النزول: الواحدي، أسباب النزول ، باب 252 ، ص 257 -259 .

([3]) رضا، محمد رشيد، المنار، ج 10، ص 558 .

واقتصادياً في جميع الشعوب والدول، وفي كل زمان ومكان؛ إلا أن الإسلام وضع الحلول الجوهرية لهذه الأزمة؛ وهو نظام شامل متكامل، لا يمكن مواجهة وحل أزمة من أزماته بمعزل عن النظم الفرعية، وبما أن أزمة الفقر من الأزمات الاقتصادية المتداخلة في أسبابها ونتائجها مع أزمات أخرى "اجتماعية، فكرية، عقدية، سياسية... وغيرها" فقد وضع لها الإسلام حلولا من جميع الجوانب، وفي سورة التوبة بين القرآن الكريم بعض جوانب هذه الأزمة، وحلولها:

فعندما أمر الله تعالى المؤمنين بمنع المشركين من دخول البيت الحرام، ولأن المؤمنين خافوا بانقطاع المشركين عن دخول الحرم، انقطاع تجاراتهم، ودخول ضرر عليهم بانقطاع ذلك؛ أمَّنهم الله وقال لهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 28]، والعيلة هي: الخصلة الشاقة، يقال عالني الأمر يعولني: أي شقّ عليّ واشتدّ[1]، وقوله وإن خفتم "عَيْلَةً " أي فاقَةً وفقراً، بمنع المشركين من أن يقربوا المسجد الحرام ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾؛ فعوَّضهم مما كانوا يكرهون انقطاعه عنهم، ما هو خير لهم منه، وهو الجزية، وقيل : الفيء، وقال قوم: بإدرار المطر عليهم، وقيل: أسلم أهل تبالة[2] وجرش[3]، فحملوا إلى مكة الطعام وما يعاش، وقيل: أن الله أغناهم بعد نحو ثلاث سنين–من كنوز كسرى وقيصر– غنى لم يطرق أوهامهم قط، ثم جعل ذلك سبباً لاختلاط بعض الطوائف من جميع الناس ببعض لصيرورتهم إخواناً في الدين الذي كان سبباً لأن يجتمع في سوق منى وغيره في

([1]) الشوكاني، فتح القدير، ج1، ص565 .

([2]) تبالة: موضع على طريق اليمن للخارج من مكة، كثير الخصب، له ذكر كثير في الأخبار والأمثال والأشعار، انظر: الهمداني، أبو بكر محمد بن موسى بن عثمان الحازمي زين الدين (ت 584هـ)، الأماكن أو ما اتفق لفظه وافترق مسماه من الأمكنة، المحقق: حمد بن محمد الجاسر، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، 1415هـ، ج1، ص 153.

([3]) جرش: مدينة في اليمن، بضم الجيم وفتح الراء وآخره شين معجمة: وقيل مخلاف من مخاليف اليمن تنسب إليه جماعة من أهل العلم، انظر: المرجع السابق، ج1، ص 199.

أيام الحج كل عام من المتاجر مع الغرب والعجم ما لا يكون مثله في بقعة من الأرض، وغيرها...[1]

ثم يبين الله تعالى في هذه السورة أن بعض المسلمين كانوا يعانون من مشكلة الفقر وقلة الحال والحاجة، وذلك من خلال عرضه لأحداث غزوة تبوك: يقول تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَى وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ * إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[التوبة: 91 / 92 / 93]، و﴿الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ﴾ هم: الفقراء العاجزون عن أهبة السفر والجهاد، والسبب الرئيس في عدم خروجهم للجهاد مع رسول الله –صلى الله عليه وسلم–هو الفقر والقلة والحاجة.[2]

ولكن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– بحكمته، وبكونه نبي مرسل استطاع تخطي هذه الشدة، وتمويل غزواته وقت الأزمات الاقتصادية؛ ففي غزوة تبوك "والتي كانت في زمان عسرة شديدة، وجدب وفقر؛ كما مرّ سابقاً "شجّع أصحابه على الصدقة والنفقة في الجهاد، وأنه صلى الله عليه وسلم جد في سفره هذا، (وأمر الناس بالجهاز والانكماش، وحض أهل الغنى على النفقة والحملان في سبيل الله، فحمل رجال من أهل الغنى واحتسبوا، وأنفق عثمان بن عفان في ذلك نفقة عظيمة، لم ينفق أحد مثلها).[3]

([1]) انظر: الطبري، جامع البيان، ج 14، ص 190–197، والرازي، مفاتيح الغيب، ج 15، ص 28، الزمخشري، الكشاف، ج 2، ص 184 ، وانظر: البقاعي، نظم الدرر، ج8، ص433 –434 .

([2]) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج2، ص 419، والألوسي، روح المعاني، مجلد4، ج 5، ص 346 .

([3]) ابن هشام، السيرة النبوية، تهذيب عبد السلام هارون، ص 286–287

وفي معالجة رسول الله –صلى الله عليه وسلم– للأزمة الناشئة بعد توزيع الغنائم في أعقاب حنين، وخصه الفقراء من المهاجرين الدروس والعبر لكل قائد ناجح "ذكرنا بعض هذه العبر سابقاً أثناء الحديث عن غزوة حنين".[1]

وقد بيّن الله تعالى في هذه السورة غنى المنافقين وكثرة أموالهم، مقارنةً بالمسلمين وقلة حالهم يقول تعالى مخاطباً نبيه الكريم: ﴿فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾[التوبة: 55] فأموالهم وأولادهم هذه مصائب وفتن وعذاب لهم، وأزمات عليهم لا خير ولا سعادة لهم، وهي نقمة يصابون بها، فالقلق على الأموال والأولاد، يحول حياتهم جحيماً في الدنيا، وفي الآخرة عذاب لهم، وهذه كلها من أسباب الكرب والبلاء في الدنيا والآخرة، وما يحسد أحد على هذه المظاهر التي تحمل في طياتها الأزمات الشداد، وفي المقابل هي ثواب وأجر للمؤمنين[2] وقد حث الله تعالى في آيات عدة من السورة على وجوب أداء الزكاة والنفقة في سبيل الله تعالى[3]، لأهداف عدة منها؛ إحداث الاتزان الاقتصادي في الدولة، وحل كثير من المشكلات والأزمات .

3.4.2 أزمة الموارد المالية في الدولة:

إن أشد الأزمات قوةً في الدولة هي ما يُمكن أن يُصاب به الكيان من خلل أو نقص في موارده الاقتصادية، وهو من أهم مؤشرات الأزمات الاقتصادية [4]، وفي هذه السورة كانت أزمة الموارد الاقتصادية واضحة، وتتمثل بأمور منها: تحديد قواعد الصدقات و الزكاة، الغرامة، الجزية.

واجه رسول الله –صلى الله عليه وسلم– الأذى من طائفة من المنافقين عند توزيعه للغنائم وأموال الزكاة، واتهموه بعدم العدل في عدة مواقف ذكرتها كتب الحديث

([1]) انظر تقسيم رسول الله للغنائم: ابن هشام، السيرة النبوية، تهذيب عبد السلام هارون، ص278–279، عائشة عبد الرحمن "بنت الشاطيء"، مع المصطفى، ص301– 304 .

([2]) انظر: الطبري، جامع البيان، ج14، ص 444، وانظر: قطب، سيد، ج3، ص1666.

([3]) ومن هذه الآيات [18/11 /121/11/103/88/71/41 : التوبة] .

([4]) شقرة ، محمد عاصم، نحو أنموذج اسلامي لإدارة الأزمات، ص83 – 84 .

والتفسير...، منها ما أخرجه البخاري عن أبي سعيد رضي الله عنه، قال: بعث إلى النبي صلى الله عليه وسلم بشيء فقسمه بين أربعة، وقال: أتألفهم؟ فقال رجل: ما عدلت، فقال: «يخرج من ضئضئ هذا قوم يمرقون من الدين».[1]

وذلك لأن المنافقين عرفوا بالشحّ كما قال الله تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾[الأحزاب: 19]، (ومن شحّهم أنّهم يودّون أنّ الصدقات توزع عليهم فإذا رأوها تُوزّع على غيرهم طعنوا في إعطائها بمطاعن يُلقونها في أحاديثهم، ويظهرون أنّهم يغارون على مستحقّيها، ويشمئزّون من صرفها في غير أهلها، وإنّما يرومون بذلك أن تقصر عليهم)[2] يقول تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾[التوبة: 58]، وهذا النص القرآني يبين ويصوّر أحوال المنافقين الدائمة المتصلة قبل الغزوة وفي ثناياها، كما ويبين أن هذا الادعاء من كلام فريق من المنافقين، يقولونها لا غيرة على الدين، ولا غضباً للعدل، ولا حماسة للحق، إنما يقولونه لحساب ذواتهم وأطماعهم، وحماسةً لمنفعتهم وأنانيتهم.[3]

ثم أن الله–جل علاه– ردّ على المقالة الباطلة للمنافقين، وحسم أطماعهم الفارغة، وقطع شغبهم؛ فبيّن أن الذي ينبغي أن يُقسّم مال الله عليهِ هو من اتصف بإحدى هذه الصفات دون غيره، فأنزل آيات لتحدد مصارف الزكاة؛ ثم وضّح أن القصد منها الصلاح، والمنافقون ليس فيهم سوى الفساد فلا يستحقونه، وأنه –صلى الله عليه وسلم– إنما قسم على ما فرضه الله تعالى، فليس لأحدٍ فيها رأي، وكونها مفروضةً من الله تعالى، فهي جاءت لمصالح الأمة وللمحتاجين فيها...لا تطوعاً ولا

([1]) انظر: الواحدي، أسباب النزول، باب 246، ص 253، انظر: البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله والمؤلفة قلوبهم، حديث رقم 4667، ج 6، ص67، وانظر: الطبري، جامع البيان، ج14، ص 304.

([2]) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج10، ص 231– 232.

([3]) انظر : قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج 3، ص 1667–1668 .

تفضلاً ولا منحة، وهي ليست إحساناً من المعطي وليست شحاذة من الآخذ... إنها أمر الله تعالى وفريضته وقسمته.[1]

فقال تعالى مبيناً قواعد ومصارف الزكاة: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[التوبة: 60]. وهي تبين شمول الزكاة لمعظم أفراد المجتمع، فلو أنها نُظِّمت كما أراد الشرع لحلت كثيراً من المشاكل الاقتصادية والاجتماعية الناتجة عن الفقر...وغيره، وفي هذه الآيات بيان واضح وتوزيع جوهري لقواعد الزكاة في الإسلام حددها جل في علاه، (وهذه المصارف في الآية قسمان: أحدهما: أشخاص يملكونها تمليكاً بالوصف المقتضى للتمليك وعبّر عنه بلام الملك، وثانيهما: مصالح عامة اجتماعية ودولية لا يقصد بها أشخاص يملكونها بصفةً قائمة فيهم وهو يشمل سائر المصالح الشرعية العامة التي هي ملاك أمر الدين، وعبّر عنه بفي الظرفية وهو في قوله تعالى: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ وقوله: ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾...[2]، كما أن فيها معانٍ عظيمة للمعطي والمعطى له، حتى لو كان المُعطَى له غنياً يقول الإمام الطبري في تفسير هذه الآية: (أن الله جعل الصدقة في معنيين أحدهما: سدُّ خَلَّة المسلمين، والآخر: معونة الإسلام وتقويته، فما كان في معونة الإسلام وتقوية أسبابه، فإنه يُعطاه الغني والفقير، لأنه لا يعطاه من يعطاه بالحاجة منه إليه، وإنما يعطاه معونةً للدين، وذلك كما يعطى الذي يُعطاه بالجهاد في سبيل الله، فإنه يعطى ذلك غنيًّا كان أو فقيرًا، للغزو، لا لسدّ خلته، وكذلك المؤلفة قلوبهم، يعطون ذلك وإن كانوا أغنياء، استصلاحاً بإعطائهموه أمرَ الإسلام وطلبَ تقويته وتأييده)[3]، ويمكن الإضافة في مصارف الزكاة في التطبيقات المعاصرة لأمور كثيرة تحل مشاكل الأمة ومنها: دفع الزكاة لأصحاب الدخل المحدود، ومنها تأثيث البيوت للأسر المحتاجة، ومنها المشاركة في مشاريع الزواج، ومنها المساهمة في حل مشكلة البطالة، وذلك

([1]) الألوسي، روح المعاني، مجلد 4، ج 5، ص 310، وانظر: رضا، محمد رشيد، المنار، ج10، ص 505، وانظر: قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج3، ص 1668.

([2]) رضا، محمد رشيد، المنار، ج 10، ص 505 .

([3]) الطبري، جامع البيان، ج 14، ص 316 .

بتشغيل عدد من العاطلين عن العمل بدل أن يبقوا عالة على غيرهم، أو يشتغلوا ببيع اليانصيب المحرم في الشوارع، أو بيع الدخان وغيره، ويعيّن الشخص حسب إمكانياته ومؤهلاته، كما يمكن تشغيل السيارات ووسائل النقل والمحلات والمستودعات في مهمات الزكاة لقاء أجر، ومنها مساهمة الزكاة في التأمين الاجتماعي، والتأمين التعاوني اللذين ينشد كل مسلم تطبيقهما في ديار الإسلام، للتخلص من التأمين الربوي، ومنها التوسع في مدلول "ابن السبيل" ليشمل كل عمل دعوي، ومساعدة طلاب العلم الشرعي، وطباعة الكتب لنشر الإسلام، وتزويد وسائل الإعلام والقنوات الفضائية بالصحف والمجلات، ومنها دفع الديات، ومنها سداد ديون الميت ، وغيرها ...[1]

ومن اهتمام الإسلام بالزكاة أن قرن أدائها بإقامة الصلاة في كثير من الآيات في سور القرآن الكريم، وجاءت بإعلان وجوب الزكاة بصيغة الأمر الصريح يقول تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾[البقرة: 43]، وسورة التوبة دعت بصورة واضحة إلى إيتائها وبينت قواعدها، ومصارفها ومنها قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:71]، وتعتبر سورة التوبة نموذجاً للقرآن المدني في العناية بالزكاة، ويظهر ذلك جلياً من مطلع السورة الكريمة إلى نهايتها[2]، فالزكاة ما هي الا نماءٌ للمال وتزكية، وتطهيرٌ للفرد والمجتمع من الفساد، يقول تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: 103] فهي تطهير للنفوس من رذائل الشح والبخل والطمع، وتزكى القلوب من الأخلاق الذميمة، وتنمى الأموال والحسنات.[3]

([1]) انظر: الزحيلي، محمد، موسوعة قضايا اسلامية معاصرة، دار المكتبي، سورية، ط1، 2009م، ج1، ص 40، ج 1، ص 516 – 520 .

([2]) انظر: القرضاوي، يوسف، فقه الزكاة، ج 1، ص 62 – 69 .

([3]) طنطاوي، محمد سيد، (ت2010م)، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، دار نهضة مصر، القاهرة ، ط1، 1998م، ج6 ، ص 397.

وأصل الزكاة هو: النمو الحاصل عن بركة الله تعالى، ويعتبر ذلك بالأمور الدنيوية والأخروية...[1]؛ فهي كذلك تطهرهم من دنس ذنوبهم، وتنمِّيهم وترفعهم عن خسيس منازل أهل النفاق بها، إلى منازل أهل الإخلاص[2]، وهي تطهر وتزكي صاحب المال، وتطهر وتزكي المال المأخوذ، وتطهر وتزكي المأخوذ له، لأن التطهير معناه إزالة قذر، والتزكية نماء...[3]، وهذا النص وإن كان خاصاً بالرسول، وذا سبب خاص، فهو عام يشمل خلفاء الرسول ومن بعدهم من أئمة المسلمين.[4]

الزكاة فريضة اجتماعية اقتصادية: إن قوام الحياة في النظام الإسلامي هو العمل –بكل صنوفه وألوانه– وعلى الدولة المسلمة أن توفر العمل لكل قادر عليه، والزكاة ضريبة تكافل اجتماعي بين القادرين والعاجزين، تنظمها الدولة وتتولاها في الجمع والتوزيع، متى قام المجتمع على أساس الإسلام الصحيح، منفذاً شريعة الله لا يبتغى له شرعاً ولا منهجاً سواه.[5]

وتعتبر فريضة الزكاة فريضة اجتماعية، تؤدى في صورة عبادة اسلامية؛ ذلك ليطهر الله بها القلوب من الشح، وليجعلها وشيجة تراحم وتضامن بين أفراد الأمة المسلمة، تندّى جو الحياة الإنسانية، وتمسح على جراح البشرية، وتحقق في الوقت ذاته التأمين الاجتماعي والضمان الاجتماعي في أوسع الحدود، وتبقى لها صفة العبادة التي تربط بين القلب البشري وخالقه، كما تربط بينه وبين الناس.[6]

وليست الزكاة فريضة اجتماعية فحسب؛ بل هي نظام مالي اقتصادي؛ لأنها ضريبة مالية محدودة، تُفرض على الرؤوس حيناً، كزكاة الفطر، وعلى الأموال أحياناً –من رؤوس أموال ودخول– كما هو الشأن في عامة الزكاة ، وهي مورد مالي دائم من

---

(1) الأصفهاني، المفردات، مادة زكا، ج 1، ص 380، وانظر: الكفوي، الكليات، ص 486.

(2) انظر: الطبري، جامع البيان، ج14، ص 454 .

(3) انظر: الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج 9، ص 5471 .

(4) الزحيلي، وهبة، التفسير المنير، ج11، ص 27 .

(5) طنطاوي، الوسيط في التفسير، ج 6، ص 332 .

(6) قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج3، ص 1670، وانظر: المراغي، أحمد مصطفى، تفسير المراغي، ج 11 ، ص18- 19.

موارد بيت المال في الإسلام، تُصرف في تحرير الأفراد من رق العوز وإشباع حاجاتهم الاقتصادية وغيرها، ثم هي حرب عملية على الكنز وحبس الأموال عن التداول والتثمير، وهي نظام سياسي؛ لأن الأصل فيها أن تتولى الدولة جبايتها، وهي نظام خلقي طهّر وزكى نفوس الأغنياء والفقراء، وأشاع المحبة والإخاء بين الناس؛ وهي–قبل ذلك كله– نظام ديني؛ لأن إيتاءها دعامة من دعامات الدين وركن من أركانه.(1)

وقد تُفرض الصدقات من البشر كضريبة اجتماعية، أو غير ذلك، لدفع الشرور عن المجتمع، ولكن هذا لا يحدث إلا بعد أن تقع أحداث جسام يشقى بها مجتمع القادرين من مجتمع العاجزين؛ ولكن تشريعات البشر لا تأتي إلا بعد أن يشقى المجتمع لفترة طويلة من وضع موجود، ولكن الحق –سبحانه وتعالى– رحمة منه بخليفته في الأرض جاء بالتشريع من أول الخلق، بل من قبل الخلق؛ حتى يرتب للإنسان حياة سعيدة خالية من الشقاء، منهجاً يحميهم من شرور قاسية قبل أن تقع(2)، ولتطبيق فريضة الزكاة أهداف وآثار مادية ومعنوية كثيرة تظهر جلياً في حياة الفرد "المعطي والآخذ" والمجتمع المسلم في جميع مجالاته؛ فهي تجعله يتخلق بأخلاق الإسلام السامية، وفيه تطهير لنفسه من الشح والبخل والحسد والبغضاء، وتعالج القلوب من حب الدنيا وشهواتها، وفيها تدريب على البذل والإنفاق، وتعويد على شكر النعم، كما أنها تجلب المحبة والاخاء والتعاون، وهي تطهير ونماء للمال، وسد لحاجات الناس وقضاءً على الفقر والعوز...(3)، كما إن الأزمات والنواحي السلبية لتطبيق الزكاة المعاصرة كثيرة وخطيرة، وتعطي صورة داكنة ومؤلمة عن أحوال المسلمين اليوم، فمن ذلك: تخلي الدول الإسلامية عن تطبيق الزكاة في الغالب، والتطبيق الجزئي للزكاة الذي لا يُلبي الطموح الإسلامي للزكاة، ولا يصل إلى المستوى الذي وصلته الزكاة في العصور الإسلامية الأولى، والتطبيق المشوّه للزكاة بتوزيعها كيفياً وبطريقة بدائية دون استعانة بالتقنية الكافية، والتخلف في المؤسسات الزكوية، والهيئات الشرعية، وتعطيل الاجتهادات الجديدة، والخطأ في صرف الزكاة عملياً، والتظاهر بأحد صفات

---

(1) انظر: القرضاوي، يوسف، فقه الزكاة، ج 2، ص 1120–1121 .

(2) انظر: الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج 9، ص5241– 5242 .

(3) انظر: القرضاوي، يوسف، فقه الزكاة، ج 2، ص 851 – 914 .

المستحقين للزكاة كالغارمين وابن السبيل، والمتاجرة بالدعوة في سبيل الله على حساب الزكاة، ولأهداف شخصية، ومآرب دينية، والتقصير في التطبيق العملي للزكاة، وعدم التنسيق مع سائر أجهزة الدولة ، وعدم المعالجة الكافية لمستجدات الزكاة.(1)

وهكذا فإنه لو يلتزم المسلمون بأداء هذه الفريضة المالية لكان هذا كاف لإعادة مجد الإسلام ، وإنقاذهم من أزمات كثيرة أهمها الأزمة الاقتصادية...(2) .

أما الغرامة: وهي اعتبار طائفة من الأعراب المنافقين نفقته التي ينفقها، وزكاته التي يؤديها غرامة مالية هو ملزم بأدائها، ويؤديها وهو كارهٌ لأدائها؛ فتثقل عليه.(3) يقول تعالى: ﴿وَمِنَ الأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[التوبة: 98]، و﴿مَغْرَمًا﴾ أي غرامة وخسراناً من الغرا بمعنى الهلاك، وقيل: من الغرم وهو نزول نائبة بالمال من غير جناية، وأصله من الملازمة ومنه قيل لكل من المتداينين غريم، وإنما أعدوه كذلك لأنهم لا ينفقونه احتساباً ورجاء لثواب الله تعالى ليكون لهم مغنما وإنما ينفقونه تقية ورئاء الناس فيكون غرامة محضة، وما في صيغة الاتخاذ من معنى الاختيار والانتفاع بما يتخذ إنما هو باعتبار غرض المنفق من الرياء والتقية لا باعتبار ذات النفقة أعني كونها غرامة(4)؛ فهو مضطر لأن ينفق من ماله في الزكاة، وفي غزوات المسلمين؛ تظاهراً بالإسلام ليستمتع بمزايا الحياة في المجتمع المسلم؛ ومداراة للمسلمين وهم أصحاب السلطان اليوم في الجزيرة، وهو يعد ما ينفقه غرامة وخسارة يؤديها كارهاً، لا مساعدة للغزاة المجاهدين، ولا حباً في انتصار الإسلام والمسلمين.(5)

وإذا كان المسلم يدفع لبيت مال المسلمين زكاة تقوم بمصالح الفقراء والمسلمين، فأهل الكتاب الموجودون في المجتمع الإسلامي ينتفعون–أيضاً– بالخدمات التي يؤديها

---

(1) انظر: الزحيلي، محمد، موسوعة قضايا إسلامية معاصرة، ج 1، ص616– 630.

(2) انظر: رضا ، محمد رشيد، المنار، ج 10، ص 514 – 515 .

(3) انظر: الواحدي، علي بن أحمد بن محمد (ت 468هـ)، التفسير البسيط، تحقيق ابراهيم بن علي الحسن،سلسلة الرسائل الجامعية (106–107)، الرياض، 1430هـ، ج11، ص 15.

(4) الألوسي، روح المعاني، ج 6، ص 7 .

(5) قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج 3، ص 1701 .

الإسلام لهم، ويجب عليهم أن يؤدوا شيئاً من مالهم نظير تلك الخدمات، وهي ليست فرض قهر إنما مقابل منفعة أداها الإسلام لهم؛ إبقاءً على حياتهم وعلى دينهم الذي اختاروه[1]. فما هو هذا المال ؟ وما الهدف من أدائه؟

الجزية: قال تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾[التوبة: 29] ، وهو الخراجَ عن رقابهم، الذي يبذلونه للمسلمين دَفْعًا عنها[2]، والجزية واجبة على جميع أهل الذمة ممن في السواد وغيرهم من أهل الحيرة وسائر البلدان من اليهود والنصارى والمجوس والصابئين والسامرة... وتجب على الرجال منهم دون النساء والصبيان: على الموسر ثمانية وأربعون درهماً، وعلى الوسط أربعةً وعشرون، وعلى المحتاج الحراث العامل بيده اثنا عشر درهما[3]، وهي ليست من مبتدعات الإسلام، وإنما كانت معروفة لدى الفرس، وأول من سنّها كسرى أنو شروان، فعمل بها عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– حينما افتتح بلاد الفرس[4]، وسميت جزية؛ لأنها طائفة مما على أهل الذمة أن يجزوه أي يقضوه، أو لأنّهم يجزون بها من منّ عليهم بالإعفاء عن القتل[5]، ففي ذلك غنى لا يشبه ما كنتم فيه من قتال بعضكم لبعض لتغنم ما في يده من ذلك المال الحقير، ولا ما كنتم تعدونه غنى من المتاجر التي لا يبلغ أكبرها واصغرها ما أرشدناكم إليه مع ما في ذلك العز الممكن من الإصلاح والطاعة وسترون، وهي العيلة التي خافوا منها في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾[التوبة: 28]؛ فأغناهم بهذه الأموال التي يدفعها لهم أهل الكتاب، وعبر باليد عن السطوة التي ينشأ عنها الذل والقهر لأنها الآلة

---

(1) انظر: الشعراوي ، تفسير الشعراوي، ج 8 ، ص5029 – 5030 .

(2) الطبري، جامع البيان، ج14 ، ص 199 .

(3) أبو يوسف، يعقوب بن ابراهيم بن حبيب بن سعد، (ت 182هـ)، الخراج، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، ص 122.

(4) الزحيلي، وهبة ، التفسير المنير، ج 9، ص 176 .

(5) الزمخشري، الكشاف، ج 2، ص 184، والشوكاني، فتح القدير، ج1، ص 565 .

الباطشة...[1]، وتؤخذ منهم الجزية غير ممتنعين ولا منازعين في إعطائها، على الصغار والذل والهوان بأن يأتي بها بنفسه ماشياً غير راكب، ويسلمها وهو قائم والمستلم جالس، ويؤخذ بلحيته، فيقال له: أد الجزية وإن كان يؤديها ويزج في قفاه، فهذا معنى الصغار، وفيه ما فيه من تعظيم أمر الحكم الإسلامي وتحقير أهل الكفر ليكون ذلك ترغيباً لهم في الانخلاع عن دينهم الباطل واتباعهم دين الإسلام.[2]

وتعتبر الجزية أحد مصادر الإيرادات العامة في الدولة الإسلامية، وجانب مهم من جوانب نمو السياسة الاقتصادية لها، وإدارة أزمة من أزماتها.

4.4.2 أزمة التعبئة الاقتصادية أثناء الغزوات وفيه:

اعتذار أولي الطول عن الجهاد بالنفس والمال:

إن الاقتصاد له دور حيوي في بناء القوة العسكرية وتأمين سلامة الأمة، ولابد أن يتم تكييف الاقتصاد لتلبية حاجات الحرب الأساسية وفي وقت الأزمات؛ كما أن التعبئة الاقتصادية في الغزوات فريضة وتكليف على أبناء الأمة، وتخلف واعتذار الأغنياء عن الجهاد بالمال وعن القيام بهذه الفريضة وهذا التكليف مما يسبب عوائق وشدائد في الدولة؛ يقول تعالى مبيناً أن الجهاد بالمال كالجهاد بالنفس تكليفٌ وفريضة: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[التوبة:41]، (فهو الأمر بالجهاد بالأنفس والأموال وإيجابه على العباد، فالفقراء يجاهدون بأنفسهم، والأغنياء بأموالهم وأنفسهم، والجهاد من اكد الفرائض وأعظمها، وهو فرض كفاية مهما كان البعض يقوم بجهاد العدوّ وبدفعه، فإن كان لا يقوم بالعدوّ إلا جميع المسلمين في قطر من الأرض، أو أقطار وجب عليهم ذلك وجوب عين)[3]، وقرن الله أيضاً في السورة بين الجهاد بالمال والجهاد بالنفس عند

([1]) انظر: البقاعي، نظم الدرر، ج8، ص 433-435، وانظر ابن الجوزي، زاد المسير، ج3، ص 286.

([2]) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 10، ص 166-167، الرازي، مفاتيح الغيب، ج15، ص 31-32، البغوي، معالم التنزيل، ج 4، ص 33 .

([3]) الشوكاني، فتح القدير، ج1، ص537 .

الحديث عن صفات المنافقين: فقال تعالى:﴿لا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾[التوبة: 44]، ففي هذه الآية (يقول جل ثناؤه لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: يا محمد، لا تأذننَّ في التخلُّف عنك إذا خرجت لغزو عدوّك، لمن استأذنك في التخلف من غير عذر، فإنه لا يستأذنك في ذلك إلا منافق لا يؤمن بالله واليوم الآخر، فأمَّا الذي يصدّق بالله، ويقرُّ بوحدانيته وبالبعث والدار الآخرة والثواب والعقاب، فإنه لا يستأذنك في ترك الغزو وجهاد أعداء الله بماله ونفسه).[1]

لذلك كانت الاستجابة من الصحابة –رضوان الله عليهم– لنفير الجهاد؛ ونجد أن رسول الله قد ربط بين التجهيزات العسكرية في غزواته والاقتصاد العام للدولة، وقد ظهر هذا واضحاً في تجهيز جيش تبوك بالعدد والعدة وقد كان صعبًا جداً، وكان اختبارًا حقيقيًا لقوة الإيمان، وظهر ذلك جليا من كبار الصحابة "كأبي بكر الصديق، وعبد الرحمن بن عوف... وغيرهم" –رضي الله عنهم– في استجابتهم الفورية وتقديم أموالهم للجهاد في سبيل الله ودعم المجهود الحربي والتسابق لخير الجيش الإسلامي في هذه الغزوة، وكان الجهاد بالمال كالجهاد بالنفس وكل ذلك في سبيل الله...[2]، وقد ذكر الواقدي، أنه وما أن حض رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين على القتال والجهاد، ورغبهم فيه، وأمرهم بالصدقة، حتى حملوا صدقات كثيرة، فكان أول من حمل أبو بكر الصديق رضي الله عنه، جاء بماله كله أربعة آلاف درهم، وجاء عمر رضي الله عنه بنصف ماله، وحمل العباس بن عبد المطلب وطلحة بن عبيد الله وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن عبادة ومحمد بن مسلمة –رضي الله عنهم– إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مالاً، وجهز عثمان بن عفان رضي الله عنه ثلث ذلك الجيش، فكان من أكثرهم نفقة، حتى كفى ذلك الجيش مؤونتهم، ورغّب أهل الغنى في الخير والمعروف، واحتسبوا في ذلك الخير، وقووا أناس دون هؤلاء من هو أضعف

([1]) الطبري، جامع البيان، ج14، ص 274–275، وانظر: قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج3، ص 1662 .

([2]) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، تهذيب عبد السلام هارون، ص 286–287، وانظر: ابن كثير، الفصول في سيرة الرسول –صلى الله عليه وسلم–، ص 109 .

منهم، حتى إن الرجل ليأتي بالبعير إلى الرجل والرجلين فيقول: هذا البعير بينكما تتعاقبانه، ويأتي الرجل بالنفقة فيعطيها بعض من يخرج، حتى إن كن النساء ليساعدن بكل ما قدرن عليه [1] .

وفي المقابل عرف بعض المنافقين الذين كانوا مندسين بين صفوف المسلمين عن طريق تأخرهم عن المشاركة في تجهيز ذلك الجيش، أو التخلف تماما عن الحشد الإسلامي الكبير، فلم يشاركوا في النفقات وفي الصدقات للجهاد؛ ولم يقف المنافقون عند حد بخلهم وتخلفهم، بل تعدوه إلى لمز المؤمنين وذمهم، بما بذله غنيهم وفقيرهم)[2]، فقد جاء في الحديث عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: "لما نزلت آية الصدقة كنا نحامل، فجاء رجل فتصدق بشيء كثير فقالوا: مرائي، وجاء رجل فتصدق بصاع، فقالوا: إن الله لغني عن صاع هذا، فنزلت: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[التوبة: 79].[3]

وهي تصور نظرة المنافقين المنحرفة لطبيعة الإنفاق في سبيل الله وبواعثه في النفوس فهم يجرحون صاحب الكثير لأنه يبذل كثيراً، ويحتقرون صاحب القليل لأنه يبذل القليل؛ فلا يسلم من تجريحهم وعيبهم أحد من الخيرين ذلك وهم قاعدون متخلفون منقبضو الأيدي شحيحو الأنفس، لا ينفقون إلا رياء، ولا يدركون من بواعث النفوس إلا مثل هذا الباعث الصغير الحقير... إنهما طبيعتان، طبيعة النفاق والضعف، وطبيعة الإيمان والقوة والبلاء، وإنهما خطتان، خطة الالتواء والتخلف والرضى بالدون. وخطة الاستقامة والبذل والكرامة، ولكن الله سبحانه وتعالى يجبههم بالرد الحاسم الجازم: وهي السخرية الإلهية والعذاب الأليم[4]. ويبين الله تعالى أنهم لم يعدوا أنفسهم للجهاد

([1]) انظر: الواقدي، المغازي، ج 3، ص 990 .

([2]) انظر: رضا، محمد رشيد، المنار، ج 10، ص 562 .

([3]) البخاري، صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب اتقوا النار ولو بشق تمرة، حديث رقم 1415، ج2، ص 109، وانظر: الواحدي، أسباب النزول: باب رقم 253، ص 259، وانظر: الطبري، جامع البيان، ج 14، ص 382 .

([4]) انظر: قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج3، ص 1681 – 1684.

بأنفسهم وأموالهم مع سعة يدهم فقال: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾[التوبة: 46]، فقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾ أي من الزَّاد والمركوب، لأنَّهم كانوا مياسير ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ﴾ لم يرد خروجهم معك ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ فخذلهم وكسَّلهم ﴿وَقِيلَ اقْعُدُوا﴾ وحياً إلى قلوبهم، يعني: إنَّ الله ألهمهم أسباب الخذلان﴿مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ الزَّمنى وأولي الضَّرر.(1)

ذلك كان اعتذار هؤلاء المنافقين الأغنياء عن المشاركة في هذه الغزوة وتقديم أموالهم والتي كانت الدولة آنذاك بحاجتها؛ مما واجه رسول الله–صلى الله عليه وسلم– والصحابة من أزمات وتحديات، ولكن كما –مرّ سابقاً– حكمته عليه السلام و مشاركة الصحابة رضوان الله عليهم بأموالهم وأنفسهم حلّ هذا الإشكال وأدار هذا الأزمة. يقول تعالى: ﴿وَإِذَا أُنزلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ * رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ* لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[التوبة: 86 / 87 / 88] .

فإذا تخلف هؤلاء المنافقون عن الجهاد، فاللّه سيغني عنهم، وللّه عباد وخواص من خلقه اختصهم بفضله يقومون بهذا الأمر، وهم ﴿الرَّسُولُ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ غير متثاقلين ولا متكاسلين، بل هم فرحون مستبشرون، ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ﴾ الكثيرة في الدنيا والآخرة، ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الذين ظفروا بأعلى المطالب وأكمل الرغائب.(2)

ويقول تعالى: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾[التوبة : 93].

والمقصود: ما السبيل بالعقوبة على أهل العذر، يا محمد، ولكنها على الذين يستأذنونك في التخلف خِلافَك، وترك الجهاد معك، وهم أهل غنى وقوّةٍ وطاقةٍ للجهاد والغزو، نفاقًا وشكًّا في وعد الله ووعيده، يقول: رضوا بأن يجلسوا بعدك مع النساء وهن ﴿الْخَوَالِفِ﴾، خلف الرجال في البيوت، ويتركوا الغزو معك، ﴿وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى

(1) الواحدي، الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج1، ص 466 .

(2) السعدي ، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ج1 ، ص 347 .

قُلُوبِهِمْ﴾، يقول: وختم الله على قلوبهم بما كسبوا من الذنوب ﴿فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾، سوء عاقبتهم، بتخلفهم عنك، وتركهم الجهاد معك، وما عليهم من قبيح الثناء في الدنيا، وعظيم البلاء في الآخرة. (1)

وواقعنا الآن مليء بأزمات اقتصادية، فإن من أهم المشاكل الاقتصادية المعاصرة التي تعاني منها الدول العربية هو ما يُسمى بالتبعية لاقتصاد الدول الأجنبية، وكما اتضح فقد برزت تبعية الاقتصاد العربي للخارج في التبعية التجارية والتبعية الغذائية والتبعية المالية والتقنية(2)، ومن المشاكل التي يعاني منها المجتمع المعاصر أيضاً، والتي لها دور كبير في التأثير على حركة الاقتصاد، الاتجاه المتزايد إلى الإنفاق الاستهلاكي واستخدام جميع الوسائل الإعلامية لإيجاد هذا الاتجاه. إن تزايد الإنفاق الاستهلاكي يؤثر على القدرة الادخارية لأفراد المجتمع، مما يؤدي إلى ضعف توافر المال الكافي للاستثمار، مما ينتج عنه خلل في الدورة الاقتصادية؛ مسبباً أزمات من أهمها الأزمات الغذائية، ونقص السلع، وكان من أهم الأمور في معالجة الإسلام لمشكلة الأزمات الغذائية؛ التصور الأساسي الذي يقوم عليه الفكر الإسلامي والمتمثل في الجانب التنظيمي، والجانب السلوكي، والوسطية في معالجة الأمور، فلا إفراط ولا تفريط ضمن المفهوم الذي شرعه الله في كتابه في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾[البقرة: 143] وهذه الوسطية هي التي يدور عليها مدار الأمر في الإسلام عند معالجته لجميع القضايا الاجتماعية والاقتصادية.(3) كما أنه من الأزمات المعاصرة ما يسمى–بالهجرة

---

(1) الطبري، جامع البيان، ج14، ص 423– 424 ، وانظر: ابن الأثير، محمد بن محمد بن عبد الكريم (ت 630هـ)، الكامل في التاريخ، تحقيق أبو الفداء القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1987، ج2، ص149، والمراغي، تفسير المراغي، ج10، ص178، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج 5، ص 84–85.

(2) انظر: المرزوقي، عمر بن فيحان، التبعية الاقتصادية في الدول العربية وعلاجها في الاقتصاد الإسلامي، الرشد ناشرون، الطبعة: 1426هـ/2005م، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في الاقتصاد الإسلامي، بتاريخ: 29/ 11 / 1415هـ، ص 4.

(3) انظر: الشباني، محمد بن عبد الله، مجلة البيان، الإسلام والقضايا الاقتصادية المعاصرة، صادرة عن المنتدى الإسلامي، شوال، 1414 هـ، عدد رقم 74، ص 38.

الريفية– والتي وصفت بأنها ضرب من التهجير الفعلي الذي يعمل على إحراق عنصر العمل العربي (الموارد البشرية) في الجاهلية الحديثة، والذي يبدو أنها تعزى إلى ظاهرة التخلف التي تسود المجتمعات الريفية الناجم عن عدم توازن التنمية، أو بمعنى آخر من سوء توزيع مرافق التنمية، وعلى الرغم أيضاً من أن عنصر العمل يعتبر من العناصر المهمة في أية عملية إنتاجية إلا أن هجرة ذلك العنصر من الأرياف والمناطق الزراعية إلى المدن والمناطق الحضرية أضحت إحدى المشاكل الاقتصادية التي تواجه غالبية الدول العربية، والتي تسببت في فقدان القطاع الزراعي الكثير من عمالته النشطة والمنتجة وتناقصها على مر السنين[1]، ثم إن المخدرات وزراعتها من أخطر معوقات التنمية الاقتصادية في مجتمعاتنا المعاصرة حيث يؤدي تعاطي المخدرات –بالإضافة لمشاكله المتعددة في المجتمع بكافة أنواعها– إلى (إشاعة الجرائم في المجتمعات مثل البغاء والرشوة والاختلاس والفساد والتجسس، كما تنتشر في المجتمع الذي يستهدف التنمية أعمال غير إنتاجية كرعاية المدمنين في المستشفيات وحراستهم في السجون، ومكافحة المهربين وتجار المخدرات وكان الأولى بكل هؤلاء أن ينفذوا خطط التنمية العاجلة، لتلحق مجتمعاتهم النامية بركب الحضارة المتقدمة، ولكن المخدرات معوق هائل في طريق التنمية كما أن تعاطي المخدرات لا يشل قدرة الأفراد المدنيين فحسب، وإنما يصيب بالشلل قطاعات كبيرة من المجتمع، وإذا كانت هذه المخدرات تزرع في المجتمع الذي تستهلك فيه، فإن معنى ذلك إضافة جزء من الثروة القومية في الأرض التي كان من الممكن استغلالها في زراعة ما هو أنفع للمجتمع من المخدرات، ولكن المهربين وتجار المخدرات يقفون للتنمية بالمرصاد، ولا يريدون تحقيقها لأنها تضيع عليهم فرص الاتجار والزراعة المحرمة.[2]

([1]) انظر: المرزوقي، عمر بن فيحان، التبعية الاقتصادية في الدول العربية وعلاجها في الاقتصاد الإسلامي، ص 104–105.

([2]) إمام، ابراهيم، المخدرات أخطر معوقات التنمية، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، الطبعة: (السنة الرابعة عشرة– العدد الرابع والخمسون)، ربيع الثاني–جمادى الأولى– جمادى الآخرة 1402هـ، ص 69 – 70 .

5.2 الأزمة الاجتماعية:

الأزمة هنا بمثابة انهيار لكيان الأفراد أو شعورهم بانعدام أهميتهم كنتيجة للتغيرات التي تحول الفرد الى مجرد شيء، وتعتبر نتاج لعملية التفاعل الحيوي المستمر في طبيعة الروابط القائمة بين طرفي علاقة انسانية[1]، والأزمة الاجتماعية العامة من وجهة النظر الإسلامية: هي حدوث خلل خطير سواءً كان مادياً أو معنوياً يهدد منظومة المجتمع المسلم.[2]

إن الأزمات الاجتماعية متداخلة بأسبابها ونتائجها مع أزمات أخرى متعددة كالأزمات الاقتصادية والسياسية والعسكرية... وقد ذكرت جانباً منها أثناء عرض مشكلة الفقر، البخل... وغيرها، وسأقتصر حديثي عن هذه الأزمة على مطلبين اثنين يخص مجتمع المدينة وقت نزول السورة :

1.5.2 أصناف المجتمع المتعددة والمتناقضة في المدينة وما حولها:

كان من أهم الأزمات التي واجهته عليه الصلاة والسلام تلك الأصناف المتعددة التي كانت تسكن في المدينة وما حولها، هذه الأصناف المتضاربة منهجاً وفكراً وانتماءً وولاءً... وغيرها لذلك جاءت سورة التوبة وقد (تضمنت أحكاماً نهائية في العلاقات بين الأمة المسلمة وسائر الأمم في الأرض؛ كما حددت العلاقات بين المعسكر الإسلامي في الجزيرة وسائر معسكرات المشركين، وبينه وبين معسكرات أهل الكتاب داخل وخارج الجزيرة العربية... كما تضمنت تصنيف المجتمع المسلم ذاته، وتحديد قيمه ومقاماته، وأوضاع كل طائفة فيه وكل طبقة من طبقاته؛ ليست الطبقات الاجتماعية بالمعنى الصغير المفهوم من الطبقية، ولكنها الطبقات التي تقوم على قيم اسلامية بحتة كالسابقين من المهاجرين والأنصار، وأهل بدر، وأصحاب بيعة الرضوان، ومن أنفق من قبل الفتح وقاتل، ومن أنفق من بعد الفتح وقاتل، والقاعدين، والمنافقين ...[3]

([1]) عبوي ، زيد منير، ادارة الأزمات، ص 19 .

([2]) الجمل، صديقة محمد سليمان، الهدي النبوي في إدارة الأزمات الاجتماعية العامة، ص25.

([3]) انظر: قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج3، ص 1564.

هذه الطبقات الاجتماعية تعددت وتشعبت في العهد المدني فقط، وتختلف أوضاعها عن أوضاع العهد المكي الدينية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية، حيث تشعب أعداء الإسلام وأصبح التعامل معهم أصعب (ففي حساب التاريخ أن المواجهة الاولى بين الاسلام والوثنية في مكة، تختلف تماما عما يواجهه في المدينة من معركة معقدة بينه وبين أعدائه، في ميدان ذي جبهات ثلاث، يلقى فيه حشود قريش في صدام مسلح، وعصابات يهود في أوكارهم الخطرة، وجيوب المنافقين الذين حالفوا الشيطان، وتتداخل هذه الجبهات زماناً ومكاناً، فيزداد الموقف تعقيدا وصعوبة وحرجا، من حيث لا يستطيع المؤمنون أن يتفرغوا للجهاد في إحدى الجبهات ثم ينتقلوا إلى أخرى منها فيكون الامر عليهم أخف عبئا وأيسر مشقة).[1]

وكان قد تبين من الواقع العملي، أنه لا يمكن التعايش بين منهجين للحياة بينهما هذا الاختلاف الجذري العميق البعيد المدى الشامل لكل جزئية من جزئيات الاعتقاد والتصور، والخلق والسلوك، والتنظيم الاجتماعي والاقتصادي والسياسي- والإنساني- وهو الاختلاف الذي لابد أن ينشأ من اختلاف الاعتقاد والتصور منهجين للحياة أحدهما يقوم على عبودية العباد لله وحده بلا شريك؛ والآخر يقوم على عبودية البشر للبشر، وللآلهة المدعاة، وللأرباب المتفرقة. ثم يقع بينهما التصادم في كل خطوة من خطوات الحياة؛ لأن كل خطوة من خطوات الحياة في أحد المنهجين لابد أن تكون مختلفة مع الأخرى، ومتصادمة معها تماماً، في مثل هذين المنهجين وفي مثل هذين النظامين.[2]

وهذه الأزمة التي أحدثها سكان المجتمع المدني المتناقض، والنسيج المعقد لها؛ تحتاج الحكمة والمشقة للتعامل معها، وأول تكوين لهذا النسيج هم:

المشركون: وهم أول صنف من مجتمع المدينة المنورة ذكرته سورة براءة في أول مقطع من مقاطع السورة، وأول آية من آياتها، قال تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ*فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾[التوبة: 2/1]، وقد ذكرته السورة اثنتا عشرة

([1]) بنت الشاطيء، عبدالرحمن، عائشة، مع المصطفى، ص 208- 209.

([2]) قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج3، ص 1586 .

مرة[1]، والمشركون: هم من أشركوا بالله: أي جعلوا له شريكاً في ملكه، تعالى الله عن ذلك، والشرك: أن تجعل لله شريكاً في ربوبيته، تعالى الله عن الشركاء والأنداد[2]، وشرك الإنسان في الدين ضربان: أحدهما: الشرك العظيم، وهو: إثبات شريك لله تعالى، وذلك أعظم كفر، والثاني: الشرك الصغير، وهو مراعاة غير الله في بعض الأمور، وهو الرياء والنفاق، ولفظ الشرك من الألفاظ المشتركة، وقوله ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ [التوبة: 36] فأكثر الفقهاء يحملونه على الكفار جميعا كقوله ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾[التوبة: 30] وقيل: هم من عدا أهل الكتاب؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[الحج: 17][3]، ففي هذه الآية أفرد الله تعالى المشركين عن اليهود والنصارى[4]، والمشركون

([1]) الآيات [113/36/33/31/28/17/7/6/5/4/3/1: التوبة] انظر: عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، ص 379 – 381.

([2]) ابن منظور، لسان العرب، ج5، ص 95 ، مادة شرك .

([3]) وهؤلاء هم الفئات الستة التي أخبر الله تعالى عنهم في هذه الآية و(الَّذِينَ آمَنُوا..) أي بمحمد –صلى الله عليه وسلم– (وَالَّذِينَ هَادُوا..) هم اليهود، ثم النصارى وهما قبل الإسلام، وأما الصابئون: فهؤلاء جماعة كانوا على دين ابراهيم عليه السلام، ثم عبدوا الكواكب فسمّوا صابئة لخروجهم عن الدين الحق، أما المجوس: فهم عبدة النار، والذين أشركوا: هم المشركون عبدة الأصنام والأوثان. انظر: الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج16، ص 9745 – 9746 ، والصحيح أن أهل العلم اختلفوا في الصابئين، فورد أنهم من أهل الكتاب، وقيل أنهم جنس من النصارى، وقيل أنهم يسبتون، فهؤلاء إذا أسبتوا فهم من اليهود وقيل: هم بين اليهود والنصارى، وتوقف البعض في أمرهم وقالوا ينظر فيهم، فإن كانوا يوافقون أحد أهل الكتابين في نبيهم وكتابهم فهم منهم، وإن خالفوهم في ذلك، فليس هم من أهل الكتاب، انظر: ابن قدامة، أبو محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد، المقدسي (ت 620هـ)، المغني، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، والدكتور عبد الفتاح محمد الحلو ط: عالم الكتب، الرياض، السعودية، ط3، 1417هـ–1997م، ج13، ص 203 .

([4]) انظر: الأصفهاني، المفردات، ص 452– 453، مادة شرك .

في هذه السورة: هم جميع القبائل العربية التي أشركت بالله؛ ولا سيما مشركو قريش– لكون قريش رؤوس الناس والناس تبع لهم في الخير والشر– وقبائل عربية بعضها نقض العهد مع رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وبعضها لم ينقض، ومنهم قبائل بكر: ومنها بنو خزيمة وبنو مدلج وبنو ضمرة وبنو الديل وهم الذين كانوا قد دخلوا في عهد قريش يوم الحديبية، فلم يكن نقض العهد إلا قريش وبنو الديل من بني بكر فأمر بإتمام العهد لمن لم ينقض ... [1].

وقد اختلف أهل التأويل فيمن بَرِئَ الله ورسوله إليه من العهد الذي كان بينه وبين رسول الله من المشركين، فأذن له في السياحة في الأرض أربعة أشهر، فقال بعضهم: هم صنفان من المشركين: أحدهما كانت مدة العهد بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم أقلَّ من أربعة أشهر، وأمْهِل بالسياحة أربعة أشهر،والآخر منهما: كانت مدة عهده بغير أجل محدود، فقُصِر به على أربعة أشهر ليرتاد لنفسه، ثم هو حرب بعد ذلك لله ولرسوله وللمؤمنين، يقتل حيثما أدرك ويؤسَرُ، إلا أن يتوب[2]، وكما تناول المقطع الأول أحكام العلاقات النهائية بين المسلمين والمشركين في الجزيرة العربية، جاء المقطع الثاني يبين أحكام العلاقات النهائية بين المسلمين وأهل الكتاب عامة.[3]

أهل الكتاب، يقول تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: 29]، وأهل الكتاب: هم اليهود والنصارَى، وهم أهل التوراة والإنجيل[4]، وخص اليهود والنصارى دون أصحاب الكتب السماوية الأخرى؛ لأنهم هم الذين كانوا مخالطين ومجاورين للأمة العربية ومعروفين عندها.[5]

([1]) انظر: البقاعي، نظم الدرر، ج 8، ص 363 – 384 .

([2]) الطبري، جامع البيان، ج 14، ص 96 .

([3]) الآيات [29/30/31/32/33/34/35: التوبة]، انظر: قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج3، ص 1619– 1620 .

([4]) الطبري، جامع البيان، ج 14، ص198 – 199، وانظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ، ج3، ص 58 .

([5]) رضا ، محمد رشيد، المنار، ج 10، ص 188 .

وقد شكّل أهل الكتاب من نصارى ويهود خطراً على رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وصحابته الكرام؛ داخل وخارج الجزيرة العربية، واستطاع رسول الله داخل الجزيرة القضاء على أقوى قبائل لليهود في المدينة تمثلت في إجلاء يهود بني قينقاع ويهود بني النضير إلى الشام، وإبادة يهود بني قريظة، واستسلام خيبر الاستسلام الأخير...[1] مع بقاء خطرهم وتشعب سمومهم: (في أوكار يهود الناشبة في دار الهجرة وما حولها، تمت تعبئة الاحبار ليكيدوا للإسلام كيداً، دون أن يواجهوه بحرب معلنة: يتظاهر نفرٌ منهم بالإسلام، ثم يندسّون بين الصحابة في صميم المجتمع الاسلامي بالمدينة، ليبذروا بذور الشر التي تؤتى ثمرها الخبيث على المدى الطويل، ويشربوا ضعاف النفوس من بني قيلة(الأوس والخزرج) سم النفاق، واثقين من نتيجته وإن يكن بطئ الاثر، وآخرون منهم يتصدون لمجادلة نبي الاسلام، التماساً للعلم في ظاهر الأمر، وقصدا إلى إحراجه –صلى الله عليه وسلم– وإعناته...)[2]، وهكذا نرى أنه من الأسباب القوية لظهور النفاق في المجتمع المدني، سموم وحقد اليهود على الإسلام، فمتى ظهر المنافقون في المدينة المنورة؟

المنافقون: لقد كمن السّم في أول الأمر، وإن ظهرت بوادر منه في مثل إصرار (عبدالله بن أبي بن سلول) على أن يجير مواليه من يهود بني قينقاع، وانخذاله بمن معه من منافقي المدينة، عن جند المصطفى يوم أحد، ثم نشاطه الخبيث في فرية الافك الذي تولى كبره، وتتابعت البوادر مع ثقل أعباء الجهاد وتكاليفه، في غزوة الاحزاب وغزوة مؤتة، ويوم حنين، دون أن يملك أحد أن ينفي المنافقين عن الاسلام وهم يتظاهرون به ويشهدون بألسنتهم أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وقد جاءت (غزوة تبوك) فمزقت أقنعتهم، بعد أن توالت النذر منبهة إلى أن النفاق قد تمكن من مرضى القلوب حتى صار داء عياء[3]، وقد ورد ذكرهم بهذا الاسم في سورة التوبة

(1) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، تهذيب عبد السلام هارون، ص155، ص180، ص198، وانظر: بنت الشاطيء، عبدالرحمن، عائشة، مع المصطفى، ص 265– 270.

(2) بنت الشاطيء، عبدالرحمن، عائشة، مع المصطفى، ص 222 .

(3) انظر: بنت الشاطيء، عبدالرحمن، عائشة، مع المصطفى، ص 306 .

احدى عشرة مرة[1]، يقول تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الأعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾[التوبة: 101].

وهناك الشريحة الأكثر خطراً في المجتمع من المنافقين، وهي التي تُرسّخ العداوات بين المسلمين باسم الاسلام وأهله، وتقوم على افساد بعض الجماعات المسلمة للإضرار والتفريق بينهم، قال تعالى فيهم: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفَنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[التوبة: 107]، فهم بنوه مضارة لأصحاب مسجد قباء، كفراً بالله وتقوية للنفاق، وتفريقا بين المؤمنين؛ فلأنهم كانوا يصلون مجتمعين في مسجد قباء فيغتص بهم، فأرادوا أن يتفرقوا عنه وتختلف كلمتهم، وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله –إعداداً لأجل من حارب الله ورسوله–... وكل من بنى مسجداً مباهاة أو رياءً وسمعةً، أو لغرض سوى ابتغاء وجه الله أو بمال غير طيب فهم كالذين بنوا مسجد ضرار[2]، وقد تحدثت عن هذه الشريحة من خلال الأزمة السياسية.

وقد جاء المقطع الرابع من سورة التوبة في فضح المنافقين وأفاعيلهم في المجتمع المسلم، ووصف أحوالهم النفسية والعملية، وكشف حقيقة نواياهم وحيلهم ومعاذيرهم في التخلف عن الجهاد، وبث الضعف والفتنة والفرقة في الصف المسلم وإيذاء رسول الله –صلى الله عليه وسلم– والخلّص من المؤمنين، وتحذيرهم من كيدهم.[3]

ثم يبدأ المقطع الخامس بتصنيف المجتمع الإسلامي في ذلك الحين–إبان غزوة تبوك– يصور طوائفه وطبقاته الإيمانية الداخلة في تركيبه العضوي العام، مع تمييز كل منها بصفاته وأعماله [4] مبتدئاً بـ:

([1]) الآيات [101/97/77/73/68/67/64: التوبة]، انظر: عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، ص716– 717 .

([2]) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج 2، ص 427، وانظر: الزمخشري، الكشاف، ج2، ص 214.

([3]) قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج 3، ص 1691 .

([4]) قطب، سيد، في ظلال القرآن، ص 1698 .

الأعراب:

أخبر الله تعالى أن في الأعراب كفاراً ومنافقين ومؤمنين، وأن كفرهم ونفاقهم أعظم من غيرهم وأشد وأجدر[1] وقد ذكرت هذه الجماعة من مجتمع المدينة المنورة وما حولها ممن عاصرهم رسول الله –صلى الله عليه وسلم– في سورة التوبة– ست مرات–[2]، وهذه الآيات تتحدث عن الأعراب وليس عن العرب، وفرق بين اللفظين، فالعرب هم الجنس المعروف من بني آدم الذي ينقسم إلى حضر وبدو، والحضر هم ساكنو المدن والقرى، أما البدو فهم "الأعراب" سكان البادية، والأعرابي إذا قيل له يا عربي فرح، وإذا قيل للعربي يا أعرابي غضب، ولهذا لا يجوز أن يقال للمهاجرين والأنصار أعراب، وهؤلاء الأعراب هم الذين تخبر عنهم الآيات الكريمة في السورة[3]. يقول تعالى: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[التوبة: 90]، ثم يقول تعالى: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:97].

وبدأ بتصنيف الأعراب –وهم البدو– وقد كانت قبائل منهم حول المدينة، وكانت لهم أدوار في الهجوم على دار الإسلام في المدينة –قبل إسلامهم– فلما أسلموا كانوا بوجه عام داخلين في الفئتين اللتين ورد وصفهما في هذه الآيات، والتعبير بهذا العموم يعطي وصفاً ثابتاً متعلقاً بالبدو وبالبداوة، ويبدأ بتقرير قاعدة كلية عن طبيعة الأعراب؛ فالشأن في البدو أن يكونوا أشد كفراً ونفاقاً، وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله[4]، ونزلت هذه الآية في أعراب من أسد، وتميم، وغطفان ومن أعراب حاضري المدينة، وهم أشد كفراً من أهل الحضر؛ وإذا كان الكفر متعلقاً بالقلب فقط،

---

(1) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم، ج 2، ص 421 .

(2) الآيات [90 / 97 / 98 / 99 / 101 / 120 : التوبة]، انظر: عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، ص 456 .

(3) انظر: الشوكاني، فتح القدير، ج1، ص 593، وانظر: الألوسي، روح المعاني، مجلد 4، ج 6، ص6.

(4) قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج 3، ص 1699 .

فالتقدير أشد أسباب كفر، وإذا دخلت فيه أعمال الجوارح تحققت فيه الشدة، وكانوا أشد كفراً ونفاقاً لتوحشهم واستيلاء الهواء الحار عليهم، فيزيد في تيههم ونخوتهم وفخرهم وطيشهم وتربيتهم بلا سائس ولا مؤدب ولا ضابط، فنشأوا كما شاؤا لبعدهم عن مشاهدة العلماء ومعرفة كتاب الله وسنة رسول الله، ولبعدهم عن مهبط الوحي كانوا أطلق لساناً بالكفر والنفاق من منافقي المدينة، إذ كان هؤلاء يستولي عليهم الخوف من المؤمنين، فكان كفرهم سراً ولا يتظاهرون به إلا تعريضاً، ولما كانت الغلظة والجفاء في أهل البوادي لم يبعث الله منهم رسولاً، وإنما كانت البعثة من أهل القرى كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلا رِجَالا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: 109]) [1] .

والحكم على الأعراب بما ذكر من باب وصف الجنس بوصف بعض أفراده كما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ الإنسان كَفُورًا﴾[الإسراء: 67] إذ ليس كلهم كما ذكر، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الاعراب مَن يُؤْمِنُ﴾[التوبة: 99]. فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب...[2]

وبعد الوصف الرئيسي العام للأعراب يأتي التصنيف حسبما أحدث الإيمان في النفوس من تعديلات؛ وما أنشأه كذلك من فروق بين القلوب التي خالطتها بشاشته والقلوب التي بقيت على ما فيها من كفر ونفاق؛ مما يمثل الواقع في المجتمع المسلم حينئذاك: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[التوبة: 99/98] والمقصود: ﴿وَمِنَ الأعرابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا﴾ هذا تنويع لجنس إلى نوعين، الأوّل: هؤلاء، والثاني: ﴿وَمِنَ الأعراب مَن يُؤْمِنُ بالله﴾

([1]) انظر: الطبري، جامع البيان، ج 14، ص 429، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج5، ص 94، و الواحدي، أسباب النزول، باب رقم 256، ص 262 ، وقطب، سيد، في ظلال القرآن، ج 3، ص 1700 .

([2]) الألوسي، روح المعاني، مجلد 4، ج 6، ص 6 .

والمعنى: أنه اعتقد أن الذي ينفقه في سبيل الله غرامة وخسران، لأن ما ينفقه الرجل ليس بلازم له في اعتقاده، ولكنه ينفقه للرياء والتقية، وقوله: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ﴾ هذا النوع الثاني من أنواع الأعراب كما تقدّم : أي : يصدّق بهما ﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ﴾ أي: أنه يجعل ما ينفقه سبباً لحصول القربات ﴿عِندَ الله﴾ وسبباً ل ﴿صَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾ أي: لدعوات الرسول لهم، لأنه -صلى الله عليه وسلم- كان يدعو للمتصدقين، ومنه قوله: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صلواتك سَكَنٌ لَّهُمْ﴾[التوبة: 103].[1]

وهناك من الأعراب من هم حول بلدهم التي يسكنونها، وهي المدينة، والذين كانوا حول المدينة هم جهينة[2]، وأسلم[3]، وأشجع[4]، وغفار[5]،

([1]) انظر: الشوكاني، فتح القدير، ج1، ص 594 .

([2]) جهينة: بلفظ التصغير وهو علم مرتجل في اسم أبي قبيلة من قُضاعة وسمي به. قرية كبيرة من نواحي الموصل على دجلة وهي أول منزل لمن يريد بغداد من الموصل وعندها مرج يقال له مرجُ جُهَينة له ذكر، انظر: الحموي، ياقوت بن عبد الله (ت 626 هـ) ، معجم البلدان، دار إحياء التراث، بيروت، ط1، 1997، ج2، ص 100.

([3]) أسلم: حي من جُذام، من القحطانية، كانت منازلهم بلاد غزاة، وقد اختلطوا مع جذيمة جرم من طيء، وقيل من قبائل عسير، انظر كحالة، عمر رضا (ت 1408 هـ)، معجم قبائل العرب، المكتبة الهاشمية، دمشق، 1949، ج1، ص 26 .

([4]) أشجع: قبيلة من غطفان، من قيس بن عيلان، من العدنانية، وهم: بنو أشجع بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس بن عيلان بن مضر بن نزار بن معد ابن عدنان. كانت منازلهم بضواحي المدينة وكان بالمغرب الاقصى منهم حي عظيم، كانوا يظعنون مع عرب المعقل، بجهات سجلماسة، وكان لهم عدد وذكر، انظر: كحالة، معجم قبائل العرب، ج1، ص 29 .

([5]) غفار: وهم: بنو غفار بن جاشم من العماليق، كانت منازلهم بنجد، بطن من كنانة، من العدنانية، وهم: بنو غفار بن مليل بن ضمرة بن بكر بن عبد مناف بن كنانة بن خزيمة بن مدركة (عمرو) بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. كانوا حول مكة ومن مياههم: بدر. انظر: كحالة ، معجم قبائل العرب، ج 3، ص 890.

ومزينة[1]، وعصية[2]، ولحيان[3]، وغيرهم ممن جاوز المدينة[4]، يقول تعالى فيهم: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الأعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾[التوبة: 101]﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ﴾ (يعنى حول بلدتكم وهي المدينة مُنافِقُونَ وهم جهينة وأسلم وأشجع وغفار، كانوا نازلين حولها).[5]

ويقول تعالى أيضاً: ﴿مَا كَانَ لأهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الأعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلا إِلا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[التوبة: 120] ،وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرابِ، يعني: المنافقين الذين بالمدينة وحوالي المدينة[6]، والأعراب الذين كانوا حول حول المدينة مزينة، وجهينة، وأشجع، وأسلم، وغفار[7].

([1]) مزينة: قبيلة من مضر، وهم: مزينة بن أد بن طابخة، وقيل هم بنو مر بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر واسم ولده عثمان وأوس، وامهما مزينة، فسمى جميع ولديهما بها، كانت مساكن مزينة بين المدينة ووادي القرى. انظر كحالة، معجم قبائل العرب، ج 3، ص1083، وفي معجم البلدان للحموي أن النقعاء: موضع خلف المدينة فوق النقيع من ديار مزينة وكان طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة بني المصطلق وله ذكر في المغازي، انظر: الحموي، معجم البلدان، ج4، ص 398 .

([2]) عصية: بطن من بلي، من قضاعة، من القحطانية، وقيل: بطن من تميم بن مر، من العدنانية، انظر: كحالة، معجم قبائل العرب، ج2، ص 786 .

([3]) لحيان: قبيلة، ردهة لبني أبي بكر بن كلاب، انظر: الحموي، معجم البلدان، ج4، ص176. وانظر: كحالة، معجم قبائل العرب، ج3، ص1010، في أن لحيان: عشيرة من هذيل الشمال تقيم في الجهة الشرقية من مكة، من العدنانية، وهم: بنو لحيان ابن هذيل بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

([4]) انظر: أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج 5، ص 94، البغوي، معالم التنزيل، ج4، ص89 ، وانظر: الواحدي، أسباب النزول، باب رقم 257، ص 263 .

([5]) الزمخشري، الكشاف، ج2، ص 211 .

([6]) السمرقندي، بحر العلوم، ج2، ص 97.

([7]) الرازي، مفاتيح الغيب، ج 15، ص229 .

وهذه الطائفة من منافقي المدينة جاء ذكرها في السورة بعد بيان فضائل قوم وشريحة هامة قوية أعلى وأعظم الشرائح منزلة ومكانة وهم طبقات ثلاث وهم:

السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار:

قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[التوبة: 100]، وهذه الطبقة من المسلمين-بمجموعاتها الثلاث: ﴿السَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، وَالأَنْصَارِ، وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾- كانت تؤلف القاعدة الصلبة للمجتمع المسلم في الجزيرة بعد الفتح، وكانت هي التي تمسك هذا المجتمع كله في كل شدة، وفي كل رخاء كذلك: فابتلاء الرخاء كثيراً ما يكون أصعب وأخطر من ابتلاء الشدة[1]، والذين سبقوا الناس أولاً إلى الإيمان بالله ورسوله ﴿مِنَ الْمُهَاجِرِينَ﴾، الذين هاجروا قومهم وعشيرتهم، وفارقوا منازلهم وأوطانهم و﴿الأَنْصَارِ﴾، الذين نصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم على أعدائه من أهل الكفر بالله ورسوله ﴿والَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾، الذين سَلَكوا سبيلهم في الإيمان بالله ورسوله، والهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام، طلبَ رضا الله[2]؛ وقد وردت أقوال متعددة في اعتبار من هم السابقون من المهاجرين والأنصار، فقيل: هم الذين هاجروا ونصروا قبل بدر وقيل: هم الذين صلوا للقبلتين، وقيل: هم أهل بدر، وقيل: هم الذين هاجروا ونصروا قبل الحديبية، وقيل: هم أهل بيعة الرضوان، وقيل هم جميع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، حصل لهم السبق بصحبته، وقيل هم الذين أسلموا قبل الهجرة ، وقيل: هم السابقون بالموت والشهادة، سبقوا إلى ثواب الله تعالى ...[3]

وقيل إن (-وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ- الذين يعنيهم هذا النص وهو يتحدث عما كان واقعاً إبان غزوة تبوك -فهم الذين اتبعوا طريقهم وآمنوا إيمانهم وأبلوا بلاءهم بعد ذلك، وارتفعوا إلى مستواهم الإيماني- وإن بقيت للسابقين سابقتهم بسبقهم في فترة الشدة

([1]) انظر: قطب، سيد، ج3، ص 1702 .

([2]) الطبري، جامع البيان، ج 14، ص 434 .

([3]) انظر: الطبري، جامع البيان، ج 14، ص435-ص 438، وانظر: ابن الجوزي، زاد المسير، ج3، ص 333.

قبل بدر، وهي أشد الفترات طبعاً)[1] وهؤلاء الطبقات الثلاث ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ في إيمانهم وإسلامهم وإحسانهم وأعلاه ما كان من هجرتهم وجهادهم، فقبل طاعتهم، وغفر سيئاتهم، وتجاوز عن زلاتهم، إذ بهم أعز الإسلام، ونكل بأعدائه من المشركين وأهل الكتاب... وقد ورد ذكر الطبقات الثلاث من الصحابة –وتصديقاً لهذا الكلام– في آخر سورة الأنفال بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ﴾[سورة الأنفال: 75]. وذكرت في تفسيرها آيات سورة الحشر بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ﴾ [سورة الحشر: 10]، وقوله تعالى: ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾[سورة الجمعة: 3].[2]

وحين نراجع السور المدنية؛ فإننا نطّلع على الجهد الكبير الذي بُذِل في عملية الصهر الجديدة المستمرة للعناصر المتنوعة في المجتمع المسلم؛ وبخاصة أن هذه العناصر ظلت تتوارد على هذا المجتمع؛ على الرغم من وقفة قريش العنيدة وتأليبها لكل قبائل الجزيرة؛ ومن وقفة اليهود البشعة وتأليبهم كذلك للعناصر المعادية للدين الجديد والتجمع الجديد، وشيئاً فشيئاً كانت هذه العناصر تنصهر وتتطهر وتتناسق مع القاعدة، ويقل عدد الناشزين من ضعاف القلوب ومن المنافقين، ومن المترددين كذلك، والمتهيبين ومن لم يتم في نفوسهم الوضوح العقيدي الذي يقيمون على أساسه كل علاقتهم مع الآخرين، حتى إذا كان قبيل فتح مكة كان المجتمع الإسلامي أقرب ما يكون إلى التناسق التام مع قاعدته الصلبة الخالصة ، وأقرب ما يكون بجملته إلى النموذج الذي يهدف إليه المنهج التربوي الرباني الفريد ...[3]

2.5.2 أصناف خاصة من المؤمنين:

وهؤلاء الأصناف من المؤمنين ظهروا أثناء وبعد غزوة تبوك، وهم الذين تخلفوا عن المشاركة؛ وقد استطاع رسول الله –صلى الله عليه وسلم– بإدارته وحكمته التعامل

(1) قطب، سيد، ج3، ص 1703 .

(2) انظر: الطبري، جامع البيان، ج 14، ص438–439، وانظر: رضا، محمد رشيد، المنار، ج 11، ص 15–16 .

(3) انظر: قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج 3، ص 1704 – 1705 .

معهم؛ وقد تحدثت عن بعضهم من خلال الأزمة السياسية عند الحديث عن معوقات الجهاد ومنهم:

المتثاقلون عن الجهاد: يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلا قَلِيلٌ﴾[التوبة: 38] ومعنى الكلام: ما لكم أيها المؤمنون، إذا قيل لكم: اخرجُوا غزاة "في سبيل الله"، أي: في جهاد أعداء الله ﴿اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأرْضِ﴾، يقول: تثاقلتم إلى لزوم أرضكم ومساكنكم والجلوس فيها[1]، وكان من أسباب تثاقلهم أمور: إن الزمن كان وقت حر، وإنهم كانوا قريبي عهد بالرجوع من غزوتي الطائف وحنين، وإنهم كانوا في عسرة شديدة وجهد شديد وقلة طعام، وإن موسم الرطب بالمدينة قد تم صلاحه، وآن وقت تلطف الحر[2]، وفي هذا توبيخ على ترك الجهاد، وعتاب على التقاعد عن المبادرة إلى الخروج، وهو نحو من أخلد إلى الأرض[3]، وهؤلاء المتثاقلون هم بعض من الجماعات والشرائح والتي قد لا تشكل خطراً على المجتمع كالطبقات المذكورة في بداية ووسط السورة، ومن هذه الشرائح أيضاً: جماعة كانوا وما زالوا متواجدين وفي كل زمان ومكان وبأي مجتمع وهم كما قال تعالى: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[التوبة: 102]، وهؤلاء من المؤمنين الذين خلطوا عملاً صالحاً بعمل سيء، وسيئاً بصالح، فليسوا من الصالحين الخلص ولا من الفاسقين أو المنافقين، ذلك بأنهم آمنوا وعملوا الصالحات، واقترفوا بعض السيئات، وهم أو منهم بعض الذين تخلفوا عن النفر والخروج إلى غزوة تبوك من غير عذر صحيح... ثم كانوا ناصحين لله، شاعرين بذنبهم، خائفين من ربهم... لم يعتذروا بالأعذار الكاذبة كما اعتذر المنافقون[4]، وقيل إن هذه الآية نزلت في قوم كانوا قد تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك ثم ندموا على ذلك، وقالوا: نكون في الكن والظلال مع

([1]) الطبري، جامع البيان، ج14، ص 252 .

([2]) المراغي، تفسير المراغي، ج 10، ص 119.

([3]) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج7، ص 140 .

([4]) انظر: رضا، محمد رشيد، المنار، ج 11، ص20-21 .

النساء ورسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه في الجهاد، والله لنوثقن أنفسنا بالسواري؛ فلا نطلقها حتى يكون الرسول هو يطلقها ويعذرنا، وأوثقوا أنفسهم بسواري المسجد، فلما رجع رسول الله –صلى الله عليه وسلم– مر بهم فرآهم، فقال: من هؤلاء؟ قالوا: هؤلاء تخلفوا عنك، فعاهدوا الله أن لا يطلقوا أنفسهم حتى تكون أنت الذي تطلقهم وترضى عنهم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم حتى أؤمر بإطلاقهم، رغبوا عني وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين، فأنزل الله تعالى هذه الآية، فلما نزلت أرسل إليهم النبي صلوات الله عليه وأطلقهم وعذرهم، فلما أطلقهم قالوا: يا رسول الله هذه أموالنا التي خلفتنا عنك فتصدق بها عنا وطهرنا واستغفر لنا، فقال: ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئاً، فأنزل الله عز وجل ﴿خُذ مِن أَموالِهِم صَدَقَةً تُطَهِّرُهُم﴾ الآية. وقال ابن عباس: كانوا عشرة رهط...[1]، وهذا الصنف من الناسِ كثير، فالإنسانُ ضعيفٌ، والمغرياتُ كثيرةٌ، والنفسُ أمّارة بالسوء، ونحمدُ اللهَ تعالى على أن جعل باب التوبة مفتوحاً دائماً، ولذلك قال تعالى في نهاية الآية: ﴿عَسَى الله أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[التوبة: 102]؛ فالاعتراف بالذنب والشعورُ بوطأته دليلٌ على حياة القلب، ومن ثَمّ فإن التوبة مرجُوَّة القبول، والمغفرة مرتقبة من الغفور الرحيم، وهذا ينطبق على كل مسلم يخطئ ثم يرجع الى الله؛ بل ان هذه الفئة من الناس هي الغالبية العظمة من البشر، يخطئون ويتوبون، ولكن الله رؤوف رحيم تواب يقبل التوبة[2]، ثم وضح الله لرسوله كيف يعامل هؤلاء الذين يريدون التوبة، فقال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صلاوتك سَكَنٌ لَّهُمْ والله سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[التوبة: 103]، أي: خذْ أيها الرسول من أموال هؤلاء التائبين صدقات تطهرهم بها من الذنوب والشحُّ، وترفع درجاتهم عند الله وتنمِّيهم وترفعهم عن خسيس منازل أهل النفاق بها، إلى منازل أهل الإخلاص، وادعُ لهم بالخير والهداية... فإن دعاءك تطمئنّ به قلوبُهم، بأن الله قد عفا عنهم وقبل توبتهم والله سميع للدعاء عليمٌ بالمخلصين في توبتهم[3]، ونحن نلاحظ في آيات سورة التوبة ومن أولها أن الشدة

([1]) الواحدي، أسباب النزول، باب 258، ص 263 .

([2]) انظر: المراغي، أحمد مصطفى، تفسير المراغي ج 11، ص 14 .

([3]) انظر: الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج14، ص 454 .

المذكورة فيها ما هي إلا رحمة وفضل من الله تعالى لأنها تحث على التوبة، حتى لأشد الناس كفراً ونفاقاً ومعصيةً.

وهناك الشريحة التي قامت بفعل أشياء تُخِلّ بالأمن العام والأنظمة والقوانين في الدولة المسلمة، وخالفت أوامر رسول الله عليه السلام وجموع المسلمين؛ ومنهم الذين تخلفوا عن الغزوة، وهم الذين أُرجيء الحكم في أمرهم، ويقضي الله فيهم بقضائه، قال تعالى: ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[التوبة: 106]، وهم نفرٌ ممن كان تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك، فندموا على ما فعلوا، ولم يعتذروا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عند مقدمه، ولم يوثقوا أنفسهم بالسواري، فأرجأ الله أمرهم إلى أن صحَّت توبتهم، فتاب عليهم وعفا عنهم[1]، وقيل : نزلت في كعب بن مالك ومرارة بن الربيع أحد بني عمرو بن عوف وهلال بن أمية من بني واقف تخلفوا عن غزوة تبوك، وهم الذين ذكروا في قوله تعالى: ﴿وَعَلى الثَلاثَةِ الَّذينَ خُلِّفوا﴾ الآية...[2]، وهم: الثلاثة الذين خلفوا في غزوة تبوك، وهم جماعة من المؤمنين تخلفوا عن رسول الله تهاوناً وكسلا لا كفراً وعناداً؛ وهم رهط من الأنصار، فوقف أمرهم الى الله تعالى خمسين ليلة، وهجرهم الناس، وكانوا بأزمة وضيق شديد حتى نزلت توبتهم، وهم الذين ذكروا في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[التوبة: 118]، وكانوا قد قعدوا عن غزوة تبوك ميلاً إلى الدعة، واسترواحاً للظلال في حر الهاجرة.[3] ولكن توبة الله شملتهم؛ فهو التواب الرحيم: ﴿وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ اتسعت، ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ غماً وهماً، ﴿وَظَنُّوا﴾ أي: تيقنوا، ﴿أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ﴾ لا مفزع من الله،

([1]) الطبري، جامع البيان، ج 14، ص 464 .

([2]) الواحدي، أسباب نزول القرآن، باب 259 ، ص 264 .

([3]) انظر: الواحدي، أسباب النزول، باب 259، ص264، وانظر: قطب، في ظلال القرآن، ج3، ص 1709 .

﴿إلا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ أي: ليستقيموا على التوبة فإن توبتهم قد سبقت، ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.[1]

أما الضعفاء والمرضى والفقراء : فهم شريحة في الدولة المسلمة ذكرتها سورة التوبة؛ وهم جماعة من مجتمع المدينة تخلفوا عن غزوة تبوك ليس تكاسلاً أو كرهاً بالمشاركة ولكن لضعف وعجز فيهم؛ وهم موجودون في كل زمان ومكان، وهم في هذه السورة الذين قال تعالى فيهم: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَى وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ *وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾[التوبة: 92/91].

وهم: أهل الزمانة[2]، وأهل العجز عن السفر والغزو، والمرضى، والفقراء[3] ومن هؤلاء (أهل العجز والضعف) ما ذكروا في قوله تعالى: ﴿وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾[التوبة: 92]، فقد نزلت في البكائين وكانوا سبعة، واختُلف في عددهم وأسمائهم فقيل أنهم: معقل بن يسار وصخر بن خنيس وعبد الله بن كعب الأنصاري وسالم بن عمير وثعلبة بن غنمة وعبد الله بن مغفل، أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا نبي الله إن الله عز وجل قد ندبنا للخروج معك، فاحملنا على الخفاف المرقوعة والنعال المخصوفة نغزو معك، فقال: لا أجد ما أحملكم عليه، فتولوا وهم

---

(1) البغوي، معالم التنزيل، ج 4، ص 109 .

(2) الزَّمانة، أي الآفة والابتلاء، يقالُ: رجلٌ زمِنٌ، أي: مُبتَلىً، انظر: الفارابي، أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم بن الحسين (ت 350هـ)، معجم ديوان الأدب، تحقيق: دكتور أحمد مختار عمر، مؤسسة دار الشعب للصحافة والطباعة والنشر، القاهرة، 2003م، ج2، ص253 .

(3) الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج 14، ص 421 .

يبكون. وقال مجاهد: نزلت في بني مقرن معقل وسويد والنعمان[1]، وقيل هم سبعة؛ النعمان بن مقرن[2]، وسويد بن مقرن، ومعقل بن مقرّن، وسنان بن مقرّن، وعقيل بن مقرّن، وعبد الرحمن بن مقرن، وعبد الرحمن بن عقيل بن مقرن.[3]

وهناك من المؤمنين من فترت هممهم –أول الأمر–، فلما جد الرحيل وانطلق الجيش، أحسوا خطر التخلف على إيمانهم، فنهضوا يدركون ما يوشك أن يفوتهم، منهم "أبو خيثمة" حيث أنه: رجع بعد أن سار رسول الله صلى الله عليه وسلم أياما إلى أهله في يوم حار، فوجد امرأتين له في عريشين لهما في حائطه، قد رشت كل واحدة منهما عريشها، وبردت له فيه ماء، وهيأت له فيه طعاماً؛ فلما دخل، قام على باب العريش، فنظر إلى امرأتيه وما صنعتا له، فقال: رسول الله صلى الله عليه وسلم في الضح والريح والحر، وأبو خيثمة في ظل بارد، وطعام مهيأ، وامرأة حسناء، في ماله مقيم، ما هذا بالنصف! ثم قال: والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله صلى الله عليه وسلم، فهيئا، لي زاداً، ففعلتا، ثم قدم ناضحه فارتحله، ثم خرج في طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أدركه حين نزل تبوك[4]، (وهو الذي تصدَّق

([1]) الواحدي، أسباب النزول، باب 255، ص 262.

([2]) النعمان بن مقرن بن عائذ المزني، أبو عمرو: صحابي فاتح ، من الامراء القادة الشجعان، كان معه لواء "مزينة" يوم فتح مكة، قاد عدة جيوش بأمر من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– وهاجم نهاوند فاستشهد فيها عام 21 هـ، ولما بلغ عمر مقتله، دخل المسجد ونعاه إلى الناس على المنبر ثم وضع يده على رأسه يبكي ، انظر: الزركلي، الأعلام، ج8، ص 42 .

([3]) انظر: ابن الجوزي، زاد المسير، ج 3، ص 330 .

([4]) ابن هشام، السيرة النبوية، تهذيب عبد السلام هارون، ص288–289، وانظر: الغزالي، محمد، فقه السيرة، ص439، والعريش: شبيه بالخيمة، يظلل ليكون أبرد الأخبية والبيوت، والحائط: البستان، والضح: (بالكسر): الشمس، انظر السيرة النبوية لابن هشام المؤلف: عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين (ت 213هـ) تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط2، 1375هـ–1955 م

بصاع التمر، فلمزه المنافقون)[1].

وهؤلاء هم من أصناف المؤمنين ذكرتهم السورة ، وهم شرائح من المجتمع وقت نزول السورة، وما تزال هذه الأصناف موجودة تصيب وتخطيء ... نسأل الله تعالى التوبة والرحمة.

([1]) الطبري، جامع البيان، ج14، ص 549 .

الفصل الثالث

الأزمات الجزئية الخاصة في السورة

هذا النوع من الأزمات الخاصة الجزئية تنحصر في جزء أو أكثر من أجزاء الكيان التي حدثت به الأزمة... فإذا لم تعالج هذه الأزمة في حينها تحولت إلى أزمة كلية على مستوى الدولة ككل [1] وفي سورة التوبة بعض الأزمات التي انحصر خطرها على جزء من المجتمع؛ والتي لو لم يعالجها القرآن الكريم لامتد خطرها ليشمل الدولة والأمة المسلمة جميعها، وقد اشتمل هذا الفصل على هذه المباحث :

1.3 الأزمة الدينية العقدية:

يعنى بها حدوث تغيير غير متوقع في المعتقدات الدينية، الذي يؤدي الى اضطراب في المجتمع، وإعاقة أخذ القرار ويمثل الأزمة العقدية جهر الرسول –صلى الله عليه وسلم– بالدعوة بعد ثلاث سنوات من الدعوة السرية مما أحدث أزمة عقدية ما بين التوحيد والشرك)[2] وهذا التعريف عنى بالأزمة العقدية في بداية الدعوة الإسلامية في مكة، ولم يشمل الأزمات التي واجهته عليه السلام بما يخص العقيدة في العهد المدني، ولم أجد لها تعريفاً خاصاً يناسب ما ذكر من أزمات دينية في السورة فاجتهدت تعريفها بأنها "التغيير المفاجيء وغير المفاجيء عند جماعة من أهل المدينة وما حولها فيما يخص العقيدة الإسلامية والتي أصبحت راسخة في قلوب أهلها من المؤمنين، رسوخاً لا يقبل الإزاحة أو التغيير، وهم يعيشون في ظل هذه العقيدة محققين غاياتها وأهدافها؛ مما لا يقبلون معها أي مخالفة أو تقصير ويجاهدون لنصرتها ومحاربة مخالفيها" (وذلك لأن الدين والعقيدة وثقافة الفرد والمجتمع أحد أكبر العناصر البيئية شديدة التأثير على أداء الأزمة، خاصة التي يكون محورها الأفراد، كما أنها تضع قيوداً على حركتهم، وتجعل من السهل التنبؤ بمسار الأزمة واتجاهها، لمعرفة متخذ القرار للهدف العام النهائي الذي يرغب هؤلاء الأفراد الوصول إليه، ومن ثم

([1]) انظر: الخضيري، محسن أحمد، إدارة الأزمات، ص 72–84 .

([2]) الجمل، صديقة محمد سليمان، الهدي النبوي في ادارة الأزمات الاجتماعية العامة، ص23.

التعامل معهم بالشكل الذي يتوافق مع هذه العقيدة، أو مع ثقافتهم، وليس العكس...)[1] وسأخص في هذا المبحث الأزمات الجزئية عند أهل الضلال ضمن الأزمة الدينية في العهد المدني وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: الولاية بين المؤمنين والكافرين، والحب لغير الله تعالى .

المطلب الثاني: الكفر بإطاعة الرؤساء والعلماء، واتخاذهم إياهم أربابا عند أهل الكتاب.

المطلب الثالث: تغيير حكم الله، اتباعاً للهوى وسوء التأويل، ومنها: "النسيء".

المطلب الرابع: أزمة النفاق .

1.1.3 الولاية بين المؤمنين والكافرين، والحب لغير الله تعالى:

الولاء: التناصر والتعاون، والوَلاية: النصرة والتولي[2]، وهو أن يحصل شيئان حصولاً ليس بينهما ما ليس منهما... ويستعار لذلك للقرب من حيث المكان، ومن حيث النسبة، ومن حيث الدين ومن حيث الصداقة والاعتقاد... ونفى الله تعالى الولاية بين المؤمنين والكافرين في غير آية...[3]، قال تعالى مبيناً أهل ولايته، ووجوب الإخلاص لله تعالى في العبادات، وخص هنا الجهاد فقال : ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلا رَسُولِهِ وَلا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[التوبة: 16].

والخطاب للمسلمين، على تفاوت مراتبهم في مدّة إسلامهم؛ فشمل المنافقين لأنهم أظهروا الإسلام[4]، ومعناه: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ أظننتم، أن تُتركوا فلا تؤمروا بالجهاد، ولا تمتحنوا، ليظهر الصادق من الكاذب، ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ﴾ ولم يرَ الله ﴿الَّذِينَ جَاهَدُوا

([1]) الخضيري، محسن أحمد، إدارة الأزمات، ص 47.

([2]) الكفوي، الكليات، ص 941.

([3]) انظر: الأصفهاني، المفردات، مادة ولي، ص 885.

([4]) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 1، ص 137 .

مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلا رَسُولِهِ وَلا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ بطانةً وأولياء يوالونهم ويفشون إليهم أسرارهم.(1)

وهنا نهى الله المؤمنين أن يتخذوا من عدوهم من المشركين أولياء ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، يقول: والله ذو خبرة بما تعملون، من اتخاذكم من دون الله ودون رسوله والمؤمنين به أولياءَ وبطانةً، بعد ما قد نهاكم عنه، لا يخفى ذلك عليه، ولا غيره من أعمالكم، والله مجازيكم على ذلك، إن خيرًا فخيرًا، وإن شرًّا فشرًّا.(2)

(والمقصود من ذكر هذا الشرط في قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ الله وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ المؤمنين وَلِيجَةً﴾، أن المجاهد قد يجاهد ولا يكون مخلصاً بل يكون منافقاً، باطنه خلاف ظاهره، وهو الذي يتخذ الوليجة من دون الله ورسوله والمؤمنين، فبين تعالى أنه لا يتركهم إلا إذا أتوا بالجهاد مع الإخلاص خالياً عن النفاق والرياء والتودد إلى الكفار وإبطال ما يخالف طريقة الدين، والمقصود بيان أنه ليس الغرض من إيجاب القتال نفس القتال فقط، بل الغرض أن يؤتى به انقياداً لأمر الله عز وجل ولحكمه وتكليفه، ليظهر به بذل النفس والمال في طلب رضوان الله تعالى فحينئذ يحصل به الانتفاع، وأما الإقدام على القتال لسائر الأغراض فذاك مما لا يفيد أصلاً.(3)

ثم يأتي الخطاب للمؤمنين بقطع الموالاة بينهم وبين الكافرين جميعاً، وأنه يتعين تقديم محبة اللّه ورسوله على محبة كل شيء، وجعل محبة جميع الأشياء الأخرى تابعة لهما، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[التوبة: 24/23].

وفي سبب نزول قوله تعالى: ﴿يا أَيُّها الَّذينَ آَمَنوا لا تَتَّخِذوا آَباءَكُم وَإِخوانَكُم﴾ الآية أنه: لما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهجرة إلى المدينة جعل الرجل

---

(1) البغوي، معالم التنزيل، ج 4، ص19.

(2) الطبري، جامع البيان، ج14، ص 163 – 164 .

(3) الرازي، مفاتيح الغيب، ج 15، ص 7 .

يقول لأبيه وأخيه وامرأته: إنا قد أمرنا بالهجرة، فمنهم من يسرع إلى ذلك ويعجبه، ومنهم من يتعلق به زوجته وعياله وولده، فيقولون: نشدناك الله أن تدعنا إلى غير شيء فنضيع، فيرق فيجلس معهم ويدع الهجرة، فنزلت يعاتبهم ﴿يا أَيُّها الَّذينَ آَمَنوا لا تَتَّخِذوا آَباءَكُم وَإِخوانَكُم﴾ الآية، ونزلت في الذين تخلفوا بمكة ولم يهاجروا قوله تعالى ﴿قُل إِن كانَ آَباؤُكُم وَأَبناؤُكُم﴾ إلى قوله ﴿فَتَرَبَّصوا حَتّى يَأتِيَ اللهُ بِأَمرِهِ﴾ يعني القتال وفتح مكة.[1]

ويروي السيوطي أنه لما قدم علي بن أبي طالب مكة، قال لقوم سماهم: ألا تهاجروا ألا تلحقوا برسول الله –صلى الله عليه وسلم– فقالوا نقيم مع إخواننا وعشائرنا ومساكننا فأنزل الله ﴿قُل إِن كانَ آَباؤُكُم وَأَبناؤُكُم﴾ الآية كلها.[2]

وظاهر هذه الآية أنها خطاب لجميع المؤمنين كافة، وهي باقية الحكم إلى يوم القيامة في قطع الولاية بين المؤمنين والكافرين؛ في المؤمنين الذين كانوا بمكة وغيرها من بلاد العرب، خوطبوا بألّا يوالوا الآباء والاخوة فيكونوا لهم تبعا في سكنى بلاد الكفر؛ فلا تطيعوهم ولا تخصوهم، وخص الله سبحانه الآباء والاخوة إذ لا قرابة أقرب منها، فنفى الموالاة بينهم كما نفاها بين الناس بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: 51] ليبين أن القرب قرب الاديان لا قرب الابدان[3]، وهكذا تتقطع أواصر الدم والنسب، إذا انقطعت آصرة القلب والعقيدة، وتبطل ولاية القرابة في الأسرة إذا بطلت ولاية القرابة في الله؛ فلله الولاية الأولى، وفيها ترتبط البشرية جميعاً، فإذا لم تكن فلا ولاية بعد ذلك، والحبل مقطوع والعروة منقوضة، ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ و﴿الظَّالِمُونَ﴾ هنا تعني المشركين، فولاية الأهل والقوم ﴿إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ﴾ شرك لا يتفق مع الإيمان.[4]

([1]) الواحدي، أسباب النزول، حديث رقم 240، ص 248 .

([2]) السيوطي، لباب النزول في أسباب النزول، حديث رقم 466، ص 132– 133 .

([3]) انظر: القرطبي، الجامع لأحكان القرآن، ج7، ص 93 – 94 .

([4]) قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج3، ص 1615 .

(وأصل الولاية: المحبة والنصرة، وذلك أن اتخاذهم أولياء، موجب لتقديم طاعتهم على طاعة اللّه، ومحبتهم على محبة اللّه ورسوله، فقال: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ﴾ ومثلهم الأمهات ﴿وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ﴾ في النسب والعشرة ﴿وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ أي: قراباتكم عموما ﴿وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ أي: اكتسبتموها وتعبتم في تحصيلها، خصها بالذكر؛ لأنها أرغب عند أهلها، وصاحبها أشد حرصاً عليها ممن تأتيه الأموال من غير تعب ولا كَدّ، ﴿وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ أي: رخصها ونقصها، وهذا شامل لجميع أنواع التجارات والمكاسب من عروض التجارات...وغيرها، ﴿وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا﴾ من حسنها وزخرفتها وموافقتها لأهوائكم، فإن كانت هذه الأشياء ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ﴾ فأنتم فسقة ظلمة، ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ أي: انتظروا ما يحل بكم من العقاب ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ الذي لا مرد له، ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: الخارجين عن طاعة اللّه، المقدمين على محبة اللّه شيئا من المذكورات.[1] ولما كان من آثر حب شيء من ذلك على حبه تعالى، كان مارقاً من دينه راجعاً إلى دين من آثره، وكان التقدير: فيصيبكم بقارعة لا تطيقونها ولا تهتدون إلى دفعها بنوع حلية، لأنكم اخترتم لأنفسكم منابذة الهداية ومعلوم أن من كان كذلك فهو مطبوع في الفسق.[2]

2.1.3 الكفر بإطاعة الرؤساء والعلماء، واتخاذهم إياهم أرباباً عند أهل الكتاب:

ويقصد بالرُّبوبية هنا: أن يطيعَ الناس سادَتهم وقادتهم في غير عبادة، وإن لم يصلُّوا لهم[3]، وهي اتخاذ اليهود والنصارى رؤساء الدين فيهم أرباباً، فاليهود اتخذوا أحبارهم وهم علماء الدين فيهم أربابا بما أعطوهم من حق التشريع فيهم وأطاعوهم فيه، والنصارى اتخذوا رهبانهم أي عبادهم الذين يخضع العوام لهم أربابا كذلك.[4]

([1]) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ج1، ص 332 .

([2]) البقاعي، نظم الدرر، ج8 ، ص 422.

([3]) الطبري، جامع البيان، ج6 ، ص 488 .

([4]) رضا، المنار، ج 10، ص 364 .

قال تعالى في حديثه عن أهل الكتاب في سورة التوبة ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إلا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة: 31 /32].

والأحبار: علماء اليهود، والرهبان اسم جمع لراهب وهو التقي المنقطع لعبادة الله من أهل دين النصرانية، ومعنى اتّخاذهم هؤلاء أرباباً أنّ اليهود ادّعوا لبعضهم بنوةَ الله تعالى وذلك تأليه، وأنّ النصارى أشدّ منهم في ذلك إذ كانوا يسجدون لصور عظماء ملّتهم مثل صورة مريم، وصور الحواريين، وصورة يحيى بن زكريا، والسجود من شعار الربوبية، وكانوا يستنصرون بهم في حروبهم ولا يستنصرون بالله وهذا حال كثير من طوائفهم وفرقهم، ولأنّهم كانوا يأخذون بأقْوال أحبارهم ورهبانهم المخالفة لما هو معلوم بالضرورة أنّه من الدين،فكانوا يعتقدون أنّ أحبارهم ورهبانهم يحلّلون ما حرم الله، ويحرّمون ما أحلّ الله،وهذا مطرد في جميع أهل الدينين، ولذلك أفحم به النبي–صلى الله عليه وسلم– عدياً بنَ حاتم لمّا وفد عليه قُبيل إسلامه لما سمع قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾[1]، والقصة أنه جاء في الحديث (عن عدي بن حاتم قال: أتيت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وفي عُنُقي صليبٌ من ذهب، فقال: يا عديّ، اطرح هذا الوثنَ من عنقك! قال: فطرحته، وانتهيت إليه وهو يقرأ في "سورة براءة"، فقرأ هذه الآية: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، قال قلت: يا رسول الله، إنا لسنا نعبدُهم! فقال: أليس يحرِّمون ما أحلَّ الله فتحرِّمونه، ويحلُّون ما حرَّم الله فتحلُّونه؟ قال: قلت: بلى! قال: فتلك عبادتهم [2] .

ويعني قوله تعالى: (﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ بأن أطاعوهم في تحريم ما أحل الله وتحليل ما حرم الله أو بالسجود لهم، ﴿وَالْمَسِيحَ ابْنَ

([1]) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 1، ص 170 .

([2]) الطبري، جامع البيان، ج14، ص 210، الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب سورة التوبة، حديث رقم 3095، ج5، ص 129، وقال أبو عيسى هذا حديث غريب، وقال الشيخ الألباني: حسن، رواه ابن أبي حاتم، وغيره ... انظر تخريج السيوطي، عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين، الدر المنثور، دار الفكر، بيروت، 1993، ج 4، ص 174.

مَرْيَمَ﴾ بأن جعلوه ابناً لله. ﴿وَمَا أُمِرُواْ﴾ أي وما أمر المتخذون أو المتخذون أرباباً فيكون كالدليل على بطلان الاتخاذ، ﴿إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ﴾ ليطيعوا. ﴿إلها واحدا﴾ وهو الله تعالى وأما طاعة الرسول وسائر من أمر الله بطاعته فهو في الحقيقة طاعة لله، ﴿لاَّ إله إِلاَّ هُوَ﴾ صفة ثانية أو استئناف مقرر للتوحيد، ﴿سبحانه عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تنزيه له عن أن يكون له شريك)[1]، ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُواْ نُورَ الله﴾ والمرادُ بنور الله سبحانه إما حجتُه النيرةُ الدالةُ على وحدانيته وتنزُّهِه عن الشركاء والأولادِ أو القرآن العظيمِ الناطقِ بذلك أي يريد أهلُ الكتابين أن يردّوا القرآنَ ويكذّبوه فيما نطَق به من التوحيد والتنزُّه عن الشركاء والأولادِ والشرائعِ التي من جملتها ما خالفوه من أمر الحِلِّ والحُرمة ﴿بأفواههم﴾ بأقاويلهم الباطلةِ الخارجةِ منها من غير أن يكونَ لها مصداقٌ تنطبقُ عليه أو أصلٌ تستند إليه حسبما حُكي عنهم، وقيل: المرادُ به نُبوةُ النبي صلى الله عليه وسلم،﴿ويأبى الله﴾ أي لا يريد ﴿إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ﴾ بإعلاء كلمةِ التوحيدِ وإعرازِ دينِ الإسلامِ ﴿وَلَوْ كَرِهَ الكافرون﴾[2]، (ومن النص القرآني الواضح الدلالة؛ ومن تفسير رسول الله –صلى الله عليه وسلم–وهو فصل الخطاب، ثم من مفهومات المفسرين الأوائل والمتأخرين، تخلص لنا حقائق في العقيدة والدين ذات أهمية بالغة نشير إليها هنا بغاية الاختصار:

1–أن العبادة هي الاتباع في الشرائع بنص القرآن، وتفسير رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فاليهود والنصارى لم يتخذوا الأحبار والرهبان أرباباً بمعنى الاعتقاد بألوهيتهم أو تقديم الشعائر التعبدية إليهم... ومع هذا فقد حكم الله– سبحانه– عليهم بالشرك في هذه الآية– وبالكفر في آية تالية في السياق– لمجرد أنهم تلقوا منهم الشرائع فأطاعوها واتبعوها... فهذا وحده–دون الاعتقاد والشعائر– يكفي لاعتبار من يفعله مشركاً بالله، الشرك الذي يخرجه من عداد المؤمنين ويدخله في عداد الكافرين.

([1]) البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد (ت 691 هـ)، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث، بيروت، ط1، 1418 هـ، ج 3، ص 78– 79 .

([2]) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، ج3 ، ص 61 .

2-أن النص القرآني يسوي في الوصف بالشرك واتخاذ الأرباب من دون الله، بين اليهود الذين قبلوا التشريع من أحبارهم وأطاعوه واتبعوه، وبين النصارى الذين قالوا بألوهية المسيح اعتقاداً وقدموا إليه الشعائر في العبادة. فهذه كتلك سواء في اعتبار فاعلها مشركاً بالله، الشرك الذي يخرجه من عداد المؤمنين ويدخله في عداد الكافرين.

3-أن الشرك بالله يتحقق بمجرد إعطاء حق التشريع لغير الله من عباده؛ ولو لم يصحبه شرك في الاعتقاد بألوهيته؛ ولا تقديم الشعائر التعبدية له .[1]

وكان قد بين الله تعالى في الآيات السابقة مشابهة أهل الشرك بأهل الكتاب بأمورٍ كثيرة؛ ذلك وهو يتحدث عن أهل الكتاب فبيّن (لحاق اليهود والنصارى بأهل الشرك وإن اختلفت طرق الشرك في فرق بين من يعبد الصنم وبين من يعبد المسيح وغيره، لأنّ الشرك هو أنْ يتّخذ مع الله معبوداً، بل عابد الوثن أخف كفراً من النصراني، لأنه لا يعتقد أنّ الوثن خالق العالم ، والنصراني يقول بالحلول والاتحاد)[2]، فقال تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ* وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾[التوبة: 30/29].

فلما حكم الله تعالى في الآية الأولى على أهل الكتاب: اليهود والنصارى بأنهم لا يؤمنون بالله، شرح ذلك في الآية الثانية؛ وذلك بأن نقل عنهم أنهم أثبتوا لله ابنا، ومن جوز ذلك في حق الإله فهو في الحقيقة قد أنكر الإله، وأيضاً بيَّن تعالى أنهم بمنزلة المشركين في الشرك، بل لو تأملنا لعلمنا أن كفر عابد الوثن أخف من كفر النصارى، لأنه يجريه مجرى الشيء الذي يتوسل به إلى طاعة الله، أما النصارى فإنهم يثبتون الحلول والاتحاد وذلك كفر قبيح جداً، فثبت أنه لا فرق بين هؤلاء الحلولية وبين سائر المشركين[3]، ثم بيّن الله تعالى بعض عقائد المشركين التي تشابه عقائد أهل

([1]) قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج3، ص1642 .

([2]) أبو حيان، البحر المحيط، ج 5، ص31 .

([3]) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ج 15، ص34 .

الكتاب في التلاعب بالحلال والحرام، وتغيير أحكام الله تعالى، وعدم طاعة الله تعالى؛ اتباعاً لأهوائهم ومصالحهم، كما في "النسيء".

3.1.3 أزمة البدع الباطلة، والتلاعب بالحلال والحرام، وتغيير حكم الله تعالى؛ اتباعاً للهوى وسوء التأويل، ومنها، "النسيء":

يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾[التوبة: 37]، (وهو مما ذم الله تعالى به المشركون من تصرفهم في شرع الله تعالى بآرائهم الفاسدة، وتغييرهم أحكام الله تعالى بأهوائهم الباردة، وتحليلهم ما حرم الله وتحريمهم ما أحل الله، فإنهم كان فيهم من القوة الغضبية والشهامة والحمية ما استطالوا به مدة الأشهر الثلاثة في التحريم المانع لهم من قضاء أوطاره من قتال أعدائهم...)[1]، وهذا إفساد لدورة الزمن والتاريخ وحساب الأيام والشهور، بتأخير أو تقديم، وفي سبب نزول هذه الآية، ما روى السيوطي عن (ابن جرير عن أبي مالك قال كانوا يجعلون السنة ثلاثة عشر شهرا فيجعلون المحرم صفرا فيستحلون فيه المحرمات فأنزل الله ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾...[2]، وفي معنى ﴿النسيء﴾ قولان:

القول الأول: أنه التأخير، والقول الثاني: النسيء أصله من الزيادة، وبناء على هذين القولين: فإن القوم علموا أنهم لو رتبوا حسابهم على السنة القمرية، فإنه يقع حجهم تارة في الصيف وتارة في الشتاء، وكان يشق عليهم الأسفار ولم ينتفعوا بها في المرابحات والتجارات؛ لأن سائر الناس من سائر البلاد ما كانوا يحضرون إلا في الأوقات اللائقة الموافقة ، فعلموا أن بناء الأمر على رعاية السنة القمرية يخل بمصالح الدنيا، فتركوا ذلك واعتبروا السنة الشمسية، ولما كانت السنة الشمسية زائدة على السنة القمرية بمقدار معين، احتاجوا إلى الكبيسة وحصل لهم بسبب تلك الكبيسة أمران: أحدهما: أنهم كانوا يجعلون بعض السنين ثلاثة عشر شهراً بسبب اجتماع تلك

---

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج2، ص 392 .

(2) السيوطي، لباب النقول في أسباب النزول، حديث رقم 472، ص 134 .

الزيادات. والثاني: أنه كان ينتقل الحج من بعض الشهور القمرية إلى غيره، فكان الحج يقع في بعض السنين في ذي الحجة وبعده في المحرم وبعده في صفر، وهكذا في الدور حتى ينتهي بعد مدة مخصوصة مرة أخرى إلى ذي الحجة، فحصل بسبب الكبيسة هذان الأمران: أحدهما: الزيادة في عدة الشهور. والثاني: تأخير الحرمة الحاصلة لشهر إلى شهر آخر.[1]

وتلاعبوا بالأشهر "النسيء" أيضاً لأنهم كانوا أصحاب حروب وغارات، فإذا جاء الشهر الحرام وهم محاربون شقّ عليهم ترك المحاربة، فيحلّونه ويحرّمون مكانه شهر آخر، حتى رفضوا تخصيص الأشهر الحرم بالتحريم، فكانوا يحرّمون من شقّ شهور العام أربعة أشهر وذلك قوله تعالى: ﴿لِّيُوَاطِئُواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ الله﴾ أي ليوافقوا العدّة التي هي الأربعة ولا يخالفوها وقد خالفوا التخصيص الذي هو أحد الواجبين، وربما زادوا في عدد الشهور فيجعلونها ثلاثة عشر أو أربعة عشر ليتسع لهم الوقت، ولذلك قال عزّ وعلا ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشهور عِندَ الله اثنا عَشَرَ شَهْرا ﴾[التوبة: 36] يعني من غير زيادة زادوها. والضمير في: يحلونه، ويحرّمونه للنسيء. أي إذا أحلّوا شهراً من الأشهر الحرم عاماً، رجعوا فحرّموه في العام القابل وجعل النسيء زيادة في الكفر؛ لأن الكافر كلما أحدث معصية ازداد كفراً، ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إلى رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: 125]، كما أن المؤمن إذا أحدث الطاعة ازداد إيماناً ﴿فَزَادَتْهُمْ إيمانا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾[التوبة: 124][2]، ثم أنهم رأوا في (بناء العبادات على السنة القمرية يخل مصالح الدنيا ، وبناؤها على السنة الشمسية يفيد رعاية مصالح الدنيا والله تعالى أمرهم من وقت إبراهيم وإسمعيل عليهما السلام ببناء الأمر على رعاية السنة القمرية، فهم تركوا أمر الله في رعاية السنة القمرية، واعتبروا السنة الشمسية رعاية لمصالح الدنيا، وأوقعوا الحج في شهر آخر سوى الأشهر الحرم، فلهذا السبب عاب الله عليهم وجعله سبباً لزيادة كفرهم). [3]

([1]) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ج 15، ص 57- 59 .

([2]) انظر: الزمخشري، الكشاف، ج 2، ص 189 .

([3]) الرازي، مفاتيح الغيب، ج 15، ص 58

وبذلك فالنسيء عادة جاهلية ورأي فاسد عندهم: (كانوا يستعملونه في الأشهر الحرم، وكان من جملة بدعهم الباطلة، أنهم لما رأوا احتياجهم للقتال في بعض أوقات الأشهر الحرم، رأوا –بآرائهم الفاسدة– أن يحافظوا على عدة الأشهر الحرم، التي حرم اللّه القتال فيها، وأن يؤخروا بعض الأشهر الحرم، أو يقدموه، ويجعلوا مكانه من أشهر الحل ما أرادوا، فإذا جعلوه مكانه أحلوا القتال فيه، وجعلوا الشهر الحلال حراماً ، فهذا –كما أخبر اللّه عنهم– أنه زيادة في كفرهم وضلالهم، لما فيه من المحاذير، منها: أنهم ابتدعوه من تلقاء أنفسهم، وجعلوه بمنزلة شرع اللّه ودينه، واللّه ورسوله بريئان منه، ومنها: أنهم قلبوا الدين، فجعلوا الحلال حراما، والحرام حلالا، ومنها: أنهم مَوَّهوا على اللّه بزعمهم وعلى عباده، ولبسوا عليهم دينهم، واستعملوا الخداع والحيلة في دين اللّه، ومنها: أن العوائد المخالفة للشرع مع الاستمرار عليها، يزول قبحها عن النفوس، وربما ظن أنها عوائد حسنة، فحصل من الغلط والضلال ما حصل، ولهذا قال: ﴿يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ أي: ليوافقوها في العدد، فيحلوا ما حرم اللّه.[1]

(وبذلك يعلم أن النسيء تشريع ديني ملتزم غيروا به ملة إبراهيم اتباعاً للهوى وسوء التأويل، ومن ثم سماه الله زيادة في الكفر، أي إنه كفر بشرع دين لم يأذن به الله زائد على شركهم بالله وكفرهم به، إذ حق التشريع له وحده، فمنازعته في ذلك شرك في ربوبيته...[2]، وقد بيّن الله تعالى قبل ذلك أن الدين المستقيم في عدة أشهر السنة هي في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾[التوبة: 36].

(إن عدة شهور السنة ﴿اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾، الذي كتبَ فيه كل ما هو كائن في قضائه الذي قضى ﴿يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾، يقول: هذه الشهور الاثنا عشر منها أربعة أشهر حرم كانت الجاهلية تعظمهن، وتحرِّمهن، وتحرِّم القتال فيهن، حتى لو لقي الرجل منهم فيهن قاتل أبيه لم يَهِجْهُ،

([1]) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ج 1، ص 336 – 337.

([2]) المراغي، تفسير المراغ ، ج 10، ص 116 .

وهن: رجب مُضر وثلاثة متواليات، ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم. وبذلك تظاهرت الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأما قوله: ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾، فإن معناه: هذا الذي أخبرتكم به، من أن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرًا في كتاب الله، وأن منها أربعة حرمًا: هو الدين المستقيم(1)، فقد ورد في ذلك عن أبي بكرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال "إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهرا، منها أربعة حرم، ثلاث متواليات: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب، مضر الذي بين جمادى، وشعبان".(2)

4.1.3 أزمة النفاق:

تكاد تكون هذه الأزمة من أكبر الأزمات في السورة، والنفاق: مأخوذ من النافقاء وهو السرب الذي يستتر به لستره كفره، وهو الدخول في الإسلام من وجه والخروج عنه من آخر، وهو اسم إسلامي لم تعرفه العرب بالمعنى المخصوص به، وهو الذي يستر كفره ويُظهر إيمانه، وإن كان أصله في اللغة معروفاً، وجعل الله المنافقين شراً من الكافرين؛ فقال: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾[النساء: 145](3)، وهو الداء العضال الباطن، الذي يكون الرجل ممتلئاً به وهو لا يشعر فإنه أمر خفي على الناس، وكثيراً ما يخفى على من تلبّس به، فيزعم أنه مصلح وهو مفسد(4)، إذاً فأزمة النفاق تعتبر تغييراً مفاجئاً لدى الرسول والمؤمنين ظهرت في العهد المدني لم تكن تعرفه العرب قبل ذلك، وتعتبر من أخطر الأزمات

---

(1) انظر: الطبري، جامع البيان، ج 14، ص 234- 237

(2) البخاري، صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ...﴾[التوبة : 36]، حديث رقم 4662، ج6، ص 66 .

(3) انظر: ابن منظور، لسان العرب، ج8، ص657، مادة نفق، وانظر: الأصفهاني، المفردات، ص 819 .

(4) ابن القيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب، (ت 751هـ)، مدارج السالكين، تحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط7، 2003، ج1، ص 354.

التي مرت بها الدولة الإسلامية منذ العهد المدني وما زال، وهو من أخطر الأمراض التي يصعب البرء منه، أصحابه متشابهون في كل زمان ومكان.

وقد ذُكرت صفاتهم وأفعالهم في كثير من سور القرآن الكريم لعموم الابتلاء بهم وشدة فتنتهم على المجتمع الإسلامي وأفراده، ولما كانت سورة التوبة من أواخر السور نزولاً على رسول الله –صلى الله عليه وسلم– ولما كثر عدد المنافقين؛ كانت السورة الأكثر كشفاً للمنافقين وخيانتهم ومكرهم وفضح أفعالهم؛ بل انه من أكثر أسمائها ما كان بسبب ذلك ومنها (المقشقشة، والبحوث، والمبعثرة، والمنقرة، والمثيرة، والحافرة، والمخزية، والفاضحة، والمنكلة، والمشردة، والمدمدمة، وسورة العذاب، لما فيها من القشقشة للنفاق وهي التبري منه، والبحث عن حال المنافقين وإثارتها، والحفر عنها وما يخزيهم ويفضحهم وينكلهم ويشردهم ويدمدم عليهم)[1] وتكاد تكون أزمة النفاق من أخطر وأوسع الأزمات المذكورة في السورة لما للنفاق من خطورة على الفرد المسلم والمجتمعات الإسلامية منذ عهد النبوة إلى يومنا هذا، ولما لمرض النفاق الأثر البالغ في تفشي الأمراض القلبية والاجتماعية بين الناس وسلبهم الإحساس بالأمن والأمان وخطورتهم الواضحة على الحياة الدينية والسياسية في الدولة الإسلامية حتى يومنا هذا، وسأتناول بإذن الله تعالى هذه الأزمة في السورة من خلال عرض صفاتهم وأفعالهم المذكورة: و(هذه السورة أكثرها في شرح أحوال المنافقين ولا شك أنهم أقسام وأصناف، فلهذا السبب يذكرهم على التفصيل فيقول: ﴿وَمِنْهُمُ الذين يُؤْذُونَ النبى﴾[التوبة: 61] ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصدقات﴾[التوبة: 58] ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ ائذن لّي وَلاَ تَفْتِنّى﴾ [التوبة: 49] ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عاهد الله لَئِنْ ءاتانا مِن فَضْلِهِ﴾[التوبة :75].[2]

ويقول صاحب تفسير الجواهر في تفسير القرآن: أن الله تعالى ذكر عشرة أصناف من المنافقين في هذه السورة فمنهم المستأذنون في التخلف، ومنهم من يقول ائذن لي، ومنهم من يلمزك في الصدقات، ومنهم الذين يؤذون النبي، ومنهم من عاهد الله، ومنهم الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين، ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً، والذين اتخذوا مسجداً ضراراً، وممن حولكم من الأعراب منافقون، ومن أهل

([1]) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج3، ص 70.

([2]) الرازي، مفاتيح الغيب، ج 15، ص141.

المدينة...[1]، وسأبين باختصار شيء من صفاتهم المذكورة في السورة، والتي لابد لكل مسلم من التعرف عليها للحذر من شرورهم:

1- غايات المنافقين التي يقصدونها هي مصالحهم الدنيوية الزائلة فقط وليست الغايات السامية: يقول تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾[التوبة: 42].

أي لو كان ما تدعو إليه المتخلفين عنك والمستأذنيك في ترك الخروج معك إلى مغزاك الذي استنفرتهم إليه (عَرَضًا قَرِيبًا)، أي: غنيمة حاضرة ، أو منفعة من منافع الدنيا (وَسَفَرًا قَاصِدًا)، أو موضعًا قريبًا سهلاً، (اتَّبَعُوكَ)، ونفروا معك إليهما، ولكنك استنفرتهم إلى موضع بعيد، وكلفتهم سفرًا شاقًّا عليهم، لأنك استنهضتهم في وقت الحرّ، وزمان القَيْظ[2]، وفي هذا إشارة إلى ذمهم بسفول الهمم ودناءة الشيم بالعجز والكسل والنهم والثقل، وإلى أن هذا الدين متين لا يحمله إلا ماضي الهم صادق العزم.[3]

2- الجبن والخوف والكذب والحلف عليه: وأكثر ما وردت لفظة الحلف بمشتقاتها في القرآن الكريم في سورة التوبة حيث ورد هذا اللفظ سبع مرات[4]، وهي آيات تندد بحلف المنافقين كذبا لإرضاء رسول الله والمسلمين منها قوله تعالى: ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنا لَخَرَجْنا مَعَكُمْ﴾[التوبة: 42]، ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَما هُمْ مِنْكُمْ وَلكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾[التوبة: 56] ،﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوه﴾[التوبة: 62]، ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قالُوا وَلَقَدْ قالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾[التوبة: 74]،﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾[التوبة: 95]، ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾[التوبة: 96][5]،

---

(1) طنطاوي جوهري، الجواهر في تفسير القرآن ، ج5 ، ص 147 .

(2) الطبري، جامع البيان، ج 14، ص 271 ، وانظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج7، ص 153.

(3) البقاعي، نظم الدرر، ج 8، ص 480 .

(4) انظر: عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، ص 215 .

(5) مقاتل، تفسير مقاتل، ج1، ص 385.

فقوله تعالى: ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[التوبة: 42]، أي وسيحلف لك، يا محمد، هؤلاء المستأذنوك في ترك الخروج معك –وهم المنافقون–، وهذا إخبار بغيب، اعتذارًا منهم إليك بالباطل، لتقبل منهم عذرهم، وتأذن لهم في التخلُّف عنك، يحلفون بالله كاذبين، يقولون: لو أطقنا الخروجَ معكم بوجود السَّعة والمراكب والظهور وما لابُدَّ للمسافر والغازي منه، وصحة البدن والقوى، –كأنهم تمارضوا كذباً–ولكنهم ﴿يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ أي يوجبون لأنفسهم، بحلفهم بالله كاذبين، الهلاك والعطب، لأنهم يورثونها سَخَط الله، ويكسبونها أليم عقابه ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾، في حلفهم بالله بقولهم: ﴿لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾، لأنهم كانوا للخروج مطيقين، بوجود السبيل إلى ذلك بالذي كان عندهم من الأموال، مما يحتاج إليه الغازي في غزوه، والمسافر في سفره.(1)

فهو الكذب المصاحب للضعف أبداً، وما يكذب إلا الضعفاء، أجل ما يكذب إلا ضعيف ولو بدا في صورة الأقوياء الجبارين في بعض الأحايين. فالقوي يواجه والضعيف يداور، وما تتخلف هذه القاعدة في موقف من المواقف ولا في يوم من الأيام(2)، وهي صفة وعلامة لازمة لهم فقد جاء في الحديث عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان"(3)، فهم دائماً يحلفون بالله تعالى؛ وذلك لشدة ضعفهم وخوفهم يقول تعالى عنهم في ذلك: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ* لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾[التوبة: 57/56]، لقد بين الله تعالى أن من أخلاق المنافقين الحلف بأنهم مؤمنون، (والفرق: الخوف)، أي

---

(1) انظر: الطبري، جامع البيان، ج 14، ص 271، وانظر: ابن حيان، البحر المحيط، ج 5، ص47 .

(2) قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج 3، ص 1662 .

(3) مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، حديث رقم 59، ج1، ص78 .

يخافون أن يظهروا ما هم عليه فيقتلوا[1]، يخافون منكم أن تفعلوا بهم ما تفعلوا بالمشركين فيظهرون الإسلام تقية ويؤيدونه بالأيمان الفاجرة، وأصل الفرق انزعاج النفس بتوقع الضرر، قيل: وهو من مفارقة الأمن إلى حال الخوف .[2]

وهم من شدة خوفهم وجبنهم من المؤمنين: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً﴾ حرزا وحصناً ومعقلاً ومهرباً ﴿أَوْ مَغَارَاتٍ﴾ غِيرانا في الجبال، جمع مغارة وهو الموضع الذي يغور فيه، أي يستتر، ﴿أَوْ مُدَّخَلا﴾ موضع دخول فيه، ﴿لَوَلَّوْا إِلَيْهِ﴾ لأدبروا إليه هربا منكم، ﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ يسرعون في إباء ونفور لا يرد وجوههم شيء، ومعنى الآية: أنهم لو يجدون مخلصا منكم ومهربا لفارقوكم.[3]

وهم من شدة خوفهم وجبنهم أيضاً يحرصون على ارضاء الناس بكثرة الحلف، ولا يحرصون على إرضاء رب العالمين وفي ذلك يقول تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾[التوبة: 62].

(وذلك أن المنافقين كانوا في خلواتهم يطعنون على المؤمنين،وعلى النبي–صلى الله عليه وسلم–، فإذا بلغ ذلك إلى رسول الله وإلى المؤمنين جاء المنافقون فحلفوا على أنهم لم يقولوا ما بلغ عنهم قاصدين بهذه الأيمان الكاذبة: أن يرضوا رسول الله ومن معه من المؤمنين، فنعى الله ذلك عليهم وقال: ﴿والله وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ أي: هما أحق بذلك من إرضاء المؤمنين بالإيمان الكاذبة، فإنهم لو اتقوا الله وآمنوا به وتركوا النفاق لكان ذلك أولى لهم)[4]، ولكن الله تعالى يؤكد لهؤلاء المنافقين بقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: 63] أي: (ألم يعلم هؤلاء المنافقون الذين يحلفون بالله كذبًا للمؤمنين ليرضوهم، وهم مقيمون على النفاق، أنه من يحارب الله ورسوله، ويخالفهما فيناوئهما بالخلاف عليهما ﴿فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ﴾، في الآخرة ﴿خَالِدًا فِيهَا﴾، يقول: لابثًا فيها،

---

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج 7، ص 164 .

(2) الألوسي، روح المعاني، مجلد 4، ج 5، ص 307 .

(3) البغوي، معالم التنزيل، ج 4، ص 59– 60 .

(4) الشوكاني، فتح القدير، ج1، ص581

مقيمًا إلى غير نهاية ﴿ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾، وهو الهوان والذلُّ العظيم)[1] وفى الآية عبرة للمنافقين في زماننا وفى كل زمان، إذ يحلفون حين الحاجة إلى تأكيد أخبارهم فيما يحاولون به إرضاء الناس[2]، ثم نهاهم الله تعالى عن الانشغال بالكذب بالأعذار قال تعالى: ﴿لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾[التوبة: 66].

وذلك لأنها اعتذارات كاذبة فهي لا تنفع لأنكم أظهرتم الكفر بعد إيمانكم أي، لأنهم كانوا يسرُّون الكفر فأظهروه باستهزائهم، وجاء التقسيم بالعفو عن طائفة، والتعذيب لطائفة؛ وكان المنافقون صنفين: صنف أمر بجهادهم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[التوبة: 73] وهم رؤساؤهم المعلنون بالأراجيف، فعذبوا بإخراجهم من المسجد، وانكشاف معظم أحوالهم، وصنف ضَعَفة مظهرون الإيمان وإن أبطنوا الكفر، لم يؤذوا الرسول فعفى عنهم، وهذا العذاب والعفو في الدنيا، وقيل: المعفو عنها من علم الله أنهم سيخلصون من النفاق ويخلصون الإيمان، والمعذبون من مات منهم على نفاقه)[3]، كما أن المنافقين قد ينطقون بكلمة الكفر ويحلفون كذباً أنهم ما قالوا، وربما حاولوا قتل –رسول الله صلى الله عليه وسلم– يقول تعالى فيهم: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾[التوبة:74]، وهذه الآية تدل على أن أقواماً من المنافقين، قالوا كلمات فاسدة، ثم لما قيل لهم إنكم ذكرتم هذه الكلمات خافوا، وحلفوا أنهم ما قالوا، والمفسرون ذكروا في أسباب النزول وجوهاً:

([1]) الطبري ، جامع البيان، ج14، ص 330.

([2]) المراغي، تفسير المراغي، ج10، ص 150 .

([3]) أبو حيان، البحر المحيط، ج 5، ص 68 .

أحدها: أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– ذكر المنافقين فعابهم؛ فقال الجُلاس بن سويد[1]: إن كان ما يقول على إخواننا حقاً، لنحن شرٌّ من الحمير، فقال عامر بن قيس[2]: والله إنه لصادق، ولأنتم شرٌّ من الحمير؛ وأخبر رسولَ الله –صلى الله عليه وسلم– بذلك، فأتى الجلاسُ فقال: ما قلت شيئاً، فحلفا عند المنبر، فنزلت هذه الآية، والثاني: أن عبد الله بن أُبيٍّ قال: والله لئن رجعنا إلى المدينة، ليُخرجن الأعزُّ منها الأذل، فسمعه رجل من المسلمين، فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأرسل إليه، فجعل يحلف بالله ما قال، فنزلت هذه الآية.

([1]) الجلاس بن سويد بن الصامت بن خالد بن عطية بن خوط بن حبيب بن عمرو بن عوف بن مالك بن أوس الأنصاري الأوسي ثم من بني عمرو بن عوف له صحبة وله ذكر في المغازي، كان متهماً بالنفاق وهو ربيب عمير بن سعد زوج أمه وقصته معه مشهورة في التفاسير عند قوله تعالى:﴿يحلفون بالله ما قالوا﴾(التوبة: 74). ولقد قالوا كلمة الكفر فتحالفا وقال الله عز وجل: ﴿فإن يتوبوا يك خيراً لهم﴾(التوبة: 74). فتاب الجلاس وحسنت توبته وراجع الحق وكان قد آلى ألا يحسن إلى عمير وكان من توبته أنه لم ينزع عن خير كان يصنعه إلى عمير قال ابن سيرين لم ير بعد ذلك من الجلاس شيء يكره، انظر: بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد، (ت463 هـ)، الإستيعاب في معرفة الأصحاب، دار الجيل، بيروت، ط1، 1992، ج1، ص 264، وانظر: ابن الأثير، أبو الحسن علي بن ابي الكرم، محمد بن محمد بن عبدالكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري عز الدين (ت 630 هـ) أسد الغابة في معرفة الصحابة، دار الكتب العلمية، ط1، 1994، ج 1، ص 548 .

([2]) عامر بن قيس الأنصاري بن عم الجلاس بن سويد، ذكره موسى بن عقبة في المغازي وأنه أحد من سمع الجلاس بن سويد يقول إن كان ما يقول محمد حقاً لنحن شر من الحمر فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فحلف الجلاس ما قال ذلك فنزلت: ﴿يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر﴾ [التوبة: 74] الآية وكذلك ذكره أبو الأسود عن عروة ونقله الثعلبي عن قتادة والسدي والقصة مشهورة لعمير بن سعد ، انظر: ابن حجر (ت 852 هـ)، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، ط1، 1412هـ، ج 3، ص 595.

والثالث: أن المنافقين كانوا إذا خَلَوْا، سبُّوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وطعنوا في الدين؛ فنقل حذيفة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض ذلك ، فحلفوا ما قالوا شيئاً، فنزلت هذه الآية.

فأما كلمة الكفر، فهي سبُّهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وطعنهم في الدين[1]، فصفة الكذب من أوضح صفات المنافقين، وهي الصفة التي بيّن الله تعالى أنها ليست عند المؤمنين حتى لو خلطوا أعمالهم الصالحة بغيرها، بقوله تعالى: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[التوبة: 102]، فهؤلاء طائفة من المؤمنين المتخلفين عن غزوة تبوك، لم يعتذروا عن تخلفهم بالمعاذير الكاذبة كالمنافقين.[2]

3-ومن صفاتهم أيضاً: كثرة الأعذار، وطلب الإذن بالتخلف عن الغزو والجهاد في سبيل الله تعالى، يقول تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ*لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ* إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ* وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾[التوبة: 44/43/ 45/ 46]، (فهذا إعلامٌ من الله نبيَّه -صلى الله عليه وسلم- سِيمَا المنافقين: أن من علاماتهم التي يُعرفون بها تخلُّفهم عن الجهاد في سبيل الله، باستئذانهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في تركهم الخروجَ معه إذا استنفروا بالمعاذير الكاذبة[3]، ثم (يقول تعالى مبينا أن المتخلفين من المنافقين قد ظهر منهم من القرائن ما يبين أنهم ما قصدوا الخروج للجهاد بالكلية، وأن أعذارهم

([1]) انظر: الرازي ، مفاتيح الغيب، ج 15، ص 139، وانظر: ابن الجوزي، زاد المسير، ج3، ص 319-320، وانظر: السيوطي، جلال الدين أبو عبدالرحمن، (ت 911هـ) ، أسباب النزول، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط1، 2002، حديث رقم486-489، ص 137-138.

([2]) انظر : الزمخشري ، الكشاف ، ج2 ، ص 211 .

([3]) الطبري، جامع البيان، ج 14 ، ص 274 - 275 .

التي اعتذروها باطلة، فإن هؤلاء المنافقون ﴿لَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾ أي: لاستعدوا وعملوا ما يمكنهم من الأسباب، ولكن لما لم يعدوا له عدة، علم أنهم ما أرادوا الخروج ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ﴾ معكم في الخروج للغزو ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ قدرا وقضاء، وإن كان قد أمرهم وحثهم على الخروج، وجعلهم مقتدرين عليه، ولكن بحكمته ما أراد إعانتهم، بل خذلهم وثبطهم ﴿وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ من النساء والمعذورين[1]، (وقد كره الله طاعتهم، لخبث قلوبهم وفساد نيتهم فثبطهم عنها وأقعدهم، وأبغض قربهم منه وجواره لميلهم إلى أعدائه فطردهم عنه وأبعدهم)[2]

وهؤلاء نوع آخر من المتخلفين عن الجهاد بعذر مختلف وهم في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلا تَفْتِنِّي أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: 49]، (والفتنة التي سقطوا فيها هي فتنة التخلف، وظهور كفرهم، ونفاقهم، ولفظة سقطوا تنبىء عن تمكن وقوعهم فيها).[3]

فقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ ائذن لّي وَلاَ تَفْتِنّى﴾ يريد ائذن لي في القعود ولا تفتني بسبب الأمر بالخروج، وذكروا فيه وجوها: الأول: لا تفتني أي لا توقعني في الفتنة وهي الإثم بأن لا تأذن لي، فإنك إن منعتني من القعود وقعدت بغير إذنك وقعت في الإثم، والثاني: لا تفتني أي لا تلقني في الهلاك فإن الزمان زمان شدة الحر ولا طاقة لي بها. والثالث: لا تفتني فإني إن خرجت معك هلك مالي وعيالي والرابع: قال الجد بن قيس: قد علمت الأنصار أني مغرم بالنساء فلا تفتني ببنات الأصفر، يعني نساء الروم، ولكني أعينك بمال فاتركني، ﴿أَلا فِى الفتنة سَقَطُواْ﴾ والمعنى أنهم يحترزون عن الوقوع في الفتنة، وهم في الحال ما وقعوا إلا في الفتنة، فإن أعظم أنواع الفتنة الكفر بالله ورسوله، والتمرد عن قبول التكليف، وأيضاً فهم يبقون خالفين عن

---

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ج1، ص 339 .

(2) ابن القيم، مدارج السالكين، ج 1، ص 362 .

(3) أبي حيان، البحر المحيط ، ج5، ص 52 .

المسلمين، خائفين من أن يفضحهم الله، وينزل آيات في شرح نفاقهم[1]، (فلما نزلت هذه الآية قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم– لبني سلمة، وكان الجد منهم: من سيدكم يا بني سلمة؟ قالوا: الجد بن قيس غير أنه بخيل جبان، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: وأي داء أدوأ من البخل، بل سيدكم الأبيض الفتى الجعد بشر بن البراء بن معرور...)[2] و الْجَدّ بْنَ قَيْسٍ أَخُو بَنِي سَلِمَةَ هو من تخلف عن رسول الله – صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ –يوم بيعة الرضوان– والتي لَمْ يَتَخَلّفْ عَنْهُ أَحَدٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ حَضَرَهَا؛ كان لَاصِقًا بِإِبْطِ نَاقَتِهِ، قَدْ ضَبَأَ إلَيْهَا، يَسْتَتِرُ بِهَا مِنْ النّاسِ.[3]

والتعبير القرآني هنا (يرسم مشهداً كأن الفتنة فيه هاوية يسقط فيها المفتونون؛ وكأن جهنم من ورائهم تحيط بهم، وتأخذ عليهم المنافذ والمتجهات فلا يفلتون. كناية عن مقارفتهم للخطيئة كاملة وعن انتظار العقاب عليها حتماً، جزاء الكذب والتخلف والهبوط إلى هذا المستوى المنحط من المعاذير. وتقريراً لكفرهم وإن كانوا يتظاهرون بالإسلام وهم فيه منافقون).[4]

4–تدبير المكائد والحيل للمسلمين لهزيمتهم أمام عدوهم، وبث الفرقة والفساد والخلاف في صفوف المسلمين.

يقول تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلا خَبَالا وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾[التوبة : 48/47].

وأصل "الخبْل" و"الخبال"، الفساد، ثم أصبح يستعمل في معان كثيرة، ومعنى الخبال في قوله تعالى ﴿لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً﴾ في الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾[آل عمران: 118]، يعني لا

([1]) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ج 15، ص 86، وانظر: ابن هشام، السيرة النبوية، تهذيب عبد السلام هارون، ص 286.

([2]) الواحدي، أسباب النزول، باب 245، ص 252.

([3]) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، تهذيب عبد السلام هارون، ص 226 .

([4]) قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج 3، ص 1664 .

يستطيعونكم شرًّا[1]، وقيل الخبال مرض عقلي ينشأ معه اختلال موازين الفكر؛ فقوله تعالى: ﴿مَا زَادُوكُمْ إلا خَبَالا﴾ أي أنهم لن يكونوا إلا مصدراً لبلبلة الأفكار لو خرجوا معكم للقتال، فلا تستطيعون اتخاذ القرار السليم؛ فكأنهم عين عليكم، وضدكم وليسوا معكم، وقد يكونون من عوامل الهزيمة التي لم يردها الله لكم، وليسوا من عوامل النصر...[2]

﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم﴾ بيان لكراهة الله تعالى انبعاثهم أي لو خرجوا مخالطين لكم ﴿مَّا زَادُوكُمْ﴾ شيئاً من الأشياء ﴿إِلاَّ خَبَالاً﴾ أي شراً وفساداً)[3] وأما أصل "الخلال"، فهو من "الخَلَل"، وهي الفُرَج تكون بين القوم.[4]

(ولا يستلزم ذلك أن يكون لهم خبال حتى لو خرجوا زادوه، ﴿ولأَوْضَعُواْ خلالكم﴾ ولأسرعوا ركائبهم بينكم بالنميمة والتضريب، أو الهزيمة والتخذيل، ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ يريدون أن يفتنوكم بإيقاع الخلاف فيما بينكم أو الرعب في قلوبكم، ﴿وَفِيكُمْ سماعون لَهُمْ﴾ ضعفة يسمعون قولهم ويطيعونهم، أو نمامون يسمعون حديثكم للنقل إليهم، ﴿والله عَلِيمٌ بالظالمين﴾ فيعلم ضمائرهم وما يتأتى منهم، ﴿وَقَلَّبُواْ لَكَ الأمور﴾ ودبروا لك المكايد والحيل ودوروا الآراء في إبطال أمرك ﴿حتى جَاء الحق﴾ بالنصر والتأييد الإلهي ﴿وَظَهَرَ أَمْرُ الله﴾ وعلا دينه ﴿وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ أي على رغم منهم، والآيتان لتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين على تخلفهم وبيان ما ثبطهم الله لأجله وكره انبعاثهم له وهتك أستارهم وكشف أسرارهم وإزاحة اعتذارهم تداركاً لما فوت الرسول –صلى الله عليه وسلم– بالمبادرة إلى الأذن ولذلك عوتب عليه)[5]؛ (وبذلك سيحدثون فرقة بين صفوف المؤمنين ويفرّقونهم، وسيتغلغلون بينهم للإفساد... فيدخل واحد منهم بين فريق من المؤمنين فيُفسد، وآخر يُفسد فريقاً آخر، وهكذا يمشون خلال المؤمنين

([1]) انظر: الطبري، جامع البيان، ج 7، ص 138– 140 .

([2]) انظر: الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج9، ص5161 – 5162 .

([3]) الألوسي روح المعاني، مجلد 4، ج 5، ص 302 .

([4]) الطبري، جامع البيان، ج 14، ص 279 .

([5]) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج3، ص 83 .

ليفرقوا بينهم)[1]، ومن شدة حقدهم على الإسلام وأهله، الفرح بالسلامة وترك البذل والعطاء في سبيل الله تعالى، وإشاعة الخذلان والضعف في صفوف المؤمنين، قال تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾[التوبة: 81].

أي: (فرح الذين خلَّفهم الله عن الغزو مع رسوله والمؤمنين به وجهاد أعدائه (بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ)، يقول: بجلوسهم في منازلهم)[2]، ﴿وَكَرِهُواْ أَن يجاهدوا بأموالهم وَأَنْفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ الله﴾ إيثاراً للدعة والخفض على طاعة الله، وفيه تعريض بالمؤمنين الذين آثروا عليها تحصيل رضاه ببذل الأموال والمهج[3]، ﴿وَقَالُواْ لاَ تَنفِرُواْ فِى الحر﴾ أي: قال المنافقون لإخوانهم هذه المقالة تثبيطاً لهم، وكسراً لنشاطهم، وتواصياً بينهم بالمخالفة لأمر الله ورسوله، ثم أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم: ﴿نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ والمعنى: أنكم أيها المنافقون كيف تفرّون من هذا الحرّ اليسير، ونار جهنم التي ستدخلونها خالدين فيها أبداً أشدّ حرّاً مما فررتم منه، فإنكم إنما فررتم من حرّ يسير في زمن قصير، ووقعتم في حرّ كثير في زمن كبير، بل غير متناه أبد الآبدين، ودهر الداهرين[4]، ثم قال تعالى زيادةً في عذابهم أيضاً: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾[التوبة : 82] فهم سيضحكون قليلا، ويبكون كثيرا جَزاءً إلا أنه أخرج على لفظ الأمر، للدلالة على أنه حتم واجب لا يكون غيره، كما يروى أن أهل النفاق يبكون في النار عمر الدنيا، لا يرقأ لهم دمع ولا يكتحلون بنوم.[5]

5-الحسد والحزن بنصر المسلمين والفرح بانكسارهم وشدتهم .

([1]) انظر: الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج9، ص 5162 .

([2]) الطبري، جامع البيان، ج 14، ص 397.

([3]) البيضاوي، أنوار التنزيل و أسرار التأويل، ج3، ص 91 .

([4]) الشوكاني، فتح القدير، ج1، ص 588- 589 .

([5]) الزمخشري، الكشاف، ج2، ص 205-206 .

يقول تعالى: ﴿إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ﴾[التوبة : 50]، والحسنة ما يسر النفس حصوله من غنيمة ونصر ونحوهما؛ كما حدث يوم بدر– يورثهم كآبة وحزنا لفرط حسدهم وعداوتهم، وإن تصبك شدة كانكسار جيش كما حدث يوم أحد– يقولوا معجبين بآرائهم حامدين ما صنعوا، قد تلافينا ما يهمنا من الأمر بالحذر والحزم كما هو دأبنا، إذ تخلفنا عن القتال ولم نلق بأيدينا إلى الهلاك، وينصرفوا عن الموضع الذي يقولون فيه هذا القول وهم فرحون فرح البطر والشماتة[1]، (هكذا صفة الحسود، يتصاعد أنينُ قلبه عند شهود الحسنى، ولا يَسُرُّ قلبَه غيرُ حلولِ البلوى، ولا دواءَ لجروح الحسود؛ فإنه لا يرضى بغير زوال النعمة[2]، وفي سبب نزول هذه الآية أن المنافقين الذين تخلفوا بالمدينة جعلوا يخبرون عن النبي –صلى الله عليه وسلم– أخبار السوء يقولون أن محمدا وأصحابه قد جهدوا في سفرهم وهلكوا فبلغهم تكذيب حديثهم وعافية النبي –صلى الله عليه وسلم– وأصحابه فساءهم ذلك فأنزل الله ﴿إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾.[3]

6–الكسل في إتيان الصلاة، والإنفاق عن غير طيب نفس.

قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلا وَهُمْ كُسَالَى وَلا يُنْفِقُونَ إِلا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾[التوبة: 54]، وهنا (ذكر السبب الذي هو بمفرده مانع من قبول نفقاتهم وهو الكفر، وأتبعه بما هو ناشىء عن الكفر ومستلزم له وهو دليل عليه؛ وذلك هو إتيان الصلاة وهم كسالى، وإيتاء النفقة وهم كارهون؛ فالكسل في الصلاة وترك النشاط إليها وأخذها بالإقبال من ثمرات الكفر، فإيقاعها عندهم لا يرجون به ثواباً، ولا يخافون بالتفريط فيها عقاباً، وكذلك الإنفاق للأموال لا يكرهون ذلك إلا وهم لا يرجون به ثواباً، وذكر من أعمال البر هذين العملين الجليلين وهما الصلاة والنفقة، واكتفى بهما وإن كانوا أفسد حالاً في سائر أعمال البر؛ لأنّ الصلاة أشرف الأعمال البدنية، والنفقة في سبيل الله أشرف الأعمال المالية، وهما وصفان المطلوب إظهارهما في الإسلام، ويستدل بهما على الإيمان،

---

(1) المراغي، تفسير المراغي، ج 10، ص 135 .

(2) القشيري، لطائف الإشارات، ج 2، ص 33 .

(3) انظر السيوطي، لباب النقول في أسباب النزول، حديث رقم 479، ص 135.

وتعداد القبائح يزيد الموصوف بها ذماً وتقبيحاً)[1]، والنفاق يورث الكسل في العبادة لا محالة، فهم ليس لهم قدم صحيح ولا همة في العمل، وقوله تعالى: ﴿وَلا يُنْفِقُونَ إِلا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ فهم يعدونها مغرماً ومنعها مغنماً وإذا كان الأمر كذلك فهي غير متقبلة ولا مثاب عليها [2]، كما أن المنافقين لا يعملون شيئًا من الأعمال التي فرضها الله على المؤمنين على وجه التقرُّب بها إلى الله، لأنهم غير موقنين بمعادٍ ولا ثواب ولا عقاب، وإنما يعملون ما عملوا من الأعمال الظاهرة إبقاءً على أنفسهم، وحذارًا من المؤمنين عليها أن يُقتلوا أو يُسلبوا أموالهم. فهم إذا قاموا إلى الصلاة التي هي من الفرائض الظاهرة، قاموا كسالى إليها، رياءً للمؤمنين ليحسبوهم منهم وليسوا منهم، لأنهم غير معتقدي فرضها ووجوبها عليهم، فهم في قيامهم إليها كسالى[3]، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلا قَلِيلا﴾[النساء: 142].

7-الإساءة لرسول الله -صلى الله عليه وسلم - بالقول والفعل .

ومن هذه الإساءة أنهم: كانوا يلمزون النبي عليه الصلاة والسلام في توزيع الصدقات، ويتهمونه في عدالته، لشرههم في تحصيل الدنيا ومحبة المال، قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ [التوبة: 58]، يقول تعالى ذكره: ومن المنافقين الذين وصفت لك يا محمد-صلى الله عليه وسلم- صفتهم في هذه الآيات ﴿مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾، يقول: يعيبك في أمرها، ويطعُنُ عليك فيها، ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا﴾ يقول: ليس بهم في عيبهم إياك فيها، وطعنهم عليك بسببها، الدِّينُ، ولكن الغضب لأنفسهم، فإن أنت أعطيتهم منها ما يرضيهم رضوا عنك، وإن أنت لم تعطهم منهم سخطوا عليك وعابوك، وهؤلاء المنافقون قالوا: والله ما يعطيها محمد -صلى الله عليه وسلم- إلا من أحبَّ، ولا يؤثر بها إلا هواه؛ فأخبر الله نبيه، وأخبرهم أنه إنما جاءت من الله، وإن هذا

([1]) أبو الحيان ، البحر المحيط، ج 5، ص 54 – 55 .

([2]) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج 2، ص 399، وانظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج 7، ص 163 .

([3]) الطبري، جامع البيان، ج 9، ص129-131 .

أمر من الله ليس من محمد صلى الله عليه وسلم[1]، وقد ورد في سبب نزول الآية: عن أبي سعيد الخدري، قال: بينا النبي صلى الله عليه وسلم يقسم ذات يوم قسما، فقال ذو الخويصرة،[2] -رجل من بني تميم-: يا رسول الله اعدل، قال: «ويلك، من يعدل إذا لم أعدل»؟ فنزلت ﴿وَمِنهُم مَن يَلمِزُكَ في الصَدَقاتِ﴾ الآية...[3]، وإن لمزهم الرسول إنما هو لشرههم في تحصيل الدنيا ومحبة المال، وأنّ رضاهم وسخطهم إنما متعلقة العطاء.[4]

ومن سوء أدبهم وإسائتهم لرسول الله – صلى الله عليه وسلم- اتهامهم إياه بقلة الحزم والانخداع – كذباً وزوراً بحقه عليه السلام :

يقول تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[التوبة: 61]، والأذى: ما يؤلم الحي المدرك في بدنه أو نفسه ولو ألماً خفيفاً، يقال أذى بكذا وتأذى تأذياً إذا أصابه مكروه يسير[5]، وقد نزلت هذه الآية في جماعة من المنافقين كانوا يؤذون الرسول ويقولون ما لا ينبغي، قال بعضهم: لا تفعلوا فإنا نخاف أن يبلغه ما تقولون فيقع بنا فقال الجلاس بن سويد نقول ما شئنا ثم نأتيه فيصدقنا بما نقول، فإنما محمد أذن سامعة، فأنزل الله تعالى هذه الآية. وقيل: نزلت

([1]) انظر: الطبري، جامع البيان، ج 14، ص 300 – 304 .

([2]) ذو الخويصرة (000-37 هـ= 000- 657م) حرقوص بن زهير بن السعدي، الملقب بذي الخويصرة: صحابي، من بني تميم، خاصم الزبير فأمر النبي صلى الله عليه وسلم باستيفاء حقه منه، وأمره عمر بن الخطاب بقتال (الهرمزان) فاستولى على سوق الاهواز ونزل بها، ثم شهد صفين مع علي، وبعد الحكمين صار من أشد الخوارج على علي، فقتل فيمن قتل بالنهروان، انظر: الزركلي، الأعلام، ج 2، ص 173.

([3]) البخاري، صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة قبل الإسلام، حديث رقم 3610، ج4، ص 200، وانظر: الواحدي، أسباب النزول، حديث رقم 246، ص 253- 254 .

([4]) أبو حيان، البحر المحيط، ج 5، ص 57 .

([5]) المراغي، تفسير المراغي، ج10، ص 146 .

في رجل من المنافقين يقال نبتل بن الحارث[1]، وكان رجلاً أذلم أحمر العينين أسفع الخدين مشوه الخلقة، وهو الذي قال النبي صلى الله عليه وسلم: من أراد أن ينظر الشيطان فلينظر إلى نبتل بن الحارث، وكان ينم حديث النبي صلى الله عليه وسلم إلى المنافقين، فقيل له: لا تفعل، فقال: إنما محمد أذن من حدثه شيئاً صدقه نقول ما شئنا، ثم نأتيه فنحلف له فيصدقنا، فأنزل الله تعالى هذه الآية[2]، (ومرادهم أنه يصدق كل ما يسمع ويقبل قول كل أحد –كما سمي الجاسوس عيناً؛ وأنه –صلى الله عليه وسلم– لا يعرف مكر من يمكر به وخداع من يخادعه)[3]، (فقد عابوه عليه الصلاة والسلام وحاشاه من العيب بسلامة القلب وسرعة القبول والتصديق لما يسمع، فصدقهم جل شأنه ورد عليهم بقوله سبحانه: ﴿قُلْ﴾ هو ﴿أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ أي هو كذلك لكن بالنسبة إلى الخير، وهذا من غاية المدح فإن النفس القدسية الخيرية تتأثر بما يناسبها، أي أنه عليه الصلاة والسلام يسمع ما ينفعكم وما فيه صلاحكم دون غيره، ثم بين ذلك بقوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُ بالله﴾[التوبة:61] الخ، وقد غرهم قاتلهم الله تعالى حتى قالوا ما قالوا كرم النبي صلى الله عليه وسلم لم يشافههم برد ما يقولون رحمة منهم بهم، وهو عليه الصلاة والسلام الرحمة الواسعة...)[4] (إنه أذن خير ورحمة لا يسمع غيرهما ولا يقبله، ثم فسر كونه ﴿أُذُنُ خَيْرٍ﴾ بأنه يصدق بالله، لما قام عنده من الأدلة ويقبل من المؤمنين الخلص من المهاجرين والأنصار، وهو رحمة لمن آمن منكم، أي أظهر الإيمان أيها المنافقون حيث يسمع منكم ويقبل إيمانكم الظاهر، ولا يكشف أسراركم ولا يفضحكم، ولا يفعل بكم ما يفعل بالمشركين، مراعاة لما رأى الله من المصلحة في الإبقاء عليكم، فهو أذن كما قلتم، إلاّ أنه أذن خير لكم لا أذن سوء فسلم لهم قولهم

---

(1) هو نبتل بن حارث بن قيس بن زيد بن ضبيعة بن زيد بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف الأنصاري الأوسي، ذكره ابن الكلبي ثم البلاذري في المنافقين، ويحتمل أن يكون أبو عبيد اطلع على أنه تاب، انظر: ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، ج6، ص418.

(2) الواحدي، أسباب النزول، حديث رقم 247، ص 254 ، وانظر: السيوطي، لباب النقول في أسباب النزول، حديث رقم 482 ، ص 136 .

(3) انظر: البقاعي، نظم الدرر، ج 8، ص 508 .

(4) الألوسي، روح المعاني، مجلد 4، ج 5، ص 331 .

فيه، إلا أنه فسر بما هو مدح له وثناء عليه، وإن كانوا قصدوا به المذمّة والتقصير بفطنته وشهامته، وأنه من أهل سلامة القلوب والغرّة)[1]، ويدل على أن إيذاء الرسول- صلى الله عليه وسلم- بالقول والفعل ينافي الإيمان الذي هو سبب الرحمة قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[التوبة:61]، فهو مقابل قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾.[2]

وهناك إساءة من نوع آخر لرسول الله، وهي محاولة المنافقين قتله عليه السلام يقول تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾[التوبة:74]، فقوله تعالى: ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ﴾ المراد إطباقهم على الفتك بالرسول، والله تعالى أخبر الرسول عليه السلام بذلك حتى احترز عنهم، ولم يصلوا إلى مقصودهم[3]، وفي سبب نزول قوله: ﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ أقوال، أحدها: أنها نزلت في عبد الله بن أُبيّ، همّ بقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم [4]، وقيل أنه همّ رجل يقال له الأسود بقتل النبي صلى الله عليه وسلم، فنزلت ﴿وَهَمُّوا بِما لَم يَنالوا﴾[5]، وقيل: إن قوماً ليلة العقبة قد أجمعوا على أن يقتلوا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهم معه يلتمسون غرته حتى أخذ في عقبة، فتقدم بعضهم وتأخر بعضهم وذلك كان ليلاً، قالوا: إذا أخذ في العقبة دفعناه عن راحلته في الوادي، وكان قائده في تلك الليلة عمار بن ياسر وسائقه حذيفة فسمع حذيفة وقع أخفاف الإبل، فالتفت فإذا هو بقوم

([1]) الزمخشري، الكشاف، ج 2، ص 199 .

([2]) انظر: رضا، محمد رشيد، المنار، ج 10، ص 520 .

([3]) الرازي، مفاتيح الغيب، ج 15، ص 140 .

([4]) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج2، ص 409، وانظر: ابن الجوزي، زاد المسير، ج 3، ص319 -320

([5]) السيوطي، لباب النقول في أسباب النزول، حديث رقم 490، ص 138.

متلثمين، فقال: إليكم يا أعداء الله فأمسكوا، ومضى النبي عليه الصلاة والسلام حتى نزل منزله الذي أراد، فأنزل الله تعالى قوله ﴿وَهَمُّوا بِما لَم يَنالوا﴾.(1)

8-استهزاء المنافقين بالإسلام وأهله، والسخرية من المؤمنين واحتقارهم، يقول تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنزلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ* وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾[التوبة: 64/ 65]، ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ﴾ أي: يخشى المنافقون، ﴿أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: تنزل على المؤمنين، ﴿سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي: بما في قلوب المنافقين من الحسد والعداوة للمؤمنين، كانوا يقولون فيما بينهم ويُسرون ويخافون الفضيحة بنزول القرآن في شأنهم، لذلك تسمى هذه السورة الفاضحة والمبعثرة والمثيرة، أثارت مخازيهم ومثالبهم، ﴿قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ﴾ مظهر ﴿مَا تَحْذَرُونَ﴾.(2)

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾[التوبة: 65]، فقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ وفي سبب نزولها أنه: بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك وبين يديه ناس من المنافقين إذ قالوا: يرجو هذا الرجل أن يفتح قصور الشام وحصونها هيهات له ذلك، فأطلع الله نبيه على ذلك، فقال نبي الله: اجلسوا على الركب فأتاهم فقال: قلتم كذا وكذا، فقالوا: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وفي رواية أخرى: أنه قال رجل من المنافقين في غزوة تبوك: ما رأيت مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطوناً ولا أكذب ألسناً ولا أجبن عند اللقاء، يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فقال عوف بن مالك: كذبت ولكنك منافق لأخبرن رسول الله صلى الله عليه وسلم فذهب عوف ليخبره، فوجد القرآن قد سبقه، فجاء ذلك الرجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد ارتحل وركب ناقته، فقال: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب ونتحدث بحديث الركب نقطع به عنا الطريق (3)

---

(1) الواحدي، أسباب النزول، حديث رقم 251، ص 257 .

(2) البغوي، معالم التنزيل، ج4 ، ص 68-69 .

(3) الواحدي، أسباب النزول، حديث رقم 249، ص 255-256 .

فقال تعالى: ﴿قُلْ﴾ أي: قل يا محمد ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ﴾ كتابه، ﴿وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ الآية[1] ، ومن تحقيرهم وتجريحهم للمؤمنين في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[التوبة: 79].

أي: الذين يلمزون المطوّعين في الصدقة على أهل المسكنة والحاجة، بما لم يوجبه الله عليهم في أموالهم، ويطعنون فيها عليهم، بقولهم: "إنما تصدقوا به رياءً وسُمْعة، ولم يريدوا وجه الله"، ويلمزون الذين لا يجدون ما يتصدَّقون به إلا جهدهم، وذلك طاقتهم، فينتقصونهم ويقولون: "لقد كان الله عن صدقة هؤلاء غنيًّا" سخريةً منهم بهم ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾.[2] وهذا من باب المقابلة على سوء صنيعهم واستهزائهم بالمؤمنين، لأن الجزاء من جنس العمل فعاملهم معاملة من سخر منهم انتصاراً للمؤمنين في الدنيا، وأعد للمنافقين في الآخرة عذاباً أليماً لأن الجزاء من جنس العمل.[3]

9-الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف، والبخل، والفسق.

يقول تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[التوبة: 67]، فقوله تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ أي: هم على دين واحد، وقيل: أمرهم واحد بالاجتماع على النفاق،﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ﴾ بالشرك والمعصية، ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ أي عن الإيمان والطاعة،﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ أي: يمسكونها عن الصدقة والإنفاق في سبيل الله ولا يبسطونها بخير، وقبض اليد كناية عن الشح والبخل ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ تركوا طاعة الله، فتركهم الله من توفيقه وهدايته في الدنيا،

---

(1) البغوي، معالم التنزيل، ج4، ص 70 .

(2) الطبري، جامع البيان، ج 14، ص381- 382 .

(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج2، ص 413 .

ومن رحمته في الآخرة، وتركهم في عذابه، ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾، أي الكاملون في التمرد والفسق الذي هو الخروج عن الطاعة (1)

و(المنافقون والمنافقات من طينة واحدة، وطبيعة واحدة. المنافقون في كل زمان وفي كل مكان تختلف أفعالهم وأقوالهم، ولكنها ترجع إلى طبع واحد، وتنبع من معين واحد؛ سوء الطوية ولؤم السريرة ، والغمز والدس، والضعف عن المواجهة، والجبن عن المصارحة، تلك سماتهم الأصلية، أما سلوكهم فهو الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف، والبخل بالمال إلا أن يبذلوه رئاء الناس، وهم حين يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف يستخفون بهما، ويفعلون ذلك دساً وهمساً، وغمزاً ولمزاً، لأنهم لا يجرؤون على الجهر إلا حين يأمنون، إنهم نسوا الله؛ فلا يحسبون إلا حساب الناس وحساب المصلحة، ولا يخشون إلا الأقوياء من الناس يذلون لهم ويدارونهم فنسيهم الله فلا وزن لهم ولا اعتبار.(2)

10- محاربة الإسلام، وتشويه مبادئه، ومحاولة التفريق بين المسلمين من خلال إنشاء مؤسسات تتستر ببعض الأعمال المشروعة للإضرار بالمسلمين.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[التوبة: 107]، وهو أن المنافقين بنوا مسجد الضرار لا للعبادة والطاعة، وإنما اتخذوه من أجل إيقاع الأذى بالمسلمين؛ وقد وصفه الله تعالى بصفات أربعة:

(الصفة الأولى: ضراراً، والضرار محاولة الضر والمعنى: اتخذوه للضرار ولسائر الأمور المذكورة بعده، والصفة الثانية: قوله: ﴿وَكُفْراً﴾: يريد به ضرراً للمؤمنين وكفراً بالنبي عليه السلام، وبما جاء به، الصفة الثالثة: قوله: ﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ المؤمنين﴾ أي يفرقون بواسطته جماعة المؤمنين، وذلك لأن المنافقين قالوا نبني مسجداً فنصلي فيه، ولا نصلي خلف محمد، فإن أتانا فيه صلينا معه. وفرقنا بينه وبين الذين يصلون في مسجده، فيؤدي ذلك إلى اختلاف الكلمة، وبطلان الألفة.

---

(1) انظر: البغوي، معالم التنزيل، ج4، ص71، وانظر: الألوسي، روح المعاني، مجلد4، ج5، ص 323 .

(2) قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج3، ص 1673 .

والصفة الرابعة: قوله: ﴿وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ الله وَرَسُولَهُ﴾ الإرصاد الانتظار مع العداوة وقوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾ يعني من قبل بناء مسجد الضرار، ثم إنه تعالى لما وصف هذا المسجد بهذه الصفات الأربعة قال: ﴿وَلَيَحْلِفَنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الحسنى﴾ أي ليحلفن ما أردنا ببنائه إلا الفعلة الحسنى وهو الرفق بالمسلمين في التوسعة على أهل الضعف والعلة والعجز، عن المصير إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم. وذلك أنهم قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم إنا قد بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة الممطرة والليلة الشاتية، ثم قال تعالى: ﴿والله يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لكاذبون﴾ والمعنى: أن الله تعالى أطلع الرسول على أنهم حلفوا كاذبين[1]، (إذن : فكل ما يفتت جماعة المسلمين هو أمر ضار بمصلحة الإسلام؛ لأن الإسلام يريد أن يعلم الناس أنهم قوة مجتمعة، ويكون أمر هذه القوة واضحاً؛ ولهذا أباح الحق أن تُصلى الصلوات في أي مكان، وحتّم أن نصلي جميعاً الجمعة في مكان واحد؛ ليفرح المسلمون حين يرون أنفسهم مقبلين على الدين، ويلتقي كل واحد منهم بالآخر؛ ولذلك كان مسجد الضرار هذا تفريقاً بين المسلمين.[2]

11- استهزاء المنافقين من سور القرآن الكريم وتهوينهم من شأنه، وتضايقهم عند استماعهم له، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ*وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾[التوبة: 124/ 125].

﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا﴾ يقينا، كان المنافقون يقولون هذا استهزاء، قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ يقينا وتصديقا، ﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ يفرحون بنزول القرآن، ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ شك ونفاق، ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ أي: كفرا إلى كفرهم، فعند نزول كل سورة ينكرونها يزداد كفرهم بها)[3]، ومعنى قولهم ذلك: (هو على سبيل التحقير للسورة

([1]) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ج 15 ، ص 198 .

([2]) الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج9 ، ص 5491 .

([3]) البغوي، معالم التنزيل، ج4، ص 114 .

والاستخفاف بها)[1]، وقوله تعالى: ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا﴾ خطاب بعضهم لبعض على سبيل التهكم بالمؤمنين وبالقرآن، لأن بعض آيات القرآن مصرحة بأن القرآن يزيد المؤمنين إيماناً قال تعالى: ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً﴾ [الأنفال: 2] [2]

ثم يفضحهم الله ويُظهر ما في قلوبهم عند استماعهم لآيات القرآن ، فيقول تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ﴾[التوبة: 127] ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾، من القرآن، فيها عيبُ هؤلاء المنافقين الذين وصفَ جل ثناؤه صفتهم في هذه السورة، وهم عند رسول الله –صلى الله عليه وسلم– ﴿نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾، فتناظروا ﴿هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾، إن تكلمتم أو تناجيتم بمعايب القوم يخبرهم به، ثم قاموا فانصرفوا من عند رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، ولم يستمعوا قراءة السورة التي فيها معايبهم. ثم ابتدأ جل ثناؤه قوله: ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾، فقال: صرف الله عن الخير والتوفيق والإيمان بالله ورسوله قلوبَ هؤلاء المنافقين ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ﴾، يقول: فعل الله بهم هذا الخذلان، وصرف قلوبهم عن الخيرات، من أجل أنهم قوم لا يفقهون عن الله مواعظه، استكبارًا، ونفاقا. [3]

هذه مجمل فضائح وصفات أهل النفاق في عهد رسول الله– صلى الله عليه وسلم– ذكرتها سورة التوبة، لا كلها؛ فهم أصحاب النفوس المريضة الخفية في كل زمان ومكان، ولكن كيف يتعامل معهم رسول الله–صلى الله عليه وسلم– كما طلب منه عز وجل في هذه السورة :

1–جهادهم والغلظة عليهم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[التوبة : 73، التحريم: 9].

---

(1) أبو حيان، البحر المحيط، ج 5، 118 .

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 11، ص 65 .

(3) الطبري، جامع البيان، ج 14، ص 582 .

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ﴾ بالسيف ﴿وَالْمُنَافِقِينَ﴾ بالوعيد، وشدة الزجر والتغليظ، وقيل: جاهد المنافقين بإقامة الحدود عليهم وباللسان.[1]

﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ والغلظ ضد الرقة، والمراد خشونة الكلام وتعجيل الانتقام على خلاف ما أمر به في حق المؤمنين [2]

2- عقاب المنافقين على تخلفهم، بألا يصحبهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- معه في أي غزوة يغزوها.

وهو أمر من الله تعالى بإخراج المنافقين عن ديوان الغُزاةِ، وإبعاداً لمحلهم عن محفِل صُحبتِهِ عليه السلام، ومحو أساميهم من دفتر المجاهدين؛ لأنهم تخلفوا في المدينة عن غزوة تبوك[3] قال تعالى: ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾[التوبة: 83].

﴿فَإِن رَّجَعَكَ الله﴾ أي من سفرك، ﴿إلى طَائِفَةٍ مّنْهُمْ﴾ أي إلى المنافقين من المتخلفين بناء على أن منهم من لم يكن منافقاً أو إلى من بقي من المنافقين المتخلفين بأن ذهب بعضهم بالموت أو بالغيبة عن البلد أو بأن لم يستأذنك البعض وقيل: المراد بتلك الطائفة من بقي من المنافقين على نفاقه ولم يتب وليس بذاك، ﴿فاستأذنوك لِلْخُرُوجِ﴾ معك إلى غزوة أخرى بعد غزوتك هذه التي ردك الله منها بتأييده ﴿فَقُلْ﴾ لهم إهانة لهم على أتم وجه ﴿لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا﴾ ما دمت ودمت ﴿وَلَن تقاتلوا مَعِيَ عَدُوّا﴾ من الأعداء، وهو أخبار في معنى النهي للمبالغة ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بالقعود﴾ عن الخروج معي وفرحتم به ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي غزوة تبوك، ﴿فاقعدوا مَعَ الخالفين﴾ أي المتخلفين لعدم لياقتهم؛ كالنساء والصبيان والرجال العاجزين.[4]

([1]) انظر: الطبري، جامع البيان، ج 23، ص 496، وانظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج7، ص 204 .

([2]) أبو حيان، البحر المحيط، ج5، ص 73 .

([3]) انظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، ج 3، ص 89 .

([4]) الألوسي، روح المعاني، مجلد 4، ج5، ص 340 – 341 .

3-أمر الله سبحانه وتعالى نبيه محمد -صلى الله عليه وسلم-: بأن يبرأ من المنافقين ولا يصلّ على أحد مات منهم أبدًا ، ولا يتولَّ دفنه، وأن لا يقوم على قبره ليستغفر له، أو يدعو له لأنهم كفروا بالله ورسوله، وماتوا عليه وهذا حكم عام في كل من عرف نفاقه، وإن كان للآية سبب نزول [1]

قال تعالى : ﴿وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾[التوبة: 84] .

والمراد من الصلاة المنهى عنها صلاة الميت المعروفة وهي متضمنة للدعاء والاستغفار والاستشفاع له؛ والمنع عنها لمنعه عليه الصلاة والسلام من الدعاء للمنافقين المفهوم من الآية السابقة ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[التوبة: 80] أو من قوله سبحانه: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ والذين ءامَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: 113]، وهي اشارة إلى إهانتهم بعد الموت، وأكثر الروايات أنه- صلى الله عليه وسلم- صلى عليه وأن عمر رضي الله تعالى عنه أحب عدم الصلاة على عبد الله بن أُبي وعدّ ذلك أحد موافقاته للوحي[2]، (فقد روى الشيخان عن ابن عمر قال لما توفي عبد الله ابن أبي جاء ابنه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه ثم سأله أن يصلي عليه فقام ليصلي عليه فقام عمر بن الخطاب فأخذ بثوبه وقال يا رسول الله أتصلي عليه وقد نهاك ربك أن تصلي على المنافقين قال:" إنما خيرني الله فقال استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة وسأزيده على السبعين" فقال: إنه منافق فصلى عليه فأنزل الله ﴿وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾، فترك الصلاة عليهم)[3]،

([1]) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج2، ص 416 .

([2]) انظر: الألوسي، روح المعاني، مجلد 4، ج 5، ص341 – 342 .

([3]) صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[التوبة: 80]، حديث رقم 4670، 4671، ص 333 . صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل عمر رضي الله عنه ى، حديث رقم 2400، ج 4، ص

وصلاة رسول الله –صلى الله عليه وسلم– على ميت هي رحمة له، وغفران لذنوبه؛ لأن الصلاة على الميت طلب الرحمة والمغفرة، وأن تطلب له من الله أن يُلحقه بالصالحين، وإذا قال رسول الله هذا الكلام، ودعا بهذا الدعاء، فإن دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم مستجابة من الله تعالى؛ وهكذا حرمهم الله تعالى من رحمة يكون الإنسان في أشد الحاجة إليها حين ينتقل من الحياة الدنيا إلى حياة البرزخ)[1]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ ومن كان كافرا ومات على ذلك، فما تنفعه شفاعة الشافعين، وفي ذلك عبرة لغيرهم، وزجر ونكال لهم، وهكذا كل من علم منه الكفر والنفاق، فإنه لا يصلى عليه... ثم يقول تعالى مخاطباً نبيه الكريم: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: 85] أي: لا تغتر بما أعطاهم اللّه في الدنيا من الأموال والأولاد، فليس ذلك لكرامتهم عليه، وإنما ذلك إهانة منه لهم، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا﴾ فيتعبون في تحصيلها، ويخافون من زوالها، ولا يتهنئون بها؛ بل لا يزالون يعانون الشدائد والمشاق فيها، وتلهيهم عن اللّه والدار الآخرة، حتى ينتقلوا من الدنيا ﴿وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ قد سلبهم حبها عن كل شيء، فماتوا وقلوبهم بها متعلقة، وأفئدتهم عليها متحرقة.[2] وهكذا (أراد بالأولى لا تعظمهم في حال حياتهم بسبب كثرة المال والولد، وبالثانية لا تعظمهم بعد وفاتهم لمانع الكفر والنفاق)[3].

4–أمر الله تعالى رسوله الكريم و المؤمنين بالإعراض عنهم، واصفاً إياهم بأنهم رجس، يقول تعالى:﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[التوبة: 95] والرجس هو: هو كل ما لا خير فيه، وقيل عذاب الله، وقيل الشيطان[4]، وقيل

1865–1866، السيوطي، لباب النقول في أسباب النزول، حديث رقم 497، ص 140، والواحدي، أسباب النزول، حديث رقم 254، ص260،

([1]) الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج9 ، ص 5389 – 5390 .

([2]) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ج 1، ص 347 .

([3]) أبو حيان، البحر المحيط، ج 5، ص 84 .

([4]) انظر: الطبري، جامع البيان، ج12، ص 111.

العمل القبيح: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ إذا انصرفتم إليهم من غزوكم، ﴿لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ لتصفحوا عنهم ولا تؤنبوهم، ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ فدعوهم وما اختاروا لأنفسهم من النفاق، ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ نجس أي: إن عملهم قبيح، ﴿وَمَأْوَاهُم﴾ في الآخرة، ﴿جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.[1]

والإعراض في قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ﴾ لا إعراضَ رضا كما هو طِلْبتُهم بل إعراضَ اجتنابٍ ومقتٍ كما يعرب عنه قوله عز وجل: ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ فإنه صريحٌ في أن المرادَ بالإعراض عنهم إما الاجتنابُ عنهم لما فيهم من الرجس الروحاني، وإما تركُ استصلاحِهم بترك المعاتبةِ لأن المقصودَ بها التطهيرُ بالحمل على الإنابة وهؤلاء أرجاسٌ لا تقبل التطهير، فلا يُتعرّضُ لهم بها[2]، فيجب تركهم والمهاجرة لهم، لأنهم في أنفسهم رجس لكون جميع أعمالهم نجسة، فكأنها قد صيرت ذواتهم رجساً، أو أنهم ذوو رجس: أي ذوو أعمال قبيحة، ومثله: ﴿إِنَّمَا المشركون نَجَسٌ﴾[التوبة: 28] وهؤلاء لما كانوا هكذا كانوا غير متأهلين لقبول الإرشاد إلى الخير، والتحذير من الشرّ، فليس لهم إلا الترك[3]، ويشار هنا إلى أن الرسول –صلى الله عليه وآله وسلم– لم يعاقب المنافقين، ولم يقتل أحداً منهم، بل كان دائماً يتركهم وشأنهم مع علمه التام بهم وبأفعالهم، ولعل ذلك من السياسة الشرعية القاضية بدرء القيل والقال وأن محمداً يقتل أصحابه (فقد جاء في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، عندما قال: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، قال: «دعه لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه»[4]، ولكن الله تعالى توعدهم بأشد العذاب في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنافِقِينَ وَالْمُنافِقاتِ وَالْكُفَّارَ نارَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذابٌ مُقِيمٌ﴾[التوبة: 68] فبعد بيان جانب من

([1]) البغوي ، معالم التنزيل ، ج4 ، ص 85 .

([2]) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، ج 3 ، ص 94.

([3]) انظر: الشوكاني، فتح القدير، ج1، ص 593.

([4]) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾[المنافقون: 8] ، حديث رقم 4907، ج6، ص 154، وانظر الطبري، جامع البيان، ج23، ص 404.

صفاتهم الذميمة، جاء لبيان لسوء مصيرهم فوعدهم الله تعالى خلودا أبديا لإهانتهم وإذلالهم، وكذلك طردهم وأبعادهم من رحمته، ولهم عذاب دائم لا ينقطع فهم في الدنيا يعيشون في عذاب القلق والحذر من أن يطلع المسلمون على نفاقهم، وفي الآخرة يذوقون العذاب الذي هو أشد وأبقى، بسبب إصرارهم على الكفر والفسوق والعصيان.[1]

2.3 الأزمة التربوية السلوكية:

إن الإيمان بالله تعالى والاعتقاد به رباً وإلهاً يتناول جميع الشعائر والمناسك؛ كما يتناول الأخلاق والسلوك، والقيم والموازين؛ ويتناول الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وكل جانب من جوانب الحياة الفردية والجماعية على السواء... كما أن قضية الأخلاق بجملتها هي قضية عقيدة؛ فمن العقيدة ينبثق منهج الحياة الذي يشتمل الأخلاق والقيم؛ كما يشتمل الأوضاع والشرائع سواء بسواء[2]، كما أن المنهج التربوي الأصيل في القرآن الكريم عامة، وفي سورة التوبة خاصة فيه من الكنوز التربوية والبصائر والقيم التعليمية التهذيبية ما يجعله الأجدر بالاهتمام والدراسة؛ فهو منهج شامل لجميع مناحي الحياة ؛ ينظّم علاقة المسلم بربه وبنفسه وبالناس جميعاً، كما أنه استخدم شتى الوسائل التربوية في عرض المنهج التربوي السليم من ترغيب وترهيب وحوار وسرد قصصي ومواعظ وخطاب مباشر وغير مباشر...وغيرها، وفي هذه الجزئية من بحثي سأتناول منهج سورة التوبة التربوي في عرض بعض السلوكات والقيم، هذا وقد أولى الإسلام اهتماماً عظيماً بالسلوك والقيم؛ وكان من خصائص الإدارة في الإسلام؛ معالجة الخلل في السلوك والقيم، والالتزام الدائم الإيجابي منها، وأشد ما يكون الالتزام بالسلوك والقيم الإيجابية أو الأخلاق الفاضلة حين تكون من عقيدة الكيان التي يؤمن بها، وهذا موجود لدى الكيان المسلم... وكثيراً ما يكون السلوك البشري والأخلاق الإنسانية –وغالباً السيئة منها– من أهم العوامل المسببة للأزمات[3]،

([1]) انظر: طنطاوي، التفسير الوسيط، ج6، ص 343 .

([2]) انظر: قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج4، ص 2114 .

([3]) انظر: شقرة، محمد عاصم محمد ابراهيم، نحو أنموذج اسلامي لإدارة الأزمات، ص 18 و ص 47 و ص 85 .

كما (أن المسلمين كانوا وما زالوا يعانون أزمة عقيدة، وقد أُضيفت إليها أزمة أخلاق، وهما أزمتان حادتان خطيرتان، لا تطيب الحياة معهما)[1]، ويُعد من أهم سبب لأزمات الأخلاق في العالم الإسلامي الآن؛ هو ترك الاقتداء برسولنا الكريم؛ حيث قال فيه تعالى ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[القلم: 4]، وقال أيضاً ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾[الأحزاب: 21]، وقال في حقه أيضاً ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾[آل عمران: 159]...[2]، وظهر أسلوب النبي –عليه الصلاة والسلام– جلياً في التربية وتعليم أصحابه جل القيم وأعلاها في كل خطواته –عليه السلام– وظهر ذلك من خلال بعض موضوعات السورة في هذا البحث، وقد ذكرت جوانباً منها – في غزواته، في الهجرة، في تقسيم الغنائم بعد الغزوات، وتعامله مع أصناف المجتمع من يهود ومشركين ومنافقين وأعراب والخلّص من المؤمنين... وغيرها–(وتعتبر أزمة السلوك والأخلاق من الأزمات المعنوية التي تدور حول محور غير موضوعي، وهي أزمات ذات طابع نفسي، وشخصي، وغير ملموس، ولا يمكن الإمساك بأبعادها بسهولة، ولا يمكن رؤية أو سماع الأزمة، بل يمكن الشعور بها.[3]

فما هي الأزمة التربوية السلوكية: (هي حالة مؤقتة من الضيق وعدم التنظيم، وضعف الإرادة بعدم مقدرة مدير المؤسسة التربوية على مواجهة موقف معين باستخدام الطرق التقليدية في معالجة الموقف الأزموي وتؤدي في الغالب نتائج غير مرغوب فيها؛ وخاصة في حالة عدم وجود استعداد أو مقدرة على مواجهتها)[4] وعرف الشلوي

([1]) http://www.Aluka.net، محاضرات لمجموعة من العلماء والدعاة، والمحاضرة للعلامة (الألباني)، صفر، 1429 هـ، ص 5 .

([2]) اليازجي، صبحي رشيد، من وحي القرآن الكريم، مجلة الجامعة الإسلامية (سلسلة الدراسات الإسلامية) المجلد التاسع عشر، العدد الثاني، ص 321– ص377 يونيو 2011، ص330 .

([3]) انظر: الخضيري، محسن أحمد، إدارة الأزمات، ص 86– 87.

([4]) القرم، محمد حسين أمين، أنموذج لإدارة الأزمات في مؤسسات التعليم العالي في الأردن، رسالة ماجستير 2008م، ص 16 .

الأزمة التربوية من ناحية التربية الإسلامية في بحثه على أنها (تلك المواقف التي تواجه المربين، وتأخذ طابع العموم للمجتمع، وتقتضي اتخاذ موقف حاسم لتوجيه المتلقين توجيهاً صحيحاً يسبقه إعداد تربوي، يجنبهم الوقوع في تبعات هذه الأزمة)[1]، وهذا التعريف مع جودته ودقة تعبيره إلا أنه خاص لم يشمل موضوعات التربية والسلوك والقيم كلها؛ بل اقتصر على المواقف التي تواجه المربين فقط، ثم أني لم أجد من عرّف أزمة التربية والسلوك في الإسلام تعريفاً يوافق موضوعات بحثي؛ ولكن وبعد الاطلاع على كتب وموسوعات البحوث والمقالات العلمية في موضوع مشكلات وأزمات في الأخلاق والقيم اجتهدت تعريفها بالآتي:

"أنها حدوث خلل في السلوك والقيم التربوية؛ إن بغزوٍ فكري أو بانحرافٍ ذاتي، مقصود أو غير مقصود تختلف درجة خطورته، وعدد الأفراد المؤثر فيهم، وهو يؤثر في الغالب على جو المجتمع الإسلامي بشكل عام، وعلى من يعيش فيه من غير المسلمين"، وبكون السلوك -السيء في الغالب- سبباً لأزمات عدة؛ فقد تحدثت في بحثي هذا؛ عن أزمات تربوية سلوكية من خلال الأزمات الأخرى- السياسية، العقدية، الاجتماعية، الاقتصادية... وغيرها، وذلك لأن السورة تحدثت وبشكل واضح أساسي عن الأزمات التربوية في التعامل وتوجيه المتلقين لها مع جميع شرائح المجتمع من مشركين وأهل كتاب ومن شرائح المجتمع الأخرى وطبقاته الإيمانية[2]؛ فقد تتقاطع موضوعات الأزمات في بعضها في الدولة المسلمة؛ ولكنها في النهاية منظومة واحدة كلٌ يؤثر على الآخر؛ ويتأثر به؛ ولكن هنا سأسلط الضوء على بعض الجوانب والأزمات السلوكية التربوية في هذه الموضوعات في السورة من خلال المطالب التالية:

([1]) الشلوي ، فهد بن ناجي، دور التربية الإسلامية في مواجهة الأزمات، ص 9 .

([2]) أكثر ما واجه المسلمون في نهاية العهد المدني من أزمات من الناحية التربوية السلوكية؛ كانت مع المنافقين، وقد تحدثت عن بعضها خلال أزمة النفاق كنقض العهد، والكذب، والبخل، وكثرة الحلف والأيمان، والخيانة... وغيرها، ص 156-ص182، لا داعي لإعادتها.

المطلب الأول : الإعلام والأذان بالبراءة، واختيار زمانها ومكانها لذلك.
المطلب الثاني: الطعن في أخلاق المسلمين، قادةً ورعيّة.
المطلب الثالث: حرمة وآداب الزمان والمكان.
المطلب الرابع: عدم احترام العهود والمواثيق والأنظمة، وقطع روابط القرابة والجوار والصحبة.

1.2.3 الإعلام والأذان بالبراءة ، واختيار زمانها ومكانها:

قال تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ* فَسِيحُوا فِي الأرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ* وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [سورة التوبة: 1، 2، 3].

﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ﴾: (إعلام من الله، والأذان والإيذان والتأذين الإعلام)[1]، وقوله: ﴿إِلَى النَّاسِ﴾ التعميم في هذا: أي أنه إيذان من الله إلى كافة الناس غير مختص بقوم دون قوم، فهذه الجملة متضمنة للإخبار بوجوب الإعلام لجميع الناس، والجملة الأولى متضمنة للإخبار بالبراءة إلى المعاهدين خاصة، و﴿ يَوْمَ الْحَجِّ﴾ ظرف لقوله: ﴿وَأَذَانٌ﴾، ووصفه بالأكبر لأنه يجتمع فيه الناس، أو لكون معظم أفعال الحج فيه[2]، والفرق بين البراءة الأولى والثانية أن (جملة ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ إخبار بثبوت البراءة وإعلاماً بالمبدأ، وجملة ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ إخبار بوجوب الإعلام بما ثبت، وهو إبلاغ البراءة)[3]، وقد كان الأسلوب غايةً في التربية حيث (جاء التصريح بفعل البراءة مرّة ثانية دون إضمار ولا اختصار بأن يقال: وأذان إلى الناس

([1]) السجستاني، أبو بكر محمد بن عزيز (330هـ)، كتاب غريب القرآن، تحقيق: محمد أديب عبد الواحد جمران، دار قتيبة، 1995م ، ج1، ص 62 .

([2]) الشوكاني، فتح القدير، ج1، ص 555 .

([3]) انظر: أبو حيان، البحر المحيط، ج 5، ص10، الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج8، ص4864 .

بذلك، أو بها، أو بالبراءة، لأنّ المقام مقام بيان وإطناب؛ لأجل اختلاف أفهام السامعين فيما يسمعونه، ففيهم الذكّي والغبي، ففي الإطناب والإيضاح قطع لمعاذيرهم واستقصاء في الإبلاغ لهم).[1]

وهذا الإعلان العام، بهذا الإيقاع العالي؛ (يتضمن المبدأ العام للعلاقة بين المسلمين والمشركين في ذلك الحين في جزيرة العرب قاطبة، والإعلان ببراءة الله، وبراءة رسوله من المشركين، يحدد موقف كل مسلم؛ ويوقع إيقاعاً عميقاً عنيفاً على قلب كل مسلم، بحيث لا يبقى بعد ذلك مراجعة ولا تردد)[2]؛ وهنا نقف أمام أزمة تحتاج أسلوباً تربوياً منه –عليه الصلاة والسلام– في إعلان التشريع الجديد بإسلوبٍ صريح شرعه الله تعالى وأمره بتبليغه وتنفيذه أمام هؤلاء المشركين الذين اعتادوا خرافات وضلالات وسلوكيات وأخلاقيات تناقض الكيان الإسلامي[3]، (ويؤخذ من تقرير البراءة من المشركين؛ جواز نبذ العهود لمن كان بيننا وبينه عهد متى رأى الإمام مصلحة الأمة في ذلك، كأن خيف منهم خيانة، أو نقضوا شيئاً من شروط المعاهدة، ويؤخذ من قوله تعالى: ﴿إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ﴾ أن عقد المعاهدات هو حق للجماعة، يوافق عليه أصحاب الرأي والاختصاص في موضوع المعاهدة، وما هو في مصلحة الجماعة، ثم يُباشر الإمام بعد ذلك نيابةً عن الجماعة)[4]، وقد روي أنه (لما نزلت براءة على رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، وكان قد بعث أبو بكر الصديق رحمة الله عليه ليقيم الحج للناس؛ قيل له: يا رسول الله، لو بعثت إلى أبي بكر، فقال: لا يؤدِّي عني إلا رجل من أهل بيتي، ثم دعا علي بن أبي طالب رحمة الله عليه، فقال: اخرج بهذه القصة من صدر "براءة"، وأذِّن في الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنىً: أنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطف بالبيت عريان، ومن كان له عند رسول الله –صلى الله عليه وسلم– عهد فهو إلى مدته؛ فخرج علي بن أبي طالب

([1]) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 10، ص 109 .

([2]) قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج 3، ص 1598 .

([3]) انظر: رضا، محمد رشيد، المنار، ج 10، ص 153 .

([4]) رضوان، علي حسن، تفسير سورة التوبة، ص 28 .

رحمة الله عليه على ناقة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – العضباء[1]، حتى أدرك أبا بكر الصديق بالطريق. فلما رآه أبو بكر قال: أميرٌ أو مأمور؟ قال: مأمور، ثم مضيا رحمة الله عليهما، فأقام أبو بكر للناس الحج، والعرب إذ ذاك في تلك السنة على منازلهم من الحجّ التي كانوا عليها في الجاهلية. حتى إذا كان يوم النحر، قام علي بن أبي طالب رحمة الله عليه، فأذن في الناس بالذي أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم، ... فلم يحجّ بعد ذلك العام مشرك، ولم يطف بالبيت عريان)[2]؛ فكان تعامل رسول الله –صلى الله عليه وسلم– رقياً تربوياً في اختيار ابن عمه لإعلان البراءة، وإنهاء سلوكات وقيم أهل الجاهلية الضالة؛ (وذلك لأنه قيل لرسول الله إنّ العرب لا يرون أن يَنقض أحد عهدَه مع مَن عاهده إلاّ بنفسه أو برسول من ذي قرابة نسبه، فأراد النبي – صلى الله عليه وسلم– أن لا يترك للمشركين عذراً في علمهم بنبذ العهد الذي بينه وبينهم)[3]، ويُعتبر معلمنا الأول سيدنا محمد –صلى الله عليه وسلم– وصحابته الكرام، ومنهم هنا أبو بكرٍ الصديق، وعلي بن أبي طالبٍ –رضي الله عنهم– هم أعضاء فريق المهام الأزموية في إعلان البراءة وقد توفرت فيهم شروط أعضاء فريق الأزمات السياسية والتربوية وغيرها، ومن أهمها (المهارة والقدرة الأكبر على التدخل الناجح في الأزمة، رباطة الجأش وبرود الأعصاب، وعدم القابلية للانفعال أو التأثر النفسي والعاطفي أمام أحداث الأزمة، والطاعة العمياء للأمر المتخذ وتقديس الواجب، والانتباه والوعي والحرص الشديد عند القيام بتنفيذ المهام ، والتضحية بالذات إن لزم الأمر والاستعداد لذلك، والولاء والانتماء للكيان الإداري)[4] وفي اختيار موسم

([1]) العَضْباء: العَضَبُ، يُقال: كَبْشٌ أعْضَبُ: إذا كانَ مَكْسورَ القرنِ الدّاخِل، وكانت ناقةُ رَسول الله عليه الصلاة والسلام تُسّمى العَضْباء، انظر: الفارابي، معجم ديوان الأدب، ج2، ص258.

([2]) انظر: صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب قوله تعالى ﴿فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾[سورة التوبة: 2]، حديث رقم 4655، ج 6، ص64، وانظر: الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج14، ص 93 .

([3]) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 10 ، ص 110 .

([4]) الخضيري، محسن أحمد، إدارة الأزمات، ص 206 .

الحج العظيم لهذا الإعلان العظيم، وإعطائه عليه السلام ناقته العضباء أيضاً إظهاراً لهيبة وخطورة الموضوع، وقد كان هذا الموضوع هو سبب هذه الأزمة؛ وهي السلوكات والخرافات عند المشركين والتي نادى بإنهائها علي –رضي الله عنه– بأمرٍ من رسول الله–صلى الله عليه وسلم–، وقد رأينا في الحديث السابق كيف أن هذه الضلالات والأخلاق السيئة انتهت للأبد بعد هذا الإعلان الصارم، كما أن في اختيار المكان والزمان أيضاً سلوك تربوي حكيم؛ أعطى مزيداً من التشويق للموضوع ، فقوله تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مّنَ الله وَرَسُولِهِ إِلَى الناس يَوْمَ الحج الأكبر﴾، (أمر من الله تعالى بهذا الإعلام يوم الحج الأكبر، وهو الجمع الأعظم ليصل ذلك الخبر إلى الكل ويشتهر، وقيل: سمي ذلك اليوم بيوم الحج الأكبر لاجتماع المسلمين والمشركين فيه، وموافقته لأعياد أهل الكتاب، ولم يتفق ذلك قبله ولا بعده، فعظم ذلك اليوم في قلب كل مؤمن وكافر)[1]، وهكذا لتصل هذه التشريعات للمؤمن والمشرك على حدٍ سواء، وهو الحج الأكبر أيضاً (لأنه الحج الوحيد الذي اجتمع فيه الكفار والمؤمنون، وبعد ذلك لم يعد هناك حج للكفار أو المشركين)[2]؛ ولكن القرآن الكريم يستخدم الأساليب التربوية جميعها في بيان الأحكام والتشريعات فها هو هنا يستخدم الترغيب والترهيب في إعلان البراءة فقال تعالى: ﴿فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾(أي فلما أعلم سبحانه بالبراءة عنها، سبب عنها مرغباً مرهباً قوله التفاتاً إلى الخطاب: ﴿فَإِنْ تُبْتُمْ﴾ أي عن الكفر والغدر ﴿فَهُوَ﴾ أي ذلك الأمر العظيم وهو المتاب ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾ أي لأنكم تفوزون في الوفاء بالأمان في الدنيا، وفي الإسلام بالسلامة في الدارين؛ ولما كانت التوبة محبوبة بالطبع لما لها من النفع قال: ﴿وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي أصررتم على الكفر والغدر اتباعاً للهوى المكتسب من خباثة الجبلة ورداءة الأخلاط ﴿فَاعْلَمُوا﴾ أي علماً لا شبهة فيه ﴿أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ أي لأن له صفات الكمال من الجلال والجمال، ولما واجههم بالتهديد، أعرض عنهم وجه الخطاب تحقيراً لهم مخاطباً لأعلى خلقه مبشراً له في أسلوب التهكم بهم، فقال عاطفاً

([1]) الرازي، مفاتيح الغيب، ج 15، ص 230 .

([2]) الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج 8، ص4867 .

على ما تقديره: فبشر الغادرين بالخدلان، أو فبشر التائبين بنعيم مقيم : ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي أوقعوا هذا الوصف ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي في الدنيا والآخرة أو فيهما .[1]

ثم أظهرت هذه الآيات درجة من الرقي التربوي، وهي إعلام الآخرين من أعداء الدين والمشركين بأن الدولة الإسلامية ستقوم بقتالهم، وهكذا لا غدر ولا خيانة ولا أخذ على حين غرة ؛ إنما التحذير والتنبيه وإعطاء الفرصة الكاملة للاستعداد وللتفكير في أمرهم وهذا منتهى التسامح والإنذار[2] يقول تعالى: ﴿فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ (أي: فسيروا فيها مقبلين ومدبرين، آمنين غير خائفين من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتباعه، ثم قال بعد ذلك: ﴿إلا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ * فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[التوبة: 5/4]، فأمر بقتل المشركين الذين لا عهد لهم بعد انسلاخ الأشهر الحرم، وبإتمام عهد الذين لهم عهد إذا لم يكونوا نقضوا عهدهم بالمظاهرة على المؤمنين، وإدخال النقص فيه عليهم)[3]؛ فبين الله تعالى سلطان الأخلاق في الإسلام، إنه يعلق الوفاء بالعهد بتقوى الله وحبه –سبحانه– للمتقين؛ فيجعل هذا الوفاء عبادة له؛ وتقوى يحبها من أهلها، وهذه هي قاعدة الأخلاق في الإسلام، إنها ليست قاعدة المنفعة والمصلحة؛ وليست قاعدة الاصطلاح والعرف المتغيرين أبداً، إنها قاعدة العبادة لله وتقواه ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ فالمسلم يتخلق بما يحبه الله منه ويرضاه له[4]، ومن الرقي التربوي أيضاً؛ بعد كل هذا يستخدم القرآن الكريم "مبدأ الإجارة مع العدو" وهو حمايته من أي أذى حتى يسمع كلام الله، وهو سلوك تربوي في قمة الرقي، قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾[التوبة:6] أي(﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ المأمور

([1]) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ج 8، ص 378 – 379 .

([2]) انظر: الزحيلي، التفسير المنير، ج 9، ص 101 .

([3]) الطبري، جامع البيان، ج 14، ص 110–111 .

([4]) انظر: قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج3، ص 1601 .

بالتعرض لهم، ﴿اسْتَجَارَكَ﴾ استأمنك وطلب منك جوارك، ﴿فَأَجِرْهُ﴾ فأمنه، ﴿حتى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللهِ﴾ ويتدبره ويطلع على حقيقة الأمر ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ موضع أمنه إن لم يسلم، ﴿ذَلِكَ﴾ الأمن أو الأمر ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ﴾ ما الإيمان وما حقيقة ما تدعوهم إليه فلا بد من أمانهم ريثما يسمعون ويتدبرون)[1] وفي قراري السياحة والإجارة مع العدو يؤخذ مبدأ الهدنة والصلح في الإسلام طلبها العدو، أم تقدّم بها المسلمون...،[2] وإجمالاً فإن القسم الأول من أقسام سورة براءة والذي تكلم عن العلاقة مع المشركين وأهل الكتاب؛ بيّن وبشكل واضح الأخلاق التي لابد منها لإقامة الجهاد الإسلامي[3](وفي الكلام تنويه بمعالي أخلاق المسلمين وغض من أخلاق أهل الشرك، وأنّ سبب ذلك الغضّ الإشراك الذي يفسد الأخلاق[4]).

وهكذا نرى أنه وفي كل زمان ومكان (لابدّ أن يلعب الإعلام دوراً مهماً في نُصرة الدين، وإدارة المعارك، والدفاع عن جميع قضايا المسلمين الدينية والوطنية والسياسية والاجتماعية، وبالتالي يجب استخدام كافة الوسائل الإعلامية وأفضلها لنشر دين الله تعالى في الأرض)[5]، وذلك لأن للإعلام أهمية خطيرة وكاملة ذات أبعاد ومضامين متعددة، وتأثيرات متباينة، وهو في الوقت نفسه أحد العوامل الرئيسية، وأداة من أدوات تجهيزات إدارة الأزمات، فالإعلام أحد أسلحة العصر الحديث، بل أشدها خطورة وفعالية وحسماً في الصراعات الدولية، وأداة لصنع الأحداث والتأثير على مجرياتها وعلى اتجاهاتها كوسيلة لنقل أخبارها، وذلك لما يتوفر للإعلام من قدرات هائلة تساعد على انتقاله بسرعة كبيرة، واجتيازه للحدود، وتخطي العوائق، واختراق أمنع للتحصينات عبر العديد من الوسائل المسموعة والمرئية والمقروءة، ولما له من قدرة على التأثير النفسي على الأفراد والسيطرة الفكرية على المجتمعات، والتحكم في

---

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج 3 ، ص 72 .

(2) انظر: رضوان، علي حسن، تفسير سورة التوبة ، ص 28 .

(3) انظر: حوا، سعيد، الأساس في التفسير، دار السلام، القاهرة ، ط1، 1985م، ج4، ص2279 .

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 10، ص 120 .

(5) الخطيب، حسن عبد الله طه، أهداف ومقاصد سورة التوبة، ص 96 .

سلوكياتهم وفي توجيههم، ومن ثم يمكن استخدام الإعلام بذكاء في إدارة الأزمات [1]، كما ويجب أن يكون للإعلام دورٌ ايجابيٌ في حل المشاكل التربوية ومشكلة الأخلاق وأزمات السلوك عن طريق الحملات المكثفة الإعلامية لذلك؛ خاصةً وأن أزمة المسلمين اليوم وُصفت بأنها أزمة أخلاق. [2]

ويمكن تقرير حقيقة غاية في الأهمية هي أن التلفزيون–والقنوات الفضائية أحد أشكال الإعلام اليوم– قد أثار من المناقشات والجدل العلمي أضعاف ما أثارته وسائل الإعلام الأخرى، ومن خلال تلك المناقشات يتحدد موقع التلفزيون في عملية التأثير وتبادل المعاني في المجتمع، وأن ظاهرة الإعلام الفضائي المعاصر أحدثت أضراراً بما أحدثته في الحياة البشرية عموماً، والحياة الإسلامية خصوصاً، فكثير من الناس يرى أن البث المباشر في بعض القنوات الفضائية له سلبيات كثيرة تمثلت في المآخذ العقدية والثقافية، والأخلاقية، والسياسية الملاحظة على مضامين كثير من قنواته التي تسعى لجذب المشاهدين بتقديم الممنوع في ملتهم وبلدانهم من المضامين التي تبثها، ومن ثم اعتبر مثل هذا البث ضرباً من الاختراق للمقاييس الأخلاقية والثقافية للمجتمعات، ثم أن اقتحام أجهزة المشاهدين في منازلهم من غير استئذان ولا رقيب كان له أخطر الآثار العقدية والثقافية والعلمية، والسياسية، والأخلاقية والأمنية، والاجتماعية إلى غير ذلك من الآثار التي أشارت إليها دراسة أجريت على الأطفال العرب، كان أهمها تمرد الأطفال على أسرهم واتساع الفجوة الفكرية بين الفئات والطوائف المختلفة، وارتفاع نسبة التقليد الأعمى لما يشاهدون، وشيوع السلوك العدواني، وضعف التحصيل الدراسي، والإصابة بالكسل، والإحساس بالنقص مع التأخر العقلي والعلمي.[3] ولن ننسى أن نقول أن للقنوات الفضائية إيجابيات عدة ولكن يجب أن يتبنى المسلمون

([1]) الخضيري ، إدارة الأزمات ، ص 122 .

([2]) http//www.alminbar. net، موسوعة خطب المنبر، 2007/6/15م، الشيخ الألباني، ص 4299 .

([3]) الشنقيطي، سيد محمد ساداتي، القنوات الفضائية، الناشر: وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية 1420هـ– 1999م، ص 26 – 29 .

المنهج الأقوم في التعامل مع هذه المستجدات في حقل الإعلام خصوصاً، ومع كل المستجدات المعاصرة عموماً.

2.2.3 الطعن في أخلاق المسلمين، قادةً ورعيّة:

هذه طائفة من الناس موجودة في كل زمان ومكان؛ هدفها الوقوف ضد الحق، ومعاندة أولي الأمر والخروج عليهم، ومنهم في هذه السورة؛ المنافقين كما رأينا في المبحث السابق؛ وسأقف هنا عند بعض المحطات التربوية لأهميتها، يقول تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾[التوبة: 58]، هذا هو أسلوب أعداء الله في الصد عن الإسلام وفي الطعن بالرسول –صلى الله عليه وسلم–، فهم يرتقبون الفرص لإثارة الشُبه التي يظنون أنها توقع الريب في قلوب ضعفاء الإيمان من الجانب الذي يوافق أهوائهم، وقد كان منها قسمة الصدقات والغنائم[1]، و(هذه الآية تدل على ركاكة أخلاق أولئك المنافقون ودناءة طباعهم، وذلك لأنه لشدة شرههم إلى أخذ الصدقات عابوا الرسول فنسبوه إلى الجور في القسمة، مع أنه كان أبعد خلق الله تعالى عن الميل إلى الدنيا).[2]

ثم يبين الله تعالى أن الأصل في طلب الدنيا أن يكون راضياً بقضاء الله ، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوْاْ مَا ءاتاهم الله وَرَسُولُهُ وَقَالُواْ حَسْبُنَا الله سَيُؤْتِينَا الله مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى الله راغبون﴾[التوبة: 59]؛ فذكر فيه مراتب أربعة: المرتبة الأولى: الرضا بما آتاهم الله ورسوله لعلمه بأنه تعالى حكيم منزه عن العبث والخطأ، والمرتبة الثانية: أن يظهر آثار ذلك الرضا على لسانهم، وهو قوله: ﴿وَقَالُواْ حَسْبُنَا الله﴾ يعني أن غيرنا أخذوا المال ونحن لما رضينا بحكم الله وقضائه فقد فزنا بهذه المرتبة العظيمة في العبودية، فحسبنا الله، والمرتبة الثالثة: وهي أن الإنسان إذا لم يبلغ إلى تلك الدرجة العالية التي عندها يقول: ﴿حَسْبُنَا الله﴾ نزل منها إلى مرتبة أخرى وهي أن يقول: ﴿سَيُؤْتِينَا الله مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ﴾ إما في الدنيا إن اقتضاه التقدير، وإما في الآخرة وهي أولى وأفضل، والمرتبة الرابعة: أن يقول: ﴿إِنَّا إِلَى الله راغبون﴾ فنحن لا نطلب

([1]) انظر: رضا، محمد رشيد، المنار، ج 10 ، ص 486 .

([2]) الرازي، مفاتيح الغيب، ج15 ، ص 101 .

من الإيمان والطاعة أخذ الأموال والفوز بالمناصب في الدنيا، وإنما المراد إما اكتساب سعادات الآخرة، وإما الاستغراق في العبودية(1)، (فهذا هو أدب النفس وأدب اللسان، وأدب الإيمان: الرضا بقسمة الله ورسوله، رضا التسليم والاقتناع لا رضا القهر والغلب، والاكتفاء بالله، والله كاف عبده. والرجاء في فضل الله ورسوله، والرغبة في الله خالصة من كل كسب مادي، ومن كل طمع دنيوي؛ ذلك أدب الإيمان الصحيح الذي ينضح به قلب المؤمن).(2)

ثم أنه (لما لمز المنافقون رسول الله –صلى الله عليه وسلم– في قسمة الصدقات بيّن الله لهم مصرفها دفعاً لطعنهم، وقطعاً لشغبهم؛ فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[التوبة: 60](3)، ثم يُظهر القرآن الكريم طعناً واتهاماً آخر موجه لقائدهم ونبيهم بقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[التوبة: 61].

فهم كانوا يعيبونه، ويبسطون ألسنتهم بالوقيعة في أذيته عليه –الصلاة والسلام– بأنه أُذُن يسمع جميع ما يقال له؛ فجعلوا ذلك عيباً فيه، وقيل أنهم قصدوا أنه، أُذن إذا أجبناه وحلفنا له صدقنا، فنسبوه بذلك إلى قبول العذر في الحق والباطل(4)، (وغرضهم منه أنه ليس له ذكاء ولا بعد غور، بل هو سليم القلب سريع الاغترار بكل ما يسمع، فلهذا السبب سموه بأنه أذن، كما أن الجاسوس يسمى بالعين)(5)، (والتعبير بالنبي إظهار في مقام الإضمار لأنّ قبله ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾[التوبة: 58] فكان مقتضى الظاهر أن يقال: «ومنهم الذين يؤذونك» فعُدل عن الإضمار إلى إظهار

---

(1) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ج 15، ص 101 – 102 .

(2) قطب، سيد ، في ظلال القرآن، ج3، ص 1668 .

(3) الشوكاني، فتح القدير، ج1 ، ص 579 .

(4) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج7، ص 192، الماوردي، النكت والعيون، ج2، ص377 .

(5) الرازي ، مفاتيح الغيب، ج 15، ص 119 .

وصف النبي للإيذان بشناعة قولهم ولزيادة تنزيه النبي بالثناء عليه بوصف النبوءة بحيث لا تحكى مقالتهم فيه إلاّ بعد تقديم ما يشير إلى تنزيهه والتعريض بجرمهم فيما قالوه[1]، ثم يبين الله تعالى بقوله ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ﴾ أنه ليس بأذن في سماع الباطل كالكذب والنميمة والجدل والمراء، وإذا سمعه من غير أن يستمع إليه لا يقبله ولا يصدق ما لا يجوز تصديقه كما هو شأن الملوك والزعماء الذين يتقرب إليهم أهل الأهواء بالسعاية لإبعاد الناصحين المخلصين؛ بل أذن خير يصدق بالله وبما يوحى إليه[2]، (ثم وصفه تعالى بأنه ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾، ومن آمن بالله كان خائفاً منه لا يقدم على الإيذاء بالباطل، ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: يسمع من المؤمنين ويسلم لهم ما يقولون ويصدقهم لكونهم مؤمنين، فهم صادقون، ﴿وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُم﴾، وخص المؤمنين وإن كان رحمة للعالمين، لأن ما حصل لهم بالإيمان بسبب الرسول لم يحصل لغيرهم، وخصوا هنا بالذكر وإن كانوا قد دخلوا في العالمين لحصول مزيتهم، وهذه الأوصاف الثلاثة مبينة جهة الخيرية، ومظهرة كونه صلى الله عليه وسلم أذن خير[3]، (وقد جاء ذكر هذه الخصلة مع الخصلتين الأخريَين على عادة القرآن في انتهاز فرصة الإرشاد إلى الخير، بالترغيب والترهيب، فرغَّبَهم في الإيمان ليكفِّروا عن سيّئاتهم الفارطة، ثم أعقب الترغيب بالترهيب من عواقب إيذاء الرسول بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، وهو إنذار بعذاب الآخرة وعذاب الدنيا)[4]، وهذه الآية وما في معناها دليل على أن إيذاء الرسول –صلى الله عليه وسلم– كفر إذا كان فيما يتعلق برسالته، لأن ذلك يُنافي الإيمان، وأما إيذاؤه في شئونه البشرية والعادات الدنيوية فحرام، لا كفر كإيذاء الذين كانوا يطيلون المكث في بيوته بعد الطعام ، وإيذاء الذين كانوا يرفعون أصواتهم في ندائه ويسمونه باسمه، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾[الحجرات: 2]، وإيذاؤه صلى الله عليه وسلم بعد

([1]) ابن عاشور، التحرير، ج 10، ص 241 .

([2]) المراغي، تفسير المراغي، ج 10، ص 148 .

([3]) أبو حيان، البحر المحيط، ج 5، ص 64 .

([4]) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 10، ص 244 .

انتقاله الى الرفيق الأعلى كإيذائه في حال حياته كالخوض في أبويه وآل بيته بما يعلم أنه يؤذيه لو كان حيا، فالإيمان به -صلى الله عليه وسلم- مانع من تصدى المؤمن لما يُعلم أو يُظَن أنه يؤذيه صلوات الله عليه إيذاء ما، فهذا الذنب من أكبر الذنوب ومعصية من أعظم المعاصي[1]، وهنا نجد كيف أن الله جل وعلت قدرته؛ يدافع عن نبيه وينصره في كل موطن يحاول أعداء الدين الطعن فيه عليه السلام أو النيل منه؛ وهذا مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِلا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾[التوبة: 40].

فهو هنا (إعلامٌ من الله أصحابَ رسوله -صلى الله عليه وسلم- أنّه المتوكّل بنصر رسوله على أعداء دينه وإظهاره عليهم دونهم، أعانوه أو لم يعينوه).[2]

وهم أيضاً يسخرون ويستهزؤون من رسول الله ويطعنون ويعيبون الصالحين من الناس، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[التوبة: 79]، وهم الذين يذمون المتطوعين من المؤمنين في أكمل فضائلهم ويعيبونهم في أمر الصدقات، ويقولون ما فعلوها لوجه الله تعالى، وإنما فعلوها رئاء الناس، ﴿وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾، ويعيبون الفقراء الذين تصدقوا بقليل هو مبلغ جهدهم وآخر طاقتهم؛ فيستهزئون بهم احتقاراً لما جاءوا به وعدّا له من الحماقة والجنون، وخص هؤلاء بالذكر وإن كانوا داخلين في المتطوعين، لأن مجال لمزهم عند المنافقين أوسع، والسخرية منهم أشد، وهم أهل الإجلال والإكبار والأحق بالثناء عند المؤمنين[3]، ثم أن الله تعالى (قابلهم الله على صنيعهم بأن ﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فإنهم جمعوا في كلامهم هذا بين عدة محاذير: منها: تتبعهم لأحوال المؤمنين، وحرصهم على أن يجدوا مقالا يقولونه فيهم، واللّه يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[النور: 19]، ومنها: طعنهم بالمؤمنين لأجل إيمانهم، ومنها: أن اللمز محرم، بل هو من كبائر الذنوب في أمور الدنيا، وأما اللمز في أمر

([1]) انظر: المراغي، تفسير المراغي، ج10 ، ص 148 .

([2]) الطبري، جامع البيان، ج 14 ، ص 257 .

([3]) انظر : المراغي، تفسير المراغي، ج 10، ص 171 .

الطاعة، فأقبح وأقبح، ومنها: تثبيط المؤمنين في أعمال الخير والطاعة، ومنها: أن حكمهم على من أنفق مالاً كثيراً بأنه مراء، غلط فاحش، وحكم على الغيب، ورجم بالظن، ومنها: أن قولهم لصاحب الصدقة القليلة: "اللّه غني عن صدقة هذا" كلام مقصوده باطل، فإن اللّه غني عن صدقة المتصدق بالقليل والكثير، وفي هذا القول من التثبيط كان جزاؤهم أن سخر اللّه منهم، ولهم عذاب أليم.[1]

3.2.3 حرمة وآداب الزمان والمكان:

(إن الله اصطفى صَفَايا من خلقه، اصطفى من الملائكة رسُلاً، ومن الناس رسلاً، واصطفى من الكلام ذكرَه، واصطفى من الأرض المساجد، واصطفى من الشهور رمضانَ والأشهر الحرم، واصطفى من الأيام يوم الجمعة، واصطفى من الليالي ليلةَ القدر، فعظِّموا ما عظم الله، فإنما تعظم الأمور بما عظَّمها الله عند أهل الفهم وأهل العقل)[2]، كما أنّ تفضيل الأوقات والبقاع يشبه تفضيل الناس، فتفضيل الناس بما يصدر عنهم من الأعمال الصالحة، والأخلاق الكريمة، وتفضيل غيرهم ممّا لا إرادة له بما يقارنه من الفضائل، الواقعة فيه، أو المقارِنة له، فتفضيل الأوقات والبقاع إنّما يكون بجعل الله تعالى بخبر منه، أو باطلاع على مراده، لأنّ الله إذا فضلها جعلها مظانّ لتطلّب رضاه، مثل كونها مظانّ إجابة الدعوات، أو مضاعفةِ الحسنات، والله العليم بالحكمة التي لأجلها فُضّل زمنٌ على زمَن، وفُضّل مكانٌ على مكان والأمور المجعولة من الله تعالى هي شؤون وأحوال أرادها الله، فقدَّرها، فأشبهت الأمور الكونية، فلا يُبطلها إلاّ إبطال من الله تعالى، كما أبطل تقديسَ السبت بالجمعة، وليس للناس أن يجعلوا تفضيلاً في أوقات دينية، ولا أن يغيّروا ما جعله الله تعالى من الفضل لأزمنةٍ أو أمكنةٍ أو ناس.[3]

([1]) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ج 1، ص 345.

([2]) الطبري، جامع البيان، ج 14، ص 238- 239، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج2، ص 391 .

([3]) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 10، ص 184 .

وباعتبار هذه الحرمات لبعض الأمكنة والأزمنة وتخصيصها دون غيرها دروسٌ وعبرٌ شاملة؛ فهي مثلاً تربيةً للنفوس على عظيم القيم وأفضل السلوك، كما أنها حدود خُلُقية في الشرع لهذه الأمكنة في هذه الأزمنة، وتوطينٌ لها على الالتزام بأوامر الله فيها، (والمقصود بالزمان هو الأشهر الحرم وهي: ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ورجب، وحرمتها لازمة لا تنفك عنها قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آَمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [المائدة: 2]، وأكد النبي –صلى الله عليه وسلم– حرمة الزمان والمكان في حجه حيث جاء في الحديث : عن أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْه أنه قَالَ :

"خطبنا النبي صلى الله عليه وسلم يوم النحر، قال: «أتدرون أي يوم هذا؟»، قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «أليس يوم النحر؟» قلنا: بلى، قال: «أي شهر هذا؟»، قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، فقال «أليس ذو الحجة؟» ، قلنا: بلى، قال «أي بلد هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال «أليست بالبلدة الحرام؟» قلنا: بلى، قال: «فإن دماءكم وأموالكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، إلى يوم تلقون ربكم، ألا هل بلغت؟»، قالوا: نعم، قال: «اللهم اشهد، فليبلغ الشاهد الغائب، فرب مبلغ أوعى من سامع، فلا ترجعوا بعدي كفاراً، يضرب بعضكم رقاب بعض»".[1]

وإذا تقررت حرمة الزمان، وجب على المسلم المحافظة عليها بعدة أمور منها: الحرص على الأمن، والمحافظة عليه في هذه الأشهر، وبخاصة في أماكن أداء المناسك في الحج والعمرة، حرمة القتال، فلا يجوز لمسلم أن يعتدي على مسلم ويقاتله في أي زمن كان وتزداد الحرمة ووزرها إذا كان هذا القتال في مكة المكرمة وفي الأشهر الحرم، والحرص على اجتناب المعاصي والسيئات كلها صغيرها وكبيرها في الأشهر الحرم حرمة للزمان، وأما حرمة المكان فهي مكة المكرمة "حرم آمن"، فإثارة

([1]) البخاري، صحيح البخاري، كتاب الحج، باب الخطبة أيام منى، حديث رقم 1739، ج2، ص 176، وصحيح مسلم، كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال، حديث رقم 1679، ج3، ص 1305.

الفتن في مكة المكرمة بالقتال أو المشاغبات أو المظاهرات أو أي مظهر مشابه، لمصلحة شخصية أو حزبية أو لأي سبب آخر كان هو استحلال حرمة الله تعالى)[1]

إن أهم أزماتنا ومشكلاتنا المعاصرة في الحج؛ هو الجهل والتعصب المذهبي، مع غياب الآداب الإسلامية أحياناً، واختلاف المستويات والأقوام والأجناس والثقافات والعادات، وأهم المشكلات وأوضحها هو الازدحام الشديد الذي يؤدي إلى الإيذاء والإضرار، ويدعس الحجاج بعضهم بعضاً، وقد تُزهق بعض الأرواح، ويؤدي إلى الموت الحقيقي قتلاً، وهو حرام شرعاً، وقد اقتُرحت حلول شرعية للمبيت في منى، والرمي، وغيرها لحل مشكلة الزحام في المناسك جميعها والتي من أهمها "منع تكرار الحج، التشدد ما أمكن على اختيار المحرم للنساء ممن لم يحج، كما يُقترح على الحكومات والدول أن تأخذ بالوسائل التقنية، والمعطيات الحديثة، في الانتقال، والمبيت، والسفر، وتخفيفه والتحكم فيه، حتى في الجسور، والأنفاق، والخط الحديدي للسفر الخارجي والداخلي"[2]، وقد خصت سور القرآن الكريم، ومنها سورة التوبة بعض الأزمنة والأمكنة بالحرمة وتربية النفوس فيها كعدم الاعتداء على الآخرين، وإبعادها عن سيء الأخلاق؛ وغيرها ... ومن هذه الآيات في السورة الكريمة في حرمة الزمان وآدابه؛ قوله تعالى: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾[التوبة: 2]، وذلك في اعطاء مدة للمشركين في السياحة ليتفكروا في أمرهم، وما فيه من التسامح وتربية المسلمين على أصول الدعوة إلى الله تعالى، (وهذه الأشهر هي شوال وذي القعدة وذي الحجة والمحرم لأنها نزلت في شوال، وقيل هي عشرون من ذي الحجة والمحرم وصفر وربيع الأول وعشر من ربيع الآخر؛ والمراد من كونها حرماً، أن الله حرم القتل والقتال فيها[3] كما أن في اختيار

([1]) انظر: مجلة البحث العلمي الإسلامي، السنة العاشرة، العدد الثالث والعشرون، 2014/12/28 م، رئيس التحرير: سعد الدين بن محمد الكبي، حرمات مشاعر الحج وشعائره ووقايتها من الفتن، محمد سليم مصطفى "محمد علي"، ص 12- 16 .

([2]) انظر: الزحيلي ، محمد، موسوعة قضايا إسلامية معاصرة ، ج 1، ص 690 – 704 .

([3]) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التنزيل، ج3، ص 70، وانظر الألوسي، روح المعاني، مجلد 4 ، ج5، ص 239 .

يوم الحج الأكبر – وأياً كان المقصود بيوم الحج الأكبر، يوم عرفة أو يوم النحر، أو غيره ... بخلافٍ في المقصود منه–[1] من أيام الحج فهو تفضيل يوم من أيام الحج "الركن العظيم في الإسلام"؛ بل من أيام السنة لإعلان البراءة، وفي هذا تربيتنا كمسلمين على اختيار أوقات مناسبة لإعلان ما يخصنا ويهمنا من أمور، قال تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾[التوبة: 3]، وفي اختيار زمن القتال في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: 5]، دروسٌ وعبر تربوية عسكرية لا يجوز إغفالها[2]، وفي حرمة بعض الأشهر يقول تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾[التوبة: 36].

ومعنى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ﴾ أي: عدد الشهور، ﴿عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ وهي المحرم وصفر وربيع الأول وشهر ربيع الثاني وجمادى الأولى وجمادى الآخرة ورجب وشعبان وشهر رمضان وشوال وذو القعدة وذو الحجة. وقوله: ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي: في حكم الله. وقيل: في اللوح المحفوظ، ﴿يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ والمراد منه: الشهور الهلالية، وهي الشهور التي يعتد بها المسلمون في صيامهم وحجهم وأعيادهم وسائر أمورهم، وبالشهور الشمسية تكون السنة ثلاث مائة وخمسة وستين يوما وربع يوم، والهلالية تنقص عن ثلاث مائة وستين يوما بنقصان الأهلة. والغالب أنها تكون ثلاثمائة وأربعة وخمسين يوما، ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ من الشهور أربعة حرم وهي: رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم، واحد فرد وثلاثة سرد، ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أي: الحساب المستقيم، ﴿فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ بفعل المعاصي وترك الطاعة، وقيل: " العمل الصالح أعظم أجرا في الأشهر الحرم، والظلم فيهن أعظم من الظلم فيما سواهن[3]، والظلم هنا ظلمان ظلم النفس بالمعاصي، وظلم الغير

---

(1) انظر: الطبري، جامع البيان، ج 14 ، ص 113– 125 .

(2) تحدثت عن المعاني في هذه الآيات خلال التحدث عن الأزمات السياسية والعسكرية .

(3) البغوي، معالم التنزيل، ج4، ص 44 .

بالاعتداء عليهم بقول أو فعل، وآية تعظيم الأشهر فيه نص صريح على اجتناب الظلم[1]، (ولأن الله سبحانه إذا عظم شيئا من جهة واحدة صارت له حرمة واحدة وإذا عظمه من جهتين أو جهات صارت حرمته متعددة فيضاعف فيه العقاب بالعمل السيء كما يضاعف الثواب بالعمل الصالح)[2].

والمعنى أن ذلك ثبت يوم خلق الله السموات والأرض اللذين نشأ عنهما الزمان، والحكم بذلك كان قبل أن يخلق الزمان، وهذه الشهور الأربعة الحرم هي بأعيانها لا بمجرد العدد وهذا الأمر العظيم والحكم العالي الرتبة في الإتقان خاصة هو الدين القيم الذي لا عوج فيه ولا مدخل للعباد، وإنما هو بتقدير الله تعالى للقمر[3]، وقد خص الله تعالى الاربعة الاشهر الحرم بالذكر، ونهى عن الظلم فيها تشريفا لها وإن كان منهيا عنه في كل الزمان، و ربّى النفوس في موسم الحج وبيّن عظمة الزمان والمكان– على النهي عن سيء الأخلاق – قال تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾[البقرة: 197].[4]

(وقد خص بعض الأزمنة وبعض الأمكنة بأحكام من العبادات تقتضي ترك المحرمات فيها تنشيطاً للنفوس على زيادة العناية بما يزكيها ويطهرها، فقد جرت عادة الإنسان أن يسأم الاستمرار على حال واحدة تشق عليه، ومن ثم جعل العبادات الدائمة خفيفة لا مشقة في أدائها كالصلوات الخمس، وخص يوم الجمعة بوجوب الاجتماع العام لصلاة ركعتين وسماع خطبتين تذكيراً وموعظةً حسنة تقوّي في المؤمن حب الخير والتعاون على البر والتقوى، وخص رمضان بوجوب صيامه في كل سنة، وخص أياماً معدودات من ذي الحجة بأداء مناسك الحج، وجعل ما قبلها وما بعدها من الأيام الحرم استعداداً لأداء النسك، وحرّم مكة وما حولها في جميع السنة لتأمين الحج والعمرة

([1]) انظر: الطبري، جامع البيان، ج14، ص237–238، وانظر: http//www.alukah.net، الشيخ ابراهيم بن محمد الحقيل .

([2]) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج 7 ، ص 134 .

([3]) انظر : البقاعي، نظم الدرر، ج 8، ص 450 .

([4]) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج7، ص 135 .

التي تؤدى في كل وقت، وحرم رجب في وسط السنة لتقليل شرور القتال وتخفيف أوزاره ولتسهيل السفر لأداء العمرة فيه)[1] ، كما يجب على المسلم للنجاح في الخروج من أزماته استغلال ومراعاة حرمة الوقت وتنظيمه، واحترام الزمن، وإدراك أهميته وذلك لأن (عنصر الوقت أحد أهم المتغيرات الحاكمة في إدارة الأزمات، فالوقت هو العنصر الوحيد الذي تشكل قدرته خطراً بالغاً على إدراك الأزمة، وعلى عملية التعامل إذ أن السرعة مطلوب لاستيعاب الأزمة والتفكير في البدائل واتخاذ القرارات المناسبة، والسرعة في تحريك فريق إدارة الأزمات والقيام بالعمليات الواجبة لاحتواء الأضرار أو الحد منها واستعادة نشاط المنظمة)[2] وفي حرمة بعض الأمكنة على غيرها وتفضيل بعضها، (فقد أعلى الله تعالى مكانة البيت الحرام على غيره، فجاءت التربية الربانية للناس على حرمة هذا المكان، واحترامه وتمييزه على غيره، يقول تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾[التوبة: 7]، أي ﴿إِلا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ﴾ من المشركين ﴿عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ فإن لهم في العهد وخصوصا في هذا المكان الفاضل حرمة، أوجب أن يراعوا فيها.[3]

وقد كان الكفار بجهلهم عن أحكام الدين وتكبرهم عن متابعة المرسلين يتصرفون في شهور السنة بتقليب أحكامها وتحويلها عن مكانها بتحريم حلالها وتحليل حرامها فأعلمنا سبحانه أن تصرفه مسوق بما سطرت في الألواح والأقلام قبل خلق الليالي والأيام...[4] فيجب على العبد المسلم أن يكون بفضلها عارفاً وعلى تعظيمها عاكفاً ولمضاعفة ثواب الله فيها راجياً[5]، وفي سورة الحج أيضاً ما يبين حرمة هذه الأماكن، يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي

([1]) المراغي، تفسير المراغي، ج 10، ص 115 .

([2]) عبوي، إدارة الأزمات، ص 59.

([3]) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ج 1، ص 329.

([4]) تحدثت عن عدة الأشهر من خلال أزمة "النسيء"، ص 153–156.

([5]) ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن محمد القرشي، التذكرة في الوعظ، تحقيق أحمد عبد الوهاب فتيح، دار المعرفة، بيروت، ط1، 1986، ص 173.

جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِي وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: 25] فكلمة: (﴿الْحَرَامِ﴾، كلمة يُستفاد منها أنه مُحرّم أن تفعل فيه خطأ، أو تهينه، أو تعتدي فيه، و﴿الْحَرَامِ﴾ وصف بها بعض المكان وبعض الزمان، وهي خمسة أشياء، البيت الحرام وهو الكعبة، والمسجد الحرام، والبلد الحرام، ثم المشعر الحرام، وهذه عبارة عن دوائر مركز الكعبة، هذه أماكن، ثم الخامس وهو زمن: الشهر الحرام؛ وحرمة الزمان والمكان هنا لحكمة أرادها الخالق سبحانه، لأنه ربٌ رحيم بخلقه يريد أن يجعل لهم فرصة لستر كبريائهم، والحد من غرورهم، وكانت تنتشر بين القوم الحروب والصراعات التي كانت تُذكي نارها عادات قبلية وسعار الحرب، حتى أن كلا الفريقين يريد أن يُفني الآخر، وربما استمروا في الحرب وهم كارهون لها، لكن يمنعهم كبرياؤهم من التراجع والانسحاب...لذلك جعل الله سبحانه لهذه الأماكن والأزمنة حُرمة لتكون ستاراً لهذا الكبرياء الزائف، ولهذه العزة البغيضة... فحرّم الله القتال في الأشهر الحرم، حتى إذا ما استعرت بينهم حرب جاء شهر حرام، فأنقذ الضعيف من قبضة القوي دون أن يجرح كبرياءه... فهي ستار يحميهم من شرور أنفسهم ونزواتها[1]، ثم يبين الله تعالى في السورة أهمية تعظيم حرمات الزمان والمكان واجتناب سيء الأخلاق، ومربياً لهم على معالي الأخلاق بقوله : ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأنْعَامُ إلا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾[الحج : 30]

والحُرْمة: هي مكة والحجّ والعُمرة، وما نهى الله عنه من معاصيه كلها، وقيل الحرمات هي: المَشْعَر الحرام، والبيت الحرام، والمسجد الحرام، والبلد الحرام .[2]

ومن الحكم التربوية التي خص بها الله تعالى بعض الأوقات وبعض الأماكن بمزيد التعظيم والاحترام؛ وذلك (أن بعض الطباع مجبولة على الظلم والفساد وامتناعهم من هذه القبائح على الإطلاق شاق عليهم حتى أن الإنسان ربما امتنع في تلك الأزمنة وفي تلك الأمكنة من القبائح والمنكرات، وذلك يوجب أنواعاً من الفضائل والفوائد: أحدها: أن ترك تلك القبائح في تلك الأوقات أمر مطلوب، لأنه يقل القبائح، وثانيها:

([1]) الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج 16، ص 9767 .

([2]) الطبري، جامع البيان، ج 18، ص 617.

أنه لما تركها في تلك الأوقات فربما صار تركه لها في تلك الأوقات سبباً لميل طبعه إلى الإعراض عنها مطلقاً، وثالثها: أن الإنسان إذا أتى بالطاعات في تلك الأوقات وأعرض عن المعاصي فيها، فبعد انقضاء تلك الأوقات لو شرع في القبائح والمعاصي صار شروعه فيها سبباً لبطلان ما تحمله من العناء والمشقة في أداء تلك الطاعات في تلك الأوقات، والظاهر من حال العاقل أن لا يرضى بذلك فيصير ذلك سبباً لاجتنابه عن المعاصي بالكلية، فهذا هو الحكمة في تخصيص بعض الأوقات وبعض البقاع بمزيد التعظيم والاحترام).[1] ولكننا في الختام نقول: للبارئ تعالى أن يفعل ما يشاء، ويخص بالفضيلة ما يشاء، ليس لعمله علة ولا عليه حجر، بل يفعل ما يريد بحكمته، وقد تظهر فيه الحكمة وقد تخفى.[2]

4.2.3 عدم احترام العهود والمواثيق والأنظمة، وقطع روابط القرابة والجوار والصحبة:

من المشكل في التعامل مع أهل مجتمعك وأقاربك؛ أن لا يراعوا ويحترموا الحقوق والأنظمة والعهود، ولا حتى الروابط المألوفة بين الناس كالقرابة التي تُعد واحدة من أقوى الروابط بينهم، وقد نوّه الله سبحانه وتعالى في سورة التوبة على سلوك أعداء الله في ذلك حيث يقول:

قال تعالى: ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلا وَلا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ* اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ*لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلا وَلا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾[التوبة: 10/9/8]. ومعنى ﴿يَظْهَرُوا﴾: يقدروا ويظفروا، و﴿لا يَرْقُبُوا﴾: أي لا يحفظوا، أو لا يخافوا، وقيل: لا يراعوا[3]، أي إن ﴿يَظْهَرُوا﴾ أي يتمكنوا منكم، وهم إن تمكنوا من المؤمنين لا يرقبون فيهم إلاّ ولا ذمة؛ وهذا إخبار من الله سبحانه وتعالى عمّا في نفوس هؤلاء الكفار من حقد على المؤمنين، ويرقبون: غير ينظرون، وغير

---

(1) الرازي، مفاتيح الغيب، ج15 ، ص 54 .

(2) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج7، ص 136 .

(3) ابن الجوزي، زاد المسير، ج 3، 273 .

يبصرون، وغير يرمقون، مع أنها كلها تؤدي معنى الرؤية بالعين، ولكن يرقب تعني يتأمل ويتفحص باهتمام حتى لا تفوته حركة.[1]

ومعنى: ﴿إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً﴾ وفي الإلّ تأويلات، أحدها: أنه العهد، والثاني: أنه اسم الله تعالى، ويكون معناه لا يرقبون الله فيكم، والثالث: أنه الحلف، والرابع: أن الإل اليمين، والذمة العهد، والخامس: أنه الجوار، والسادس: أنه القرابة، والسابع: أن الإل العهد والعقد والميثاق واليمين، وأن الذمة في هذا الموضع التذمم ممن لا عهد له، ﴿وَلاَ ذِمَّةً﴾ فيها أوجه، أحدها : الجوار، الثاني: أنه التذمم ممن لا عهد له، والثالث: أنه العهد، وقيل الأمان[2] ويطلق الإلّ أيضاً على النسب والقرابة؛ وقد كانت بين المشركين وبين المسلمين أنساب وقرابات، فيصحّ أن يراد هنا كلا معنييه، والذمّة ما يمتّ به من الأواصر من صحبة وخلة وجوار ممّا يجب في المروءة أن يحفظ ويحمى، يقال : في ذمّتي كذا، أي ألتزم به وأحفظه[3]، كما تدل ﴿إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً﴾ على أنهم لا يراعون حلفاً أو حقاً يُعاب على إغفاله مع ما سبق لهم من تأكيد الأَيمان والمواثيقِ[4]؛ ومهما كان معنى الإل والذمة، فهي دالة على فسق واعتداء أعداء الله على حقوق وأهل مجتمعهم؛ بل وعلى سوء التربية والسلوك عندهم؛ وعلى حقدهم وكرههم للإسلام وأهله، ويُدخلون المسلمين أزمات في معرفة سرائرهم وكيفية التعامل معهم، فهم (لا يحفظوا ولا يرعوا عهداً أو قرابة أو حلفاً أو سياسة أو الله تعالى، أو جؤاراً أي: رفع صوت بالتضرع ، ولا يرقبون فيكم سياسة ولا مداراة ولا ذمة، يرضونكم بأفواههم في العدة بالإيمان، وتأبى قلوبهم إلا الكفر، وقيل: يرضونكم في الطاعة، وتأبى قلوبهم إلا المعصية، والظاهر بقاء الأكثر على حقيقته فقيل: وأكثرهم، لأن منهم من قضى الله له بالإيمان، وقيل: لأن منهم من له حفظ لمراعاة الحال الحسنة من التعفف عما يثلم العرض، ويجر أحدوثة السوء، وأكثرهم خبثاً الأنفس خريجون في الشر لا مروءة تردعهم، ولا طباع

([1]) انظر: الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج8، ص 4901 .

([2]) انظر: الماوردي، النكت والعيون، ج 2، ص 343، وانظر: ابن الجوزي، زاد المسير، ج3، ص 273 – 274 .

([3]) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 10، ص 124 .

([4]) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، ج 3، ص 46 .

مرضية تزعهم" تكفهم"، لا يحترزون عن كذب ولا مكر ولا خديعة، ومن كان بهذا الوصف كان مذموماً عند الناس وفي جميع الأديان؛ ألا ترى إلى أهل الجاهلية وهم كفار كيف يمدحون أنفسهم بالعفاف وبالصدق وبالوفاء بالعهد وبالأخلاق الحسنة[1] وقوله تعالى: ﴿يُرْضُونَكُم بأفواههم وتأبى قُلُوبُهُمْ﴾ (أي يقولون بألسنتهم كلاماً حلواً طيباً، والذي في قلوبهم بخلاف ذلك، فإنهم لا يضمرون إلا الشر والإيذاء إن قدروا عليه[2]، وجملة ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ مقصود منها الذمّ، وذلك بالخروج عن مهيع المروءة والرُّجلة، إذ نجد أكثرهم خالعين زمام الحياة، فجمعوا المذمة الدينية والمذمّة العرفية؛ فالفسق هنا الخروج عن الكمال العرفي بين الناس، وليس المراد الخروج عن مهيع الدين لأنّ ذلك وصف لجميعهم لا لأكثرهم، ولأنّه قد عرف من وصفهم بالكفر[3]، وفي هذه الآيات ما فيه دلالة على اشتراك المشركين واليهود بالنفاق وسيء الأخلاق وذلك في إعادة قوله تعالى: ﴿لاَ يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً﴾[التوبة: 10]، (وليس هذا تكريراً، ولكن الأوّل: لجميع المشركين، والثاني: لليهود خاصة، والدليل على هذا ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلا﴾[التوبة: 9]، يعني: اليهود)[4] (لأنه لا يبعد أن تكون طائفة من اليهود أعانوا المشركين على نقض تلك العهود، فكان المراد من هذه الآية ذم أولئك اليهود وهذا اللفظ في القرآن كالأمر المختص باليهود ويقوى هذا الوجه أن الله تعالى أعاد قوله: ﴿لاَ يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً﴾[التوبة: 10] ولو كان المراد منه المشركين لكان هذا تكراراً محضاً، ولو كان المراد منه اليهود لم يكن هذا تكراراً ، فكان ذلك أولى)[5]؛ وقيل أنه في الآية الأولى يبين الحق أنهم إن تمكنوا من المؤمنين فلن يراعوا فيهم قرابة ولا جواراً ولا حلفاً، أما الآية الثانية فهم يظلمون أنفسهم ويبيعون إيمانهم بثمن قليل، وهناك فرق بين ظلم الغير وظلم النفس.[6]

---

(1) انظر: أبو حيان، التفسير المحيط، ج 5، ص 15 –16 .

(2) الرازي ، مفاتيح الغيب، ج15، ص 239 .

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 10 ، ص 124 .

(4) الشوكاني، فتح القدير، ص 559 .

(5) الرازي، مفاتيح الغيب، ج 15 ، ص 240.

(6) انظر: الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج 8 ، ص 4909.

وقيل: أن في الآية الثانية مراعاة لحقوق المؤمنين على الإطلاق، وفي الأوّلى المراعاة لحقوق طائفة من المؤمنين خاصة [1]، وقد وصفهم الله تعالى بالمرة الأولى بعد أن بين أنهم لم يراعوا في شأنكم حقاً ولا عهداً ولا قرابة ولا ضماناً بقوله: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فاسقون﴾ أي خارجون عن الطاعة متمردون لا عقيدة تزعهم ولا مروءة، ووصف الكفرة بالفسق في غاية الذم وفي المرة الثانية؛ وقد نعى عليهم عدم مراعاة حقوق عهد المؤمنين على الإطلاق بخلاف الأول... وصفهم تعالى بقوله ﴿وَأُوْلَئِكَ﴾ أي الموصوفون بما عدد من الصفات السيئة ﴿هُمُ المعتدون﴾ المجاوزون الغاية القصوى من الظلم والشرارة[2]؛ (فلما بين حال من لا يرقب في الله إلا ولا ذمة، وينقض العهد وينطوي على النفاق ويتعدى ما حد له، بين من بعد أنهم إن أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة كيف حكمهم، فجمع ذلك الشيء بقوله: ﴿فَإِخوَانُكُمْ فِى الدين﴾ وهو يفيد جملة أحكام الإيمان)[3]، يقول تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[التوبة: 11]؛ فإن أعلنوا التوبة الصادقة عن الكفر ونقض العهد، وأقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ...إن فعلوا ذلك فهم إخوانكم في الدين، لهم ما لكم، وعليهم ما عليكم ، ووصفه بالأخوة دليل على أن أخوة الدين أعلى وأخلد وأقوى من أخوة النسب، واستحقوا هذا الوصف بالأمور الثلاثة المتقدمة المتلازمة مع بعضها[4]، فهم وبعد أنهم أنهم كانوا لا يراعون روابط القرابة والأخوة والصحبة بينهم وبين غيرهم، فهم الآن وفي ظل الإسلام تربط بينهم وبين المؤمنين قبلهم؛ روابط الأخوة التي تُراعى دائماً وأبداً، ثم أننا نجد رحمة الله دائماً، وتوبته واسعة وشاملة بعد كل أزمة ومشكلة وذنب، وهذا ما يميز الأزمات في سورة التوبة أنها وأثناء وبعد ذكر الأزمات فيها تُعلن التوبة ويُذكر عفو الله ورحمته لعباده التائبين. (كما أننا نواجه الآن أزمة مع الفساد المبثوث عبر القنوات الفضائية والشبكات الحاسوبية، أصبحت معه مهمة الدعاة بالغة الصعوبة في توسيع دائرة المنتمين للدعوة من الأجيال الجديدة، بل إن الخطر لم يعد يحاصر

([1]) الشوكاني ، فتح القدير، ج1 ، ص 559 .

([2]) انظر: الألوسي، روح المعاني، مجلد 4، ج 5، ص 251 –252 .

([3]) الرازي، مفاتيح الغيب، ج 15، ص 241 .

([4]) انظر: الزحيلي، وهبة، التفسير المنير، ج9 ، ص 123 .

الأطفال والفتيان والفتيات، بل غدا يطارد الكبار أيضاً، فأصبحنا بين خطرين: خطر العسر في المحافظة على مكتسبات عقود ماضية من شريحة الملتزمين بالدين بتآكل أطرافها، وخطر المخاوف من تقلص الفرص في جلب شرائح جديدة إلى صفوف الملتزمين الجادين [1].

وأخيراً لابد أن نبين وبشكل عام أن ما تتعرض له الأمة اليوم من أزمات على المستوى التربوي الخُلقي راجع إلى أسباب منها:

- ضعف التدين في نفوس المسلمين.
- التصور الخاطئ لشرائع الإسلام و أحكامه وروحه.
- غياب القدوة الصالحة في كثير من المجالات .
- طغيان الجانب المادي و الاهتمامات الدنيوية في العلاقات والأعمال .
- قلة البرامج التوعوية والأنشطة التي تعنى بالجانب الأخلاقي.
- قلة التربية الخلقية في مناهج التعليم على كافة المستويات .
- عدم سن أنظمة وقوانين تحافظ على المبادئ والقيم الأخلاقية العامة وتوقع العقوبات المناسبة على مرتكبي الجرائم الأخلاقية المتجددة). [2]

3.3 الأزمة الثقافية الفكرية:

إن دعوة الإسلام ومنذ بداياتها؛ تدعو الإنسان إلى التفكر والتأمل وإعمال العقل في خلق الله وآياته في الكون، وإذا تدبرنا آيات القرآن الكريم نجده يهتم بفكر الإنسان وعقله وثقافته فما هو الفكر، (الفكر: هو اسم لعملية تردد القوى العاقلة المفكرة في الإنسان، سواء أكان قلباً أو روحاً أو ذهناً بالنظر والتدبر، لطلب المعاني المجهولة من الأمور المعلومة، أو الوصول إلى الأحكام أو النسب بين الأشياء)[3]، ولقد جاء القرآن

([1]) مجلة البيان، كامل، عبد العزيز، نظرات في منازلة النوازل، محرم، 1425هـ، العدد 197، ص 32 .

([2]) اليازجي، صبحي رشيد، من وحي القرآن الكريم، ص 373 .

([3]) انظر: العلواني، طه جابر، الأزمة الفكرية المعاصرة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الولايات المتحدة الأمريكية، ط4، 1994م ، ص 25.

مندّداً بأولئك الذين يسيرون، وهم هائمون على وجوههم، لا يعقلون شيئاً؛ لأنه لا يُمكن أن ينهض المجتمع، والجهل يسيطر على أبنائه، قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[الحج: 46]؛ فلقد دعا الله عباده إلى السير في الأرض، لينظروا، ويعتبروا فقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ﴾ بأبدانهم وقلوبهم ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ آيات الله ويتأملون بها مواقع عبره، ﴿أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ أخبار الأمم الماضين، وأنباء القرون المعذبين، وإلا فمجرد نظر العين، وسماع الأذن، وسير البدن الخالي من التفكر والاعتبار، غير مفيد، ولا موصل إلى المطلوب، ولهذا قال: ﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ أي: هذا العمى الضار في الدين، عمى القلب عن الحق، حتى لا يشاهده كما لا يشاهد الأعمى المرئيات، وأما عمى البصر، فغايته بلغة، ومنفعة دنيوية[1]، إن أزمة الفكر التي نعيشها أزمة حقيقية موجودة في جانب المصادر والمناهج، جانب القضايا الأساسية التاريخية التي أحدثت أسوأ الآثار السلبية في عقليتنا وفي نفسيتنا وفي طريقة تفكيرنا، والتي أحبطت محاولات إصلاح كثيرة جداً... فنحن إذن في قضية الفكر محتاجون إلى وضع مناهج للفكر السليم، بعيداً عن الشخصية الفكرية الغربية أو سيطرتها)[2]؛ كما أن(الدين والعقيدة وثقافة الفرد والمجتمع أحد أكبر العناصر البيئية شديدة التأثير على أداء الأزمة، خاصة التي يكون محورها الأفراد...)[3]، ولم أجد من عرّف هذه الأزمة بما تتناسب وموضوعات بحثي؛ ولكن بعد الاطلاع على المقالات، وكتب الفكر الإسلامي اجتهدت تعريفه بالآتي: "أنها حدوث خلل فكري، أو ثقافي متوقع أو غير متوقع، عند جماعة من أفراد المجتمع؛ يعطل القدرة على الفعل، والإنجاز، والأداء مسبباً تخلفاً وتأخراً في جميع "أو بعض" مجالات الحياة الأخرى "الدينية، السياسية، الاقتصادية، العسكرية، التربوية ... وغيرها".

---

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ج 1، ص 540.

(2) العلواني، طه جابر، الأزمة الفكرية المعاصرة، ص 41 .

(3) الخضيري، محسن أحمد، إدارة الأزمات، ص 47 .

إن أزمة الفكر والثقافة هي من أخطر الأزمات التي تواجه الأمة الإسلامية اليوم، نظرا لتنوعها وتشعبها، ثم لحرص أعداء الإسلام على إبقاء حالة الجهل على الأمة الإسلامية، ويبين العلواني في كتابه بعض المعضلات الفكرية التي كان لها أسوأ الآثار على بناء الفرد المسلم عقلياً وثقافياً ونفسياً وتربوياً؛ وأفسدت على الأمة محاولتها في التقدم والحضارة ومن هذه المعضلات: الصراع المفتعل بين النص والعقل، ومعضلة صعوبة الربط بين الأسباب والمسببات، أو الربط بين النتائج والمقدمات، ومعضلة التأويل والتقليد والاجتهاد... وغيرها[1]، وهناك خطر تشوه الرؤية الكونية الإسلامية، والتي تشكل إطار فكر الأمة وثقافتها والتي تبعدها عن الخرافية والأوهام والتعقيد والتنظير، وكذلك خطر البحث عن الحقيقة في حيّزٍ ضيق ومحدود من مجالات المعرفة، ومنها أيضاً في الفكر الإسلامي، الفصل بين الآليات الثلاث للاشتغال، بين "القرآن والسنة"، وأدوات العمل "اللغة وعلم أصول الفقه"، والمنتوج "الفقه والتفسير"، وكذلك الخلل في فهم الواقع والتعامل معه، وهناك اختلالات مفاهيمية؛ تتجلى في الفهم الخاطيء لمجموعة من المفاهيم في ظل الفكر الإسلامي[2]، وقد تناولت سورة التوبة بعض جوانب الإشكالات الفكرية الثقافية عند أبناء المجتمع المدني، والتي سأتناول بعضها في المطالب التالية: المطلب الأول: الجهل، وعدم أخذ العلوم من مصادرها .

المطلب الثاني : إشكالات حساب الزمن .

المطلب الثالث : انتكاس موازين البيع والشراء .

المطلب الرابع : التقليد الأعمى والاغترار بالأموال والأولاد، وعدم أخذ العبرة من الأقوام السابقة.

1.3.3 الجهل، وعدم أخذ العلوم من مصادرها:

أشار الله تعالى في هذه السورة الكريمة إلى وجوب طلب العلم وأخذه من مصدره، ونهى عن تعطيل العقول في النظر والتدبر، قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ

([1]) انظر : العلواني ، طه جابر، الأزمة الفكرية المعاصرة، ص 33 – 38 .

([2]) http// www.alukah.net/culture، انظر: مظاهر الأزمة في الفكر الإسلامي ودور الوعي المنهجي في معالجتها، خالد أوعبو، 2015/1/7 م

الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ﴾[التوبة: 6] يشير الله تعالى الى وجوب سماع المشركين القرآن من مصدره "من رسول الله -صلى الله عليه وسلم-"، لا من المشركين، لأنهم قوم جهلة؛ فقوله تعالى: (﴿حتى يَسْمَعَ كَلاَمَ الله﴾ أي: منك، ويتدبره حق تدبره، ويقف على حقيقة ما تدعو إليه: ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ أي: إلى الدار التي يأمن فيها بعد أن يسمع كلام الله إن لم يسلم ﴿ذلك﴾ إلى ما تقدّم من الأمر بالإجارة ، وما بعده ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ﴾ أي: بسبب فقدانهم للعلم النافع المميز بين الخير والشر في الحال والمآل)[1]، والمعنى: (حتى يفهم أحكامه وأوامره ونواهيه ، فذكر السماع بالأذان إذ هو الطريق إلى الفهم وقد يجيء السماع في كلام العرب مستعملاً بمعنى الفهم كما تقول لمن خاطبته فلم يقبل منك أنت لم تسمع قولي تريد لم تفهمه، وذلك في كتاب الله تعالى في عدة مواضع)[2]، وقيل الاقتصار على ذكر السماع لعدم الحاجة إلى شيء آخر في الفهم لكونهم من أهل اللسن والفصاحة، والمراد بكلام الله تعالى الآيات المشتملة على ما يدل على التوحيد ونفي الشبه والشبيه، وقيل: سورة براءة، وقيل: جميع القرآن لأن تمام الدلائل والبينات فيه[3]؛ وتلك إذا جاء واحد منهم مسترشداً طالباً للحجة والدلالة على ما يدعوا إليه من الدين[4]؛ والسبب في ذلك أنه ربما كان استمرارهم على كفرهم لجهل منهم، إذا زال اختاروا عليه الإسلام، فلذلك أمر اللّه رسوله، وأمته أسوته في الأحكام، أن يجيروا من طلب أن يسمع كلام اللّه.[5] ثم يبين الله تعالى حججه لعباده الصالحين، وأدلته لطلبة العلم ، ويذم الجهلة الذين تنتفي عنهم هذه الصفة، قال تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[التوبة: 11]،

---

(1) الشوكاني، فتح القدير، ج1، ص 558 .

(2) ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (ت 542هـ)، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1422 هـ، ج3 ، ص 9 .

(3) انظر: الألوسي، روح المعاني، مجلد 4، ج5 ، ص 248 .

(4) أبو حيان، البحر المحيط، ج 5، ص 13 .

(5) انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ج 1، ص 329.

﴿وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ﴾، يقول: ونبين حجج الله وأدلته على خلقه ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، ما بُيِّن لهم، فنشرحها لهم مفصلة، دون الجهال الذين لا يعقلون عن الله بيانه ومحكم آياته[1]، ومن هؤلاء الجهال؛ المنافقون- كما ذكرنا سابقاً -الذين قال عنهم الله تعالى ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾[التوبة: 81] و﴿يفقهون﴾ معناه العلم بالشيء، ثم اختص به علم الشريعة، فقيل لكل عالم بها: فقيه وفي عرف الشريعة: عبارة عن معرفة الأحكام الشرعية المتعلقة بأفعال المكلَّفين، بنحو: التحليل، والتحريم، والإيجاب، والإجزاء، والصحة، والفساد، والغرم، والضمان، وغير ذلك[2]، ثم هم الذين لا يستمعون للقرآن ولا يفهمون ما به من أدلة وبراهين؛ بل وانتفت عنهم أيضاً صفة العلم، والفقه لأن الله تعالى طبع على قلوبهم ؛ ففي المرة الأولى قال عنهم في هذه السورة: ﴿طُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ﴾؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ﴾[التوبة: 87]؛ (فلأجل الطبع لا يفقهون ولا يتدبرون ولا يتفهمون ما في الجهاد من الفوز والسعادة، وما في التخلف من الشقاء والضلال)[3]، وطُبِع على قلوبهم في المرة الثانية؛ فقال: ﴿طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾.

وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾[التوبة: 93]، (فقد أغلق الله فيهم منافذ الشعور والعلم، وعطّل فيهم أجهزة الاستقبال والإدراك، بما ارتضوه هم لأنفسهم من الخمول والبلادة، والاحتجاب عن مزاولة النشاط الحركي الحي المتفتح المنطلق الوثاب، وما يؤثر الإنسان السلامة الذليلة والراحة البليدة إلا وقد فرغت نفسه من دوافع التطلع والتذوق والتجربة والمعرفة ، فوق ما فرغت من دوافع الوجود والشهود والتأثر والتأثير في واقع الحياة؛ وإن بلادة الراحة لتغلق المنافذ والمشاعر، وتطبع على القلوب والعقول، والحركة دليل الحياة، ومحرك في الوقت ذاته للحياة، ومواجهة الخطر

---

(1) الطبري، جامع البيان، ج 14، ص 152

(2) انظر: ابن الجوزي، زاد المسير، ج 3، ص 325 .

(3) أبو حيان، التفسير المحيط، ج 5، ص 85 .

تستثير كوامن النفس وطاقات العقل، وتشد العضل، وتكشف عن الاستعدادات المخبوءة التي تنتفض عند الحاجة، وتدرب الطاقات البشرية على العمل وتشحذها للتلبية والاستجابة، وكل أولئك ألوان من العلم والمعرفة والتفتح يحرمها طلاب الراحة البليدة والسلامة الذليلة.[1]

ثم وبعد أن نفى عن قلوبهم العلم والفقه؛ يعود يصفهم، وينفي عنهم الفهم بالكلية؛ بأنهم قوم وجماعة لا يفقهون قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾[التوبة:127] ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ بيان لأحوالهم عند نزولِها وهم في مجال تبليغِ الوحي ﴿نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ﴾ تغامزوا بالعيون إنكاراً لها أو سخريةً بها أو غيظاً لما فيها من مخازيهم ﴿هَلْ يَرَاكُمْ مّنْ أَحَدٍ﴾ أي قائلين: هل يراكم أحدٌ من المسلمين لننصرف، مظهرين أنهم لا يصطبرون على استماعها ويغلبُ عليهم الضحِكُ فيفتَضِحون أو ترامقوا يتشاورون في تدبير الخروجِ والانسلال لِواذاً يقولون: هل يراكم من أحد إن قمتم من المجلس، ﴿ثُمَّ انصرفوا﴾، أي انصرفوا جميعاً عن محفِل الوحيِ خوفاً من الافتضاح أو غير ذلك ﴿صَرَفَ الله قُلُوبَهُم﴾ أي عن الإيمان حسَب انصرافِهم عن المجلس، والجملةُ اختباريةٌ أو دعائية ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي بسبب أنهم ﴿قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ﴾ لسوء الفهم أو لعدم التدبّر[2]، وما فعل الله بهم هذا الخذلان، وصرف قلوبهم عن الخيرات، إلا من أجل أنهم قوم لا يفقهون عن الله مواعظه، استكبارًا، ونفاقاً.[3] هذا وقد بيّن الإسلام أن طلب العلم فضيلة عظيمة ومرتبة شريفة لا يوازيها عمل، فقد روي عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة [4]، وقد ذكر الله سبحانه هنا مخاطباً المؤمنين؛

([1]) قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج3 ، ص 1695 .

([2]) انظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم،ج3، ص 113- 114 .

([3]) انظر: الطبري، جامع البيان، ج14 ، ص 582 .

([4]) الترمذي، أبواب العلم، باب فضل طلب العلم ، حديث رقم 2646، ج4، ص 325 ، قَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ، وصححه الألباني.

في آيةٍ من سورة التوبة والتي تُعد أصلاً في وجوب طلب العلم[1]، يقول تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[التوبة:122] يقول تعالى:-منبها لعباده المؤمنين على ما ينبغي لهم- ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾ أي: جميعا لقتال عدوهم، فإنه يحصل عليهم المشقة بذلك، وتفوت به كثير من المصالح الأخرى، ﴿فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ﴾ أي: من البلدان، والقبائل، والأفخاذ ﴿طَائِفَةٌ﴾ تحصل بها الكفاية والمقصود لكان أولى.

ثم نبه على أن في إقامة المقيمين منهم وعدم خروجهم مصالح لو خرجوا لفاتتهم، فقال: ﴿لِيَتَفَقَّهُوا﴾ أي: القاعدون ﴿فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ أي: ليتعلموا العلم الشرعي، ويعلموا معانيه، ويفقهوا أسراره، وليعلموا غيرهم، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم، وفي هذه الآية أيضا دليل وإرشاد وتنبيه لطيف، لفائدة مهمة، وهي: أن المسلمين ينبغي لهم أن يعدوا لكل مصلحة من مصالحهم العامة من يقوم بها، ويوفر وقته عليها، ويجتهد فيها، ولا يلتفت إلى غيرها، لتقوم مصالحهم، وتتم منافعهم، ولتكون وجهة جميعهم، ونهاية ما يقصدون قصداً واحداً، وهو قيام مصلحة دينهم ودنياهم، ولو تفرقت الطرق وتعددت المشارب، فالأعمال متباينة، والقصد واحد، وهذه من الحكمة العامة النافعة في جميع الأمور[2]، وقوله تعالى: ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى الدين﴾ أي يتكلفوا الفَقاهةَ فيه ويتجشموا مشاقَّ تحصيلِها، وفيه دليلٌ على أن التفقهَ في الدين من فروض الكفايةِ وأن يكون غرضُ المتعلمِ الاستقامةَ والإقامةَ لا الترفعَ على العباد والتبسّط في التلاد كما هو ديدن أبناء الزمان[3]، والفقه أخص من العلم، ولذلك نجد في القرآن استعمال الفقه فيما يخفى علمه كقوله:﴿لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[الإسراء: 44]، والمراد تكلف حصول الفقه، أي الفهم في الدين؛ وفي هذا إيماء إلى أن فهم الدين أمرٌ دقيق المسلك لا يحصل بسهولة؛ ولذلك جاء في الحديث الصحيح « من يرد

---

(1) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج7، ص 293 -295 .

(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ج 1، ص 355 .

(3) انظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، ج3، ص 112.

الله به خيراً يفقهه في الدين»[1]، ولذلك جزم العلماء بأن الفقه أفضل العلوم؛ وقد ضبط العلماء حقيقة الفقه بأنه العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسب من أدلتها التفصيلية بالاجتهاد، والإنذار هنا: هو الإخبار بما يُتوقع منه شر، والمراد هنا الإنذار من المهلكات في الآخرة [2].

ولما بين سبحانه وجوب الهجرة والجهاد وكل منهما سفر لعبادة ؛ فبعدما فضل الجهاد ذكر السفر الآخر وهو الهجرة لطلب العلم[3]؛ ولكن هل تدل الآية على وجوب الخروج للتفقه في كل زمان؟

والجواب: (أنه متى عجز عن التفقه إلا بالسفر وجب عليه السفر، وفي زمان الرسول –صلى الله عليه وسلم- كان الأمر كذلك، لأن الشريعة ما كانت مستقرة، بل كان يحدث كل يوم تكليف جديد وشرع حادث، أما في زماننا فقد صارت الشريعة مستقرة، فإذا أمكنه تحصيل العلم في الوطن لم يكن السفر واجباً، إلا أنه لما كان لفظ الآية دليلاً على السفر، لا جرمَ رأينا أن العلم المبارك المنتفع به لا يحصل إلا في السفر)[4] ، وقد وصف بعض المفسرين هذا النفير بالإعلام الديني الذي هو جهاد له صفة الاستمرارية، يقول الشعراوي في ذلك: لابد أن يحافظ المسلمون على أمرين: أمر الاستقبال من السماء، وأمر الإعلام بما استقبلوه من البلاد؛ فأراد الله سبحانه وتعالى أن يقسم الأمرين بين مجاهدين يجاهدون للإعلام، وباقين مع رسول الله –صلى الله عليه وسلم- ليستقبلوا إرسال السماء لهذه الأرض، فقال: (وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً).[5]

([1]) البخاري، صحيح البخاري، كتاب العلم، باب من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين، حديث رقم 71، ج1، ص 25، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب النهي عن المسألة، حديث رقم 1037، ج1 ، ص 459 .

([2]) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج11، ص 62 .

([3]) انظر: الألوسي، روح المعاني، مجلد 4، ج 6، ص 46 .

([4]) الرازي، مفاتيح الغيب، ج15، ص 232 .

([5]) انظر: الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج9، ص5568، وانظر: أبو حيان، التفسير المحيط، ج 5، ص 116 .

وفي سبب نزول هذه الآية ما رواه الطبري عن مجاهد: قال: ناسٌ من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، خرجوا في البوادي، فأصابوا من الناس معروفًا، ومن الخصب ما ينتفعون به، ودَعوا من وجدوا من الناس إلى الهدى، فقال الناس لهم: ما نراكم إلا قد تركتم أصحابكم وجئتمونا، فوجدوا في أنفسهم من ذلك حرجًا، وأقبلوا من البادية كلهم حتى دخلوا على النبي صلى الله عليه وسلم، فقال الله: ﴿فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾، يبتغون الخير ﴿لِيَتَفَقَّهُوا﴾، وليسمعوا ما في الناس، وما أنزل الله بعدهم ﴿وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ﴾، الناس كلهم ﴿إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾.[1]

ومما يُستفاد من الآيات أيضاً، تساوي فضل طلب العلم والجهاد على شرط النية الصالحة في الكل وطالب العلم لا ينال هذا الأجر إلا إذا كان يتعلم ليعلم فيعمل فيعلم مجاناً في سبيل الله ، والمجاهد لا ينال هذا الأجر إلا إذا كان لإعلاء كلمة الله خاصة، ومما يُستفاد أيضاً أن حاجة الأمة إلى الجهاد والمجاهدين كحاجتها إلى العلم والعلماء سواء بسواء،[2] وقد نوّه الله تعالى في السورة على أزمةٍ فكريةٍ سببها الجهل في الأحكام الشرعية عند جماعة من سكان المدينة وما حولها ، وهم جماعة من الأعراب؛ بسبب بعدهم عن أماكن التعليم؛ حيث يقول تعالى عنهم ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[التوبة: 97]، و﴿الأعْرَابِ﴾ وهم سكان البادية والبراري ﴿أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ من الحاضرة الذين فيهم كفر ونفاق، وذلك لأسباب كثيرة: منها: أنهم بعيدون عن معرفة الشرائع الدينية والأعمال والأحكام، فهم أحرى ﴿وَأَجْدَرُ أَلا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾ من أصول الإيمان وأحكام الأوامر والنواهي، بخلاف الحاضرة، فإنهم أقرب لأن يعلموا

(1) جامع البيان، الطبري، ج 14، ص566، وانظر: مجاهد بن جبر، (ت 102 هـ)، تفسير الإمام مجاهد، تحقيق محمد عبد السلام أبو النيل، دار الفكر الإسلامي، مصر، ط1، 1989م، ص 377 وأخرجه السيوطي في لباب النزول، حديث رقم 514 عن ابن أبي حاتم عن عكرمة، ص 146، وانظر: الواحدي، أسباب النزول، حديث رقم 263، ص269 .

(2) الجزائري، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، ج 2، ص 438 .

حدود ما أنزل اللّه على رسوله، فيحدث لهم –بسبب هذا العلم– تصورات حسنة، وإرادات للخير، الذي يعلمون، ما لا يكون في البادية.[1]

2.3.3 إشكالات حساب الزمن:

وهذه الأزمة هي من الأزمات الفكرية التي تُعد من قبائح أفكار وأعمال المشركين وأهل الكتاب؛ غيروا بذلك أحكام الله تعالى في حسابات الزمن[2]؛ فأراد الله سبحانه وتعالى بذلك، نقض ما تعارفوا عليه من أغلاط عقدية فكرية في النسيء التابعة لأحكام البشر، ثم بيان حدوده وأحكامه في حساب الزمن، (هذا وأن الله سبحانه وتعالى بيّن أن الشمس والقمر –وهما الكوكبان العلويان– قد وضع فيهما موازين الزمن، والزمن له حالات كثيرة تتطلب موازين وقياسات مختلفة، وأساس الزمن هو اليوم والليلة، ويأتي بعد النهار والليل –في مقاييس الزمن– الشهور، وبعد الشهور تأتي السنوات[3]، وفي عدد شهور السنة يقول تعالى : ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [سورة التوبة: 36].

وهنا (استئناف ابتدائي لإقامة نظام التوقيت للأمّة على الوجه الحق الصالح لجميع البشر، والمناسب لما وضع الله عليه نظام العالم الأرضي، وما يتّصل به من نظام العوالم السماوية، بوجه محكم لا مدخل لتحكّمات الناس فيه، وليوضّح تعيين الأشهر الحُرم من قوله : ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾[التوبة: 5] بعدما عَقِبَ ذلك من التفاصيل في أحكام الأمن والحرب مع فرق الكفار من المشركين وغيرهم.

كما أن ضبط التوقيت من أصول إقامة نظام الأمة ودفع الفوضى عن أحوالها، وافتتاح الكلام بحرف التوكيد للاهتمام بمضمونه لتتوجّه أسماع الناس وألبابهم إلى

([1]) السعدي ، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ،ج 1 ، ص 349.

([2]) تحدثت عن هذه الأزمة من خلال أزمة النسيء؛ ولكن سأسلط الضوء هنا أكثر عليها باعتبارها أزمة فكرية من حيث حسابات الزمن، ص 118 – 121.

([3]) انظر: الشعراوي ، تفسير الشعراوي، ج8، ص 5071 .

وعْيِهِ[1]، فقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ﴾ (أي منتهى عدد شهور السنة ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي في حكم وعلم الذي خلق الزمان وحده وهو الإله وحده فلا أمر لأحد معه ﴿اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ أي لا زيادة عليها ولا تغيير لها كما تفعلونه في النسيء ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي كلام الملك المحيط بكل شيء قدرة وعلماً، وحكمه الذي هو مجمع الهدى، فهو الحقيق بأن يكتب، وليست الشهور ثلاثة عشر ولا أكثر كما كان يفعل من أمرتكم بالبراءة منهم كائنين منة كانوا في النسيء ﴿يَوْمَ﴾ أي كان ذلك وثبت يوم ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ أي اللذين نشأ عنهما الزمان[2])، والشهور: (جمع كثرة لما كانت أزيد من عشرة، بخلاف قوله: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾[البقرة: 197]؛ فجاء بلفظ جمع القلة، والمعنى: شهور السنة القمرية، لأنهم كانوا يؤرخون بالسنة القمرية لا الشمسية[3])، والشهور القمرية هي (التي يعتد بها المسلمون في حجهم وأعيادهم وسائر أمورهم، وبالشهور الشمسية تكون السنة ثلاث مائة وخمسة وستين يوما وربع يوم، والهلالية تنقص عن ثلاث مائة وستين يوما بنقصان الأهلة، والغالب أنها تكون ثلاثمائة وأربعة وخمسين يوماً)[4] وخصّ الله سبحانه وتعالى الشمس بحساب اليوم، والقمر بحساب الشهر؛ لأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يوزع الفضل على كل الزمن، وأن ييسر على الناس أداء مناسكه وما يكلفهم به، فمثلاً لو حُسبت الشهر بالشمس لكان ميعاد الحج كل عام في أشهر الصيف دائماً... ولتمام عدله تعالى بين خلقه نجده قد أدار الأشهر القمرية في السنة الميلادية، فلا يأتي الحج أبداً في طقسٍ واحد، وبذلك تستوي كل البيئات وكل الناس في أحكام الله تعالى[5]، كما أن هذا الحساب الزمني والواضح هو الذي جاءت به الأنبياء ونزلت به الكتب، وأنه لا اعتبار بما عند العجم، والروم، والقبط، من الشهور التي يصطلحون عليها ويجعلون بعضها ثلاثين يوماً، وبعضها أكثر، وبعضها أقلّ، وقوله: ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أي: كون هذه الشهور

([1]) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج10 ، ص 180 .

([2]) البقاعي، نظم الدرر، ج 8، ص 449 – 450 .

([3]) أبو حيان، البحر المحيط، ج 5، ص 40 .

([4]) البغوي، معالم التنزيل، ج4 ، ص 44 .

([5]) انظر : الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج8 ، ص 5082 .

كذلك، ومنها أربعة حرم هو: الدين المستقيم، والحساب الصحيح، والعدد المستوفى[1]؛ وهذا ما أثبته الله تعالى في اللوح المحفوظ وأوجب على عباده الأخذ به، وقيل أثبته أيضاً بالقرآن لأن فيه آيات تدل على الحساب ومنازل القمر[2]، وكما تناولت هذه السورة من القرآن الكريم أشهر السنة الإثني عشر، التي هي أصل حساب السنين، جاءت سورة يونس بعدها تذكر ما يستند عليه في تعلم عدد السنين والحساب[3] وذلك في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[يونس: 5] فقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً﴾ أي ذات ضياء، ﴿وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ أي ذات نور، وهو أعم من الضوء، وقد نبّه سبحانه وتعالى بذلك على أنه خلق الشمس نيّرة في ذاتها، والقمر نيّراً بعرض مقابلة الشمس والاكتساب منها، ﴿وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ﴾ أي قدّر مسير كل واحد منهما منازل ، وتخصيصه بالذكر لسرعة سيره ومعاينة منازله وإناطة أحكام الشرع به ولذلك علله بقوله ﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾[4]؛ (فإن في العلم بعدد السنين من المصالح الدينية والدنيوية ما لا يحصى، وفي العلم بحساب الأشهر والأيام والليالي من ذلك ما لا يخفى، ولولا هذا التقدير الذي قدّره الله سبحانه وتعالى، لم يعلم الناس بذلك ولا عرفوا ما يتعلق به كثير من مصالحهم، والسنة تتحصل من اثني عشر شهراً، والشهر يتحصل من ثلاثين يوماً إن كان كاملاً، واليوم يتحصل من ساعات معلومة هي: أربع وعشرون ساعة لليل والنهار، قد يكون لكل واحد منهما اثنتا عشرة ساعة في أيام الاستواء، ويزيد أحدهما على الآخر في أيام الزيادة وأيام النقصان، والاختلاف بين السنة الشمسية والقمرية معروف؛ ثم بيّن سبحانه أنه ما خلق الشمس والقمر، واختلاف تلك الأحوال إلا بالحق والصواب، دون الباطل والعبث)[5]،

---

(1) انظر: الشوكاني، فتح القدير ، ج1، ص 570 .

(2) انظر : الألوسي، روح المعاني، مجلد 4، ج5، ص 281 .

(3) انظر: الألوسي، روح المعاني، مجلد 4، ج 6، ص 55، وانظر: الخطيب، حسن عبد الله طه: أهداف ومقاصد موضوعات سورة التوبة، ص 30 .

(4) انظر: البيضاوي ، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج3 ، ص 105 .

(5) الشوكاني، فتح القدير، ج1، ص 612 .

وقوله ﴿يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾(لأن المشاهد التي تعرض هنا في حاجة إلى العلم لإدراك التدبير الكامن وراء المشاهد والمناظر[1])، وهذا التوقيت كما بيّنا؛ (هو أقدم وأشهر التوقيت في البشر وأضبطها؛ لأنّ اختلاف أحوال القمر مساعد على اتّخاذ تلك الأحوال مواقيت للمواعيد والآجال، وتاريخ الحوادث الماضية، بمجرّد المشاهدة، فإنّ القمر كرة تابعة لنظام الأرض؛ قال تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾[يونس:5]، ولأنّ الاستناد إلى الأحوال السماوية أضبط وأبعد عن الخطأ، لأنّها لا تتناولها أيدي الناس بالتغيير والتبديل، وما حدثت الأشهر الشمسية وسَنتها إلاّ بعد ظهور علم الفلك والميقات، فانتفع الناس بنظام سير الشمس في ضبط الفصول الأربعة، وجعلوها حساباً لتوقيت الأعمال التي لا يصلح لها إلاّ بعض الفصول، مثل الحرث والحصاد وأحوال الماشية)[2] .

ثم بعد أن بيّن حساب الزمن، وحساب الأشهر الحرم، قال عنها: ﴿فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ بارتكاب الذنوب، ثم قال في نهاية الآية ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ فالله يأمر المؤمنين هنا بأن يجتمعوا على قتال الكافرين، لأن الله مع الذين آمنوا، والعلم دائماً هو حكم يقين عليه دليل، وقوله تعالى ﴿وَاعْلَمُوا﴾ هنا ينتقل العلم من علم يقين إلى عين يقين؛ وقد فهمه بعض المؤمنين على أنه آخر مراحل العلم وهو حق اليقين.[3]

3.3.3 انتكاس موازين البيع والشراء:

استعمل القرآن الكريم فعلي البيع والشراء في عدة مجالات ثقافية فكرية تربوية ومنها (مجال الترغيب والترهيب، ووصف أحوال المؤمنين والكافرين أكثر مما استعملهما في دلالتهما المباشرة على البيع والشراء، إذ استعمل فعل البيع مرةً واحدة للدلالة المباشرة على البيع من مجموع سبعة مواضع في خمس آيات، واستعمل فعل الشراء ثلاث مرات فقط للدلالة المباشرة على الشراء من مجموع خمسةً وعشرين

([1]) قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج3، ص 1765 .

([2]) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 10، ص 180-181 .

([3]) انظر: الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج8، ص 5092-5097 .

موضعاً في ثلاث وعشرين آية، وكانت في احداهما علاقة تضاد –أي استعمل فعل الشراء للدلالة على البيع– فتكون الدلالة المباشرة على البيع والشراء وردت مرتين لكل منهما في القرآن الكريم–أي في أربعة مواضع–، أما بقية المواضع ومجموعهما ثمانيةً وعشرين موضعاً كانت استعمالاً مجازياً للفعلين، وهذا يدل على أن الغرض من استعمال الفعلين هو غرض توجيهي تربوي(1)، وقد تحدثت سورة التوبة عن هذا الموضوع بفعله المجازي، حيث ذكرت الجماعة الضالة التي بدّلت الحق بالباطل، (واشترت بالقرآن وما يدعو إليه من الإسلام ثمناً قليلاً، وهو اتباع الشهوات والأهواء لما تركت دين الله وآثرت الكفر، وكان ذلك كالشراء والبيع) (2)، يقول تعالى ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[التوبة: 9]، (ويرينا الله عز وجل هنا انقلاب المعايير، وهو أنه من المفروض أن يكونوا هم من يدفع الثمن، لأن المشتري هو الذي يدفع الثمن، ولكن هنا عُكِسَت القضية؛ فجعل الحق سبحانه وتعالى الثمن هو ما يشترونه، مع أن الثمن هو الذي يدفع، فتكون القضية مخالفة لواقع البيع والشراء، والذي يجب أن نلاحظه أيضاً هو أن الثمن يساوي السلعة؛ فأنت تأخذ السلعة وتعطي للبائع ثمناً يساويها، لأن ثمن كل شيء يجب أن يكون مساوياً له، فإذا اشتريت شيئاً بسيطاً دفعت له ثمناً بسيطاً، واذا اشتريت شيئاً ثميناً دفعت فيه ثمناً غالياً... ولكن هؤلاء الكفار حوّلوا الإيمان إلى سلعة تُباع وتُشترى؛ فهم قد باعوا إيمانهم، وبدلاً من أن يتقاضوا عنه ما يساوي الإيمان والإيمان أغلى من كنوز الدنيا كلها؛ باعوا إيمانهم بثمن قليل رخيص).(3)

فهم قدموا الثمن هنا آيات الله و«الآيات» هي (الدلائل، وهي دلائل الدعوة إلى الإسلام، وأعظمها القرآن لما اشتمل عليه من البراهين والحجاج والإعجاز والباء في قوله: ﴿بآيات الله﴾ باء التعويض، وشأنها أن تدخل على ما هو عوض يبذله مالكه

---

(1) عبد الله، عايد محمد، دلالة فعلي البيع والشراء في القرآن الكريم، العدد 10، 2008، جامعة القادسية، مركز دراسات الكوفة، ص13، وانظر: عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرن الكريم، ص 141 و ص 381 .

(2) انظر: أبو حيان، البحر المحيط، ج5، ص16 .

(3) الشعراوي ، تفسير الشعراوي، ج 8 ، ص 4906 .

لأخذ معوّض يملكه غيره، فجعلت آيات الله كالشيء المملوك لهم لأنها تقررت دلالتها عندهم ثم أعرضوا عنها واستبدلوها باتّباع هواهم)[1]، كما أن الإنسان يشتري سلعة فينتفع بها مباشرة، أما حينما يشتري ثمناً فهو مغبون، لأن الثمن لا يُباع ولا يُشترى لأن الإنسان في سابق العصور كان يُقايض سلعة بسلعة، منافع بمنافع، أما الشراء فيشتري السلعة بالمال، فالمال وسيط، المال ثمن، وليس سلعة، ففي أصل التشريع الإسلامي الثمن لا يُمكن المتاجرة به، لا يمكن أن يعامل كالمنافع يتاجر بها، عندئذ يلد المال المال، وحينما يلد المال المال تهلك الأمة؛ لأن الأموال تجتمع في الأيدي القليلة، وسوف تُحرم منها الكثرة الكثيرة ، وهذا يُخالف منهج الله تعالى.[2]

وقوله تعالى: ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلا﴾ فالمراد بالاشتراء هنا الاستبدال والاستيعاض، والمراد بآيات الله: كل ما جاء به النبي –صلى الله عليه وسلم– من آيات قرآنية، ومن تعاليم سامية تهدى إلى الخير والفلاح، والمعنى؛ إن السبب الأصيل الذى حمل هؤلاء المشركين على الغدر، وعلى الفجور والطغيان عند القوة وعلى المداهنة والمخادعة عند الضعف؛ هو أنهم استبدلوا بآيات الله المتضمنة لكل خير وفلاح؛ ثمناً قليلاً، أي: عرضا حقيراً من أعراض الدنيا وزخارفها، وليس وصف الثمن بالقلة هنا من الأوصاف المخصصة للنكرات؛ بل هو من الأوصاف اللازمة للثمن المحصل بالآيات؛ لأن كل ثمن يؤخذ في مقابل آيات الله فهو قليل وإن بلغ ما بلغ من اعراض الدنيا وزينتها، وقوله: ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِ﴾ بيان لما ترتب على استبدالهم بآيات الله ثمنا قليلاً[3]، ومنها أنهم (منعوا الناس من الدخول في الإسلام، وحاولوا ردَّ المسلمين عن دينهم ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، يقول جل ثناؤه: إن هؤلاء المشركين الذين وصفت صفاتهم، ساء عملهم الذي كانوا يعملون، من اشترائهم الكفرَ بالإيمان، والضلالة بالهدى، وصدهم عن سبيل الله من آمن بالله ورسوله، أو من أراد أن يؤمن).[4]

([1]) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج10 ، ص 125 .

([2]) www.nabulsi.com/blue/a، محمد راتب النابلسي، تاريخ 2001/4/27م .

([3]) طنطاوي، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، ج6 ، ص 217 .

([4]) الطبري، جامع البيان، ج 14، ص 151.

وقيل إن في المشار إليهم في قوله تعالى: ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلا﴾ قولان، أحدهما: أنهم الأعراب الذين جمعهم أبو سفيان على طعامه –أطعم حُلفاءه، وترك حُلفاء محمد صلى الله عليه وسلم–[1]، والثاني: أنهم قوم من اليهود، فعلى الأول، آيات الله: حججه، وعلى الثاني: هي آيات التوراة، والثمن القليل: ما حصَّلوه بدلاً من الآيات، وفي وصفه بالقليل وجهان، أحدهما: لأنه حرام، والحرام قليل، والثاني: لأنه من عَرَض الدنيا الذي بقاؤه قليل.[2]

ثم يبين الله تعالى أن آياته هذه التي اشتروا بها ثمناً قليلاً، يبين حججها وأدلتها على خلقه ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، فنشرحها لهم مفصلة، دون الجهال الذين لا يعقلون عن الله بيانه ومحكم آياته[3]، يقول تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[التوبة: 11]، (ومناسبة موقعه عقب قوله: ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلا﴾ [التوبة: 9] أنّه تضمّن أنّهم لم يهتدوا بآيات الله ونبذوها على علم بصحّتها كقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ [الجاثية: 23]، وباعتبار ما فيه من فرض توبتهم وإيمانهم إذا أقلعوا عن إيثار الفساد على الصلاح، فكان قوله: ﴿وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ جامعاً للحالين، دالاً على أنّ الآيات المذكورة آنفاً في قوله: ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلا﴾[التوبة: 9] آيات واضحة مفصّلة، وأنّ عدم اهتداء هؤلاء بها ليس لنقص فيها ولكنّها إنّما يهتدي بها قوم يعلمون، فإن آمنوا فقد كانوا من قوم يعلمون، ويفهم منه أنّهم إن اشتروا بها ثمناً قليلاً فليسوا من قوم يعلمون، فنُزّل علمهم حينئذ منزلة عدمه لانعدام أثر العلم، وهو العمل بالعلم، وفيه نداء عليهم بمساواتهم لغير أهل العقول كقوله: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: 43].[4]

([1]) انظر: مجاهد، تفسير مجاهد، ج1، ص 364 .

([2]) انظر: ابن الجوزي، زاد المسير، ج3، ص 275 .

([3]) انظر: الطبري، جامع البيان، ج14، ص 152 .

([4]) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 10، ص 128 .

وكان قد وصف الله تعالى المنافقين بما وصف به المشركين واليهود فقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾[البقرة : 16].

﴿الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى﴾ أي: المنافقون الموصوفون بتلك الصفات رغبوا في الضلالة، رغبة المشتري بالسلعة، التي من رغبته فيها يبذل فيها الأثمان النفيسة، وهذا من أحسن الأمثلة، فإنه جعل الضلالة، التي هي غاية الشر، كالسلعة، وجعل الهدى الذي هو غاية الصلاح بمنزلة الثمن، فبذلوا الهدى رغبة عنه بالضلالة رغبة فيها، فهذه تجارتهم، فبئس التجارة، وبئس الصفقة صفقتهم.[1]

وهكذا يلفتنا الحق سبحانه إلى أن هؤلاء الكفار الذين انتفى عنهم العلم والفهم، وعطلوا تفكيرهم وعقولهم، وكل من يختار أمر دنيوي ويقدمه على أمر الله لمصلحة فهو يشتري بآيات الله ثمناً قليلاً...؛ فمثلاً الذي يرتشي ويفعل ذلك ويريد أن يعوج ميزان الحق، والذي يغير ميزان الحق يشكك الناس في العدالة... فإذا أحس الناس بأن الحق قذ ضاع نتيجة أنه أصبح هناك ثمن للإيمان؛ وإن دفع اختلت الموازين، في هذه الحالة يفسد المجتمع كله، فكأنهم باعوا فساد المجتمع كله بثمن قليل جداً.[2]

4.3.3 التقليد الأعمى والاغترار بالأموال والأولاد، وعدم أخذ العبرة والعظة من الأقوام السابقة:

يقول تعالى: ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالا وَأَوْلادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ * أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[التوبة: 70/69]، بيّن الله سبحانه وتعالى في هذه الآيات قضيتان: الأولى والتي كان فيها الخطاب كقضية عامة يريدنا أن نتذكر ما حدث للأمم السابقة الذين كانوا أكثر قوة

---

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ج1 ، ص43.

(2) انظر: الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج8، ص 4906–4907 .

وأكثر أموالاً وأولاداً من أولئك الكفار والمنافقين، والقضية الثانية والتي تكلّم فيها عنهم غيباً كقضية خاصة ذاكراً الأعلام والأشخاص وهم الرسل ومن عاداهم... وهذا فيه الكثير من الدروس وأخذ العظة والعبرة(1)، وهو خطاب للمنافقين لقصد التهديد بالموعظة، والتذكير عن الغرور بما هم فيه من نعمة الإمهال بأنّ آخر ذلك حبط الأعمال في الدنيا والآخرة، وأن يحقّ عليهم الخسران(2)، فقوله تعالى: ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾، قيل أن من هؤلاء؛ أصحاب الأديان السبعة وما من دين منها إلا ويوجد في صنف من أصناف هذه الأمة، وهم الذين قال فيهم الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[الحج: 17]، وأما الذين آمنوا فهم الذين لا يثبتون على حال إيمانهم ولكن تارة وتارة ، فهذا هو الدين الأول؛ وأما الدين الثاني فهو دين الذين هادوا والذين منهم الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها، وأما الدين الثالث فدين الذين قالوا : إنا نصارى، الذين منهم الذين ضلوا عن سواء السبيل، وأما الدين الرابع فدين الصابئة الذين منهم متألهو النجوم عباد الشمس والقمر والكواكب ومغيروهم، هم بالترتيب أول من عبد محسوساً سماوياً؛ وأما الدين الخامس فدين المجوس الثنوية الذين جعلوا إلهين اثنين: نوراً وظلمة، وعبدوا محسوساً آفاقياً، وأما الدين السادس فدين الذين أشركوا وهم الذين عبدوا محسوساً أرضياً غير مصور، وهم الوثنية أو مصوراً وهم الصنمية- فهذه الأديان الستة الموفية لعد الست لما جاء فيه؛ وأما الدين السابع فاعلم أن الله سبحانه جعل السابع أبداً جامعاً لستة خيراً كانت أو شراً، فالدين السابع هو دين المنافقين الذين ظاهرهم مع الذين آمنوا وباطنهم مع أحد سائر الأديان الخمسة المذكورة - فهذه الأديان السبعة متكررة بكليتها في هذه الأمة بنحو مما وقع قبل في الأمم الماضية. (3)

وهذه الآية تفسير ومضمون الحديث الجامع لذكر ذلك؛ فقد ورد عن أبي سعيد رضي الله عنه، أن النبي -صلى الله عليه وسلم -، قال: "لتتبعن سنن من كان قبلكم بأعا بباع، وذراعاً بذراع، وشبراً بشبر، حتى لو دخلوا في جحر ضب لدخلتم معهم»

---

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج8 ، ص 5274 – 5283 .

(2) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 10، ص 256 .

(3) انظر : البقاعي، نظم الدرر، ج 8، ص 526 – 528 .

قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟»[1]، وسنن: هي سُبل ومناهج وعادات، و(وشبراً بشبر) كناية عن شدة الموافقة لهم في عاداتهم رغم ما فيها من سوء وشر ومعصية لله تعالى ومخالفة شرعه، و(جحر ضب) ثقبه وحفرته التي يعيش فيها، والضب دويبة تشبه الحرذون تأكله العرب والتشبيه بجحر الضب لشدة ضيقه ورداءته ونتن ريحه وخبثه، وما أروع هذا التشبيه الذي صدق معجزة لرسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فنحن نشاهد تقليد أجيال الأمة لأمم الكفر في الأرض فيما هي عليه من أخلاق ذميمة وعادات فاسدة، تفوح منها رائحة النتن "فَمَنْ "أي يكون غيرهم إذا لم يكن هم؛ فإنهم المخططون لكل شر والقدوة في كل رذيلة[2]، و﴿أَشَدّ﴾ معناه أقوى، والقوة هنا القدرة على الأعمال الصعبة، أو يُراد بها العزّة وعُدّة الغلب باستكمال العَدد والعُدد،[3] فاحذروا (يا أهل النفاق أن يحل بكم من عقوبة الله مثل الذي حلّ بهم، فإنهم كانوا أشد منكم قوةً وبطشًا، وأكثر منكم أموالا وأولادًا، ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ﴾، يقول: فتمتعوا بنصيبهم وحظهم من دنياهم ودينهم، ورضوا بذلك من نصيبهم في الدنيا عوضًا من نصيبهم في الآخرة، وقد سلكتم، أيها المنافقون، سبيلهم في الاستمتاع بخلاقكم. يقول: فعلتم بدينكم ودنياكم، كما استمتع الأمم الذين كانوا من قبلكم، الذين أهلكتهم بخِلافهم أمري (بِخَلاقِهِمْ)، يقول: كما فعل الذين من قبلكم بنصيبهم من دنياهم ودينهم (وَخُضْتُمْ)، في الكذب والباطل على الله (كَالَّذِي خَاضُوا)، يقول: وخضتم أنتم أيضًا، أيها المنافقون، كخوض تلك الأمم قبلكم).[4]

(فهذه أعمالهم وعلومهم، استمتاع بالخلاق وخوض بالباطل، فاستحقوا من العقوبة والإهلاك ما استحق من قبلهم ممن فعلوا كفعلهم، وأما المؤمنون فهم وإن

([1]) البخاري، صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذُكر عن بني اسرائيل، حديث رقم 3456، ج4، ص 169، وانظر: الطبري، جامع البيان، ج14، ص 341– 343.

([2]) انظر: تعليق البغا، مصطفى ديب، البخاري، صحيح البخاري، دار طوق النجاة، دمشق، ط1 1422 هجري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، حديث رقم 3456 ، ج4، ص 169

([3]) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 10، ص 257 .

([4]) الطبري، جامع البيان، ج14، ص 340 – 341 .

استمتعوا بنصيبهم وما خولوا من الدنيا، فإنه على وجه الاستعانة به على طاعة اللّه، وأما علومهم فهي علوم الرسل، وهي الوصول إلى اليقين في جميع المطالب العالية، والمجادلة بالحق لإدحاض الباطل،[1] وكثرة الأموال لها أسباب كثيرة : منها طيب الأرض للزرع والغرس ورَعِي الأنعام والنحلِ، ومنها وفرة التجارة بحسن موقع الموطن بين مواطن الأمم، ومنها الاقتراب من البحار للسفر إلى الأقطار وصيد البحر، ومنها اشتمال الأرض على المعادن من الذهب والفضّة والحديد والمواد الصناعية والغذائية من النبات، كأشجار التوابل ولحاء الدبغ والصبغ والأدوية والزراريع والزيوت، وكثرة الأولاد تأتي من الأمن بسبب بقاء الأنفس، ومن الخصب المؤثر قوة الأبدان والسلامة من المجاعات المعقبة للموتان، ومن حسن المُناخ بالسلامة من الأوبئة المهلكة، ومن الثروة بكثرة الأزواج والسراري والمراضع[2]، وهذه فتنة يفتتن بها كثير من الناس؛ (إنها الفتنة بالقوة ، والفتنة بالأموال والأولاد؛ فأما الذين اتصلت قلوبهم بالقوة الكبرى فهم لا يفتتون بالقوة العارضة التي تخول لهم في الأرض، لأنهم يخشون من هو أقوى، فينفقون قوتهم في طاعته وإعلاء كلمته. وهم لا يفتتون بالأموال والأولاد، لأنهم يذكرون من أنعم عليهم بالأموال والأولاد، فيحرصون على شكر نعمته، وتوجيه أموالهم وأولادهم إلى طاعته؛ وأما الذين انحرفت قلوبهم عن مصدر القوة والنعمة فهم يبطرون ويفجرون في الأرض، ويتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام).[3]

وقد طلب الله تعالى من نبيه في هذه السورة أيضاً أن لا يغتر بالمنافقين وما أعطاهم اللّه في الدنيا من الأموال والأولاد،[4] يقول تعالى في ذلك: ﴿فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾[التوبة: 55]، ويقول أيضاً: ﴿وَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾[التوبة: 85] (إن النفس المنحرفة

([1]) السعدي ، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ج 1، ص 343.

([2]) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 10، ص 257 .

([3]) قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج3، ص 1674 .

([4]) انظر: الطبري، جامع البيان، ص14،ص 295-296، وانظر: أبو حيان، البحر المحيط، ج5، ص84 .

تبطرها القوة فلا تذكر، وتعميها النعمة فلا تنظر، وما تنفع عظات الماضي ولا عبره إلا من تتفتح بصائرهم لإدراك سنة الله التي لا تتخلف، ولا تتوقف، ولا تحابي أحداً من الناس، وإن كثيراً ممن يبتليهم الله بالقوة وبالنعمة لتغشى أبصارهم وبصائرهم غشاوة، فلا يبصرون مصارع الأقوياء قبلهم، ولا يستشعرون مصير البغاة الطغاة من الغابرين، عندئذ تحق عليهم كلمة الله، وعندئذ تجري فيهم سنة الله وعندئذ يأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، وهم في نعمائهم يتقلبون، وبقوتهم يتخايلون، والله من ورائهم محيط، إنها الغفلة والعمى والجهالة نراها تصاحب القوة والنعمة والرخاء، نراها في كل زمان وفي كل مكان. إلا من رحم الله من عباده المخلصين. [1].

ثم وبعد أن بيّن الله تعالى أن الاغترار بالمال والولد من عوامل عدم قبول الحق والإذعان له والتسليم به، وأن هناك تشابه حال البشر واتباع بعضهم لبعض في الباطل والفساد والشر، كما بيّن الله تعالى حبوط الأعمال بالباطل وهلاك أهلها أمر مقضى به لا يتخلف، بعدها وضّح الله تعالى في هذه الآيات وجوب الاعتبار بأحوال السابقين والاتعاظ بما لاقاه أهل الكفر منهم من عذاب[2]، (فلما شبه المنافقين بالكفار المتقدمين في الرغبة في الدنيا وتكذيب الأنبياء، وكان لفظ الذين من قبلكم فيه إبهام، نصّ على طوائف بأعيانها ستة، لأنهم كان عندهم شيء من أنبائهم، وكانت بلادهم قريبة من بلاد العرب، وكانوا أكثر الأمم عدداً، وأنبياؤهم أعظم الأنبياء: نوح أول الرسل، وابراهيم الأب الأقرب للعرب وما يليها من الأمم مقاربون لهم في الشدّة وكثرة المال والولد . [3]

فقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ﴾ يعني المنافقين، ﴿نَبَأُ﴾ خبر، ﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ حين عصوا رُسلنا، وخالفوا أمرنا كيف عذبناهم وأهلكناهم؛ ثم ذكرهم، فقال: ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾ أهلكوا بالطوفان، ﴿وَعَادٍ﴾ أهلكوا بالريح ﴿وَثَمُودَ﴾ بالرجفة، ﴿وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ﴾ بسلب النعمة وهلاك نمرود، ﴿وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ﴾ يعني قوم شعيب أهلكوا بعذاب يوم الظلة، ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾ المنقلبات التي جعلنا عاليها سافلها وهم قوم لوط، ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ فكذّبوهم وعصوهم كما فعلتم يا معشر الكفار، فاحذروا تعجيل النقمة، ﴿فَمَا

([1]) قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج3، ص 1674 – 1675.

([2]) انظر: الجزائري، أيسر التفاسير، ج 2، ص 395 .

([3]) أبو حيان، البحر المحيط، ج 5، ص 70 .

كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[1]، والبينات: وهي الشيء الذي يبين ما هو الحق، والمعجزات التي صاحبت الرسالات السماوية بيّنت الحق، وأكّدت أن الرسول مبلّغ عن ربه، وكانت المعجزة واضحة تماماً ليراها كل قوم رؤية تسمح باستيعابها... فالمعجزات لابد أن تكون واضحة لكل المستويات؛ حتى لا يكون هناك عذر لأحد؛ ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾، وهذا دليل على أن الحق سبحانه وتعالى يحاسبهم على قدر استيعابهم للمعجزة ، فكأن كل العقول قد فهمت وأيقنت أن هناك معجزة، والذين استقبلوا المعجزة بالكفر ظلموا أنفسهم؛ لأنهم بعد أن استوعبوا المعجزة، وتحقّقوا أنها خرقٌ لقوانين الكون، ولا يُمكن أن يأتي به إلا الله سبحانه وتعالى، ولكنهم رغم ذلك رفضوا الإيمان.[2]

أما أزمتنا الفكرية الثقافية المعاصرة والتي من أهم مظاهرها؛ التخلف العلمي والتقني ومع اختلاف أسبابها والتي حددها بعضهم وتنحصر بأسبابٍ خارجية تتمثل في استعمار الأرض، والغزو الفكري، وأسباب داخلية وتشمل: البعد عن المنهج القرآني، والركون إلى الدنيا وشهواتها، وتحريف المفاهيم الإسلامية، والركود العلمي وغياب المنطق العقلي وتوقف الاجتهاد، وغيرها... هذه الأسباب لا بد لها من حلولٍ مقترحة كان أهمها أنه: يجب تنمية فكر المسلم باتباع منهج تربوي شامل يربي وينمي كافة الطاقات البشرية ويستمد أُسسه ومبادئه من الشريعة الإسلامية، وتقديم تصوراتٍ واضحة له عن الكون والحياة والإنسان، وحل مشكلة الأمية" وهي ليست أمية الجهل بالقراءة والكتابة فقط، إنما أمية الجهل برسالته في الحياة ومصيره بعدها، والانفتاح على خبرات الآخرين في ميادين العلم وتجديد التفكير وأساليب الفهم، والاهتمام بإعداد المعلم المسلم وتطويره مهنياً وأكاديمياً، والاهتمام في التوسع بالتعليم الفني المهني ذو الاختصاص الدقيق، والاستفادة من دور وسائل الإعلام وتحويلها إلى أجهزة بنّاءة تهتم بالأنشطة الفكرية التربوية وتنميها كل ذلك من أجل تطوير ونهضة الفرد والمجتمع.[3]

([1]) البغوي، معالم التنزيل، ج 4، ص 72.

([2]) انظر: الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج9، ص 5285 .

([3]) انظر: مندورة، إنصاف كرم، أزمة الثقافة في المجتمع الإسلامي المعاصر، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1405 هـ، ص229-231 .

4.3 الأزمة النفسية :

وتعني: (موقفٌ انفعاليٌ يُمثِل نقطة تحول للأسوأ)[1]، وهي ضغوطٌ وأحداثٌ ومواقفٌ نفسيةٌ داخليةٌ تؤثرُ على حالةِ الفردِ النفسيةِ؛ تتمثلُ في صعوباتٍ تواجهُ الفردُ ممّا تحد من أساليبه وقدراته التقليدية للتعامل والتكيف مع الوضع الجديد، وتعيقه من إنجاز أهدافه وتحدث خللاً في التوازن النفسي والاجتماعي للفرد، كما وتعد موقف أو حادثة غير مرغوبة تؤدي إلى تعطيل الفرد أو الجماعة أو المجتمع عن القيام بدورهم بصورة طبيعية، نتيجة لحدوث مشكلة كبيرة لم يتم مواجهتها في بداية الأمر[2]، كما وعنت الشريعة الإسلامية بالجانب النفسي من شخصية المسلم بداية من تلبية حاجاته الفسيولوجية، وإشباع حاجاته الوجدانية، ثم ضبط انفعالاته، كل ذلك وصولاً إلى تحقيق صحته النفسية بما يحقق له العيش في تكيف وانسجام، كما وحمته من الهزيمة والصراعات النفسية، أما تعريفها كأزمة فردية، جماعية في الإسلام كما وردت معانيها في سورة التوبة فلم أجد من عرَّفها؛ فاجتهدت تعريفها كالآتي: "هي حادثة غير متوقعة، وغير مرغوبة سببت خللاً وضغوطات نفسية لدى أفراد المجتمع الإسلامي وجماعاته؛ وأدت إلى تعطيل سير أعمال الدولة الإسلامية، وتحقيق أهدافها، وحدت من القيام بدورهم الأساسي فيها"، كما وقسّمت هذه الأزمات إلى أهم أزمات نفسية في السورة وهي أزمات خاصة مع المنافقين، وأزمات تخص المؤمنين ذكرتها السورة الكريمة وذلك في مطلبين اثنين:

المطلب الأول: الحرب النفسية مع المنافقين.

المطلب الثاني: التصوير القرآني لأزمات المؤمنين النفسية في السورة.

([1]) النوايسة، رياض حسين، أنموذج مقترح لإدارة الأزمات، ص 17 .

([2]) www.m.ahewar.org/s.asj، صالح، علي عبد الرحيم، سيكولوجية الأزمة بين الفرد والمجتمع (دراسات نفسية في النفس الإنسانية)، دار البيت الثقافي، العراق، 2009.

1.4.3 الحرب النفسية مع المنافقين:

هي أقوى مواجهه بين المسلمين من طرف وبين أعدائهم المنافقين، ومن يقف وراءهم من المشركين واليهود من طرف آخر، وهذه المواجهة التي تؤلف في الحقيقة جسم السورة؛ وصلت لما يُسمى بالحرب النفسية ويُقصد بها "أنها حرب هجومية دفاعية شاملة، ترتكز على أقوال وأفعال، بغرض السيطرة على عقل الإنسان وذاته، وشل فكره وإرادته"، وجميع الأزمات الاقتصادية والسياسية والعسكرية والسلوكية ما هي إلا وسائل لتحقيق الأزمة النفسية؛ وقد جاء أكبر مقاطع سورة التوبة –وهو يستغرق أكثر من نصفها– في فضح المنافقين، ووصف أحوالهم النفسية والعملية، وكشف حقيقة نواياهم وحيلهم ومعاذيرهم في التخلف عن الجهاد، وزعزعة إيمان المؤمنين، وبث اليأس من النصر في نفوس الجيش من خلال إثارة الرعب، والنصح بترك المواجهة نظراً لعدم توفر الأجواء الطبيعية والمناخية، وبث الفرقة والشقاق بين الصفوف، ومحاولتهم زعزعة ثقة الجماهير بالقيادة ببث الإشاعات وإثارة الفتن، وتحطيم معنويات الخارجين للجهاد... وغيرها[1]، وسوف أوضح بعضاً من أساليب المنافقين في إحداث هذه الأزمة بين صفوف المسلمين، وكيف فضحهم الله في هذه السورة وكشف ما بنفوسهم المريضة؛ في حربٍ نفسية وشائعات ودعايات مضادة، يدرك المسلمون خلالها بالانتصار في هذه الحرب النفسية مع المنافقين، ومن أساليب المنافقين لإحداث هذه الأزمة في السورة؛ الإرجاف والتثبيط، والكسل وبث الشائعات، وإثارة الفتن، وبث الفرقة في الصف المسلم...وغيرها (وتعتبر الإشاعات أهم مصدر من مصادر الأزمات ، بل إن كثيراً منها يكون مصدرها الوحيد إشاعة أُطلقت بشكلٍ معين، وتم توظيفها بشكلٍ معين، وإعلانها بتوقيت معين، وفي إطار مناخ وبيئة محيطة تم إعدادها بشكلٍ معين، ومن خلال استغلال حدث معين، تتحقق وتصنع الأزمة[2]، فصانعي الأزمات يستغلون

([1]) انظر: قطب،سيد،في ظلال القرآن، ج3،ص1567،وانظر www.ye1.org/forum/thr، شريان، حسان بن علي بن ناجي، الحرب النفسية بين المسلمين وبين المنافقين من خلال سورة التوبة، 2012/5/28م. وكنت قد وضّحت بعضاً من صفات المنافقين العامة خلال أزمة النفاق، ولكن هنا سأسلط الضوء على الجانب النفسي فيها .

([2]) الخضيري، محسن أحمد، إدارة الأزمات، ص 36 .

حقائق صادقة ووقائع قد حدثت فعلاً ومعلومة لدى الكثيرين، ويحيطونها بهالةٍ من المبالغة والأكاذيب للوصول إلى أغراضهم بتدمير خصومهم، وإحداث أزمة يستفيدون من نتائجها[1]، ولقد بيّن الله تعالى في سورة التوبة أن مشاركة المنافقين وخروجهم للقتال مع المؤمنين في غزوة تبوك وغيرها ليس فيها خيراً أو مصلحة؛ بل شراً ومفسدة، وحصرها الله سبحانه في ثلاث مفاسد نفسية هي: إفساد النظام والعمل، وتفريق كلمة المسلمين بالنميمة، واستدراج فئة من ضعاف الإيمان والعقل والحزم إلى صفوفهم وسماع كلامهم[2]، وهنا تظهر الحرب النفسية بأن يفضح الله المنافقين ويخزيهم ويكشف ما في نفوسهم من شائعات ودعايات مضادة، يدرك المسلمون خلالها بالانتصار في هذه الحرب النفسية مع المنافقين فيقول تعالى مبيناً ذلك: ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ * وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ* لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلا خَبَالا وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ* لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الأمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ * وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلا تَفْتِنِّي أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾[التوبة : 49/48/47/46/45]

يبين الله سبحانه وتعالى هنا بعضاً من أمراضهم النفسية؛ ويرد عليهم ويفضحهم ويكشف ما في قلوبهم من الشك والريبة؛ فهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ﴿وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، (وشكت قلوبهم في حقيقة وحدانية الله، وفي ثواب أهل طاعته، وعقابه أهل معاصيه ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾، في شكهم متحيِّرون، وفي ظلمة الحيرة متردِّدون، لا يعرفون حقًّا من باطل، فيعملون على بصيرة)[3]، ثم يُعيد الله تعالى ذكر هذه الأمراض النفسية لديهم بعد ذكر قصة مسجد الضرار حيث إنه (لما ذكر طرائق ذميمة لأصناف المنافقين أقوالاً وأفعالاً ذكر أنّ منهم من بالغ في الشر حتى

([1]) شقرة ، محمد عاصم محمد ابراهيم، نحو أنموذج اسلامي لإدارة الأزمات، ص 17.

([2]) انظر : الزحيلي، وهبة ، التفسير المنير، ج9، ص 239.

([3]) الطبري، جامع البيان، ج14، ص 275 .

ابتنى مجمعاً للمنافقين يدبرون فيه ما شاءوا من الشر، وسموه مسجداً) [1]، بعد ذلك يبين الله تعالى ويكشف عن قلوبهم بقوله: ﴿لا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إلا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[التوبة : 110]

﴿لا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا﴾ يعني مسجد الضرار ﴿رِيبَةً﴾ أي شكاً في قلوبهم ونفاقاً، وحسرة وندامة، وقيل حزازةً وغيظاً ﴿إلا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُم﴾ أي تتصدع قلوبهم[2]، ثم يقول إنه ولو أراد هؤلاء الخروجَ للجهاد ﴿لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾، أي لأعدوا للخروج عدة، ولتأهّبوا للسفر ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ﴾، يعني: خروجهم لذلك ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾، يقول: فثقَّل عليهم الخروجَ حتى استخفُّوا القعودَ في منازلهم واستثقلوا السفر والخروج، فتركوا وكان تثبيط الله إياهم عن الخروج مع رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين به، لعلمه بنفاقهم وغشهم للإسلام وأهله، وأنهم لو خرجوا معهم ضرُّوهم ولم ينفعوا[3]، وقيل ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ حبسهم عنك وخذلهم لأنهم قالوا: إن لم يؤذن لنا في الجلوس أفسدنا وحرضنا على المؤمنين، فجاء الرد ﴿وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ أي مع أولى الضرر والعميان والزمنى والنساء والصبيان. [4]

ثم يقول تعالى مبينًا أهداف المنافقين في بث الشائعات وإثارة الفتن، ويرد عليهم: أنهم ﴿لَوْ خَرَجُوا﴾ يعني المنافقين ﴿فيكم﴾ أي معكم، ﴿مَا زَادُوكُمْ إلا خَبَالا﴾ أي: فسادا وشرا، ومعنى الفساد: إيقاع الجبن والفشل بين المؤمنين بتهويل الأمر، ﴿وَلأَوْضَعُوا﴾ أسرعوا، ﴿خِلالَكُم﴾ وسطكم بإيقاع العداوة والبغضاء بينكم بالنميمة ونقل الحديث من البعض إلى البعض، وقيل: ﴿وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُم﴾ أي: أسرعوا فيما يخلّ بكم، ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ أي: يطلبون لكم ما تفتتون به، يقولون: لقد جُمع لكم كذا وكذا، وإنكم مهزومون وسيظهر عليكم عدوكم ونحو ذلك وقيل: يبغونكم الفتنة يعني: الْعَيْبَ والشرَّ، وقيل: الشرك، ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ وفيكم محبون لهم يؤدون إليهم ما

([1]) أبو حيان، التفسير المحيط، ج 5، ص 101 .

([2]) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج7، ص266 .

([3]) الطبري، جامع البيان، ج 14، ص 276 – 277 .

([4]) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج 7، ص 156 .

يسمعون منكم، وهم الجواسيس، يسمعون كلامهم ويطيعونهم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾[1] وهذ دالٌ على أن المنافقين يعملون تكوين خلايا سرية للتجسس ولتنفيذ مخططاتهم، والعمل على الاستفادة منهم وقت الحاجة، ثم قال عنهم: ﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ﴾ أي العنت ونصب الغوائل والسعي في تشتيت شملك وتفريق أصحابك عنك، ﴿مِن قَبْلُ﴾ من قبل غزوة تبوك ﴿وَقَلَّبُواْ لَكَ الأُمُورَ﴾ ودبروا لك الحيل والمكايد، ودوَّروا الآراء في إبطال أمرك[2]، وقيل إن الأمور في قوله تعالى ﴿وَقَلَّبُواْ لَكَ الأُمُورَ﴾ تعني أحد أربعة أوجه: إما معاونتهم في الظاهر وممالأة المشركين في الباطن، أو قولهم بأفواههم ما ليس في قلوبهم، أو توقع الدوائر وانتظار الفرص، أو حلفهم بالله لو استطعنا لخرجنا معكم[3]، وكل هذه الأساليب في إيقاع الخلاف وتفريق الكلمة... وغيرها، وهذا من قبيل الحرب النفسية من طرف المنافقين، لكن الله سبحانه وتعالى ينتصر للمؤمنين، ويقول معلناً النصر في هذه الحرب: ﴿حَتَّى جَآءَ الْحَقُّ﴾ أي النصرُ والتأييدُ الإلهي ﴿وَظَهَرَ أَمْرُ اللهِ﴾ غلب دينُه وعلا شرعُه ﴿وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ والحالُ أنهم كارهون لذلك أي على رغم منهم والآيتان لتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين عن تخلف المتخلفين وبيانُ ما ثبّطهم الله تعالى لأجله وهتَك أستارَهم وكشف أسرارَهم، وإزاحةِ أعذارِهم تداركاً لما عسى يفوت بالمبادرة إلى الإذن وإيذاناً بأن ما فات بها ليس مما لا يمكن تلافيه تهويناً للخطب[4]، وهنا نجد أن القرآن كشف نواياهم السيئة في حب إثارة الفتن؛ وموضوع الفتنة يشمل هنا جميع أنواع المصائب من العذاب، والسوء، والشرك، والكفر... وغيرها.[5]

ثم يبين الله تعالى أن قلوبهم مصابة بالأمراض النفسية المختلفة، ومنها رجس النفاق، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا

([1]) البغوي، معالم التنزيل، ج 4، ص 56.

([2]) الزمخشري، الكشاف، ج2، ص 194 .

([3]) الماوردي، النكت والعيون، ج 2، ص 369 .

([4]) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، ج 3 ، ص 72 .

([5]) انظر: الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج9، ص 5169 .

الَّذِينَ آَمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ* وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾[التوبة: 125/124].

والرجس: هو الخبث والفساد، ويطلق على الخبث المعنوي والنّفسي، والمراد هنا خبث النّفس وهو رجس الشّرك، والمقصود بـ ﴿رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ أي مرضاً في قلوبهم زائداً على مرض قلوبهم السّابق، أي أرسخت المرض في قلوبهم، فالرجس يعمّ سائر الخباثات النّفسيّة، الشّاملة لضيق الصّدر وحرجه(1)، ولم يكتف المنافقون بالتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإظهار فرحهم بهذا التخلف، وكرههم للجهاد في سبيل الله، بل أنهم ثبّطوا غيرهم ودعوهم إلى عدم الخروج، بحجة عدم ملائمة المناخ والحر الشديد، قال تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾[التوبة: 81]، وفي قوله: ﴿لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ قولان، أحدهما: أنه قول بعضهم لبعض، والثاني: أنهم قالوه للمؤمنين، وإنما قالوا هذا، لأن الزمان كان حينئذ شديد الحر، ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ لمن خالف أمر الله(2)، وهذا الرد الإلهي من قبيل الرد نفسياً في هذه الحرب على المنافقين، وكان الرد من جنس كلامهم، أما محاولتهم زعزعة ثقة المسلمين بقائدهم، وإظهار عيب الصالحين والطعن فيهم ظاهرة دالة على فساد قلوب ونيات من يفعل ذلك(3)؛ ومن الأمثلة عليها في السورة، قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾[التوبة: 58]، أي يروزك ويسألك، ويغتابك، وقيل يعيبك يا محمد في توزيع الصدقات، ويسخطك فيها(4)، والنص القرآني هنا يقرر (أن القولة قولة فريق من المنافقين، يقولونها لا غيرة على الدين، ولكن غضباً على حظ أنفسهم، وغيظاً أن لم يكن لهم نصيب. وهي آية نفاقهم الصريحة، فما يشك في خلق الرسول- صلى الله عليه وسلم- مؤمن بهذا الدين، وهو المعروف حتى قبل الرسالة بأنه الصادق

---

(1) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج11، ص 66 – 67 .

(2) ابن الجوزي، زاد المسير، ج 3، ص 324 .

(3) الجزائري، أيسر التفاسير، ج 2، ص 383 .

(4) الماوردي، النكت والعيون، ج2، ص 374 .

الأمين، والعدل فرع من أمانات الله التي ناطها بالمؤمنين فضلاً على نبي المؤمنين، وواضح أن هذه النصوص تحكي وقائع وظواهر وقعت من قبل، ولكنها تتحدث عنها في ثنايا الغزوة لتصوير أحوال المنافقين الدائمة المتصلة قبل الغزوة وفي ثناياها).[1]

ولكن الله سبحانه ركّز في هذه السورة على كشف أهدافهم وفضحهم وبيان أساليبهم، في حربٍ نفسية وشائعات ودعايات مضادة، يدرك المسلمون خلالها بالانتصار في هذه الحرب النفسية مع المنافقين، وقد بيّنا سابقاً وفي مباحث سابقة جوانب عديدة في كشف الله سبحانه لهم وبيان نواياهم وحيلهم أمام المسلمين؛ وبهذا زرع الهزيمة في أعماقه كقوله تعالى هنا: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلا تَفْتِنِّي﴾، يقول: ائذن لي ولا تحرجني، ﴿أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾، قيل: في الحرج والإثم سقطوا، ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ وإن النار لمطيفة بمن كفر بالله وجحد آياته وكذّب رسله، محدقة بهم، جامعة لهم جميعًا يوم القيامة[2]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾[التوبة: 53]، يقول تعالى مبيناً بطلان نفقات المنافقين، وذاكراً السبب في ذلك ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿أَنْفِقُوا طَوْعًا﴾ من أنفسكم ﴿أَوْ كَرْهًا﴾ على ذلك، بغير اختياركم، ﴿لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ﴾ شيء من أعمالكم ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ خارجين عن طاعة اللّه[3]، وقوله تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾[التوبة: 56] ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ﴾ أي: على دينكم، ﴿وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾[يخافون أن يظهروا ما هم عليه][4] ثم يبين الله تعالى عاقبتهم وهي أشد ألوان العذاب النفسي والجسدي في الدنيا، والفتن التي ألحقها الله بهم جزاء نفاقهم وعداءهم للإسلام فيقول: ﴿أَوَلا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لا يَتُوبُونَ وَلا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾[التوبة: 126]، و﴿يُفْتَنُونَ﴾ أي: يبتلون بالمرض والقحط وغيرهما من بلاء الله؛ ثم لا ينتهون ولا يتوبون عن نفاقهم، ولا يذكرون، ولا يعتبرون، ولا ينظرون في أمرهم، أو يبتلون في الجهاد مع رسول الله

([1]) قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج3، ص 1668 .

([2]) انظر: الطبري، جامع البيان، ج 14، ص 288 .

([3]) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ج1، ص 340 .

([4]) البغوي، معالم التنزيل، ج 4، ص 59.

صلى الله عليه وسلم ويعاينون أمره وما ينزل الله عليه من نصرته وتأييده، أو يفتنهم الشيطان فيكذبون وينقضون العهود مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقتلهم وينكل بهم، ثم لا ينزجرون[1]

2.4.3 التصوير القرآني لأزمات المؤمنين النفسية في السورة:

تحدثت سورة التوبة عن بعض الأزمات النفسية لدى المؤمنين عند التعرض لبعض المشكلات المختلفة، وسأتحدث هنا عن بعض الأزمات النفسية أثناء التعرض لبعض المشكلات السياسية والعسكرية لوضوحها؛ وكيف تعامل معها القرآن الكريم في السورة؛ وقد صورت السورة الكريمة بعض المشكلات والحالات النفسية أثناء الغزوات كالخزي، والغيظ، ثم شفاء الصدور، يقول تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ* وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[التوبة: 15/14]، (﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ بالقتل ﴿وَيُخْزِهِمْ﴾ إذا نصركم اللّه عليهم، وهم الأعداء الذين يطلب خزيهم ويحرص عليه، ﴿وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ هذا وعد من اللّه وبشارة قد أنجزها، ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ* وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ فإن في قلوبهم من الحنق والغيظ عليهم ما يكون قتالهم وقتلهم شفاء لما في قلوب المؤمنين من الغم والهم إذ يرون هؤلاء الأعداء محاربين للّه ولرسوله ساعين في إطفاء نور اللّه وزوالا للغيظ الذي في قلوبهم وهذا يدل على محبة اللّه لعباده المؤمنين واعتنائه بأحوالهم حتى إنه جعل -من جملة المقاصد الشرعية- شفاء ما في صدورهم وذهاب غيظهم).[2]

ومن هذه الأزمات في السورة، حالة نفسية عواقبها الفشل والخسارة وهي: العُجب، وفيها بيّن الإسلام حرمة العجب بالنفس والعمل إذ العجب من العوائق الكبيرة عن النجاح[3]، ويخبرهم تبارك وتعالى في هذه الآيات أن النصر بيده ومن عنده، وأنه ليس بالعجب والغرور وبكثرة العدد وشدة البطش، وأنه ينصر القليلَ على الكثير إذا

---

(1) الزمخشري، الكشاف، ج2، ص 222 .

(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ج 1، ص 331 .

(3) الجزائري، أيسر التفاسير، ج 2، ص 356 .

شاء، ويخلِّي الكثيرَ والقليلَ، فَيهْزِم الكثيرُ[1]، وهذا المرض النفسي، وغيره من الشدائد والأزمات النفسية كالضيق والخوف شعر بها المسلمون في غزوة حنين، حيث يقول تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ الله فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأرض بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ* ثُمَّ أَنزلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: 26/25]، والأزمات في هذه الآيات: العجب ثم الضيق والحزن والخوف، وهي في قوله تعالى ﴿وَأَعْجَبَتْكُمْ﴾: من الإعجاب بمعنى السرور بما يتعجب منه، وسبب هذا الإعجاب أن عدد المسلمين كان اثنا عشر ألفاً، وعدد أعدائهم كان أربعة آلاف، وقوله: ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً﴾ بيان للأثر السيء الذى أعقب الإعجاب بالكثرة، وأن سرورهم بهذه الكثرة لم يدم طويلاً ، بل تبعه الحزن والهزيمة، وقوله: ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأرض بِمَا رَحُبَتْ﴾ بيان لشدة خوفهم وفزعهم[2]، وضاقت بكم الأرض مع كونها رحباً واسعة لشدة الحال عليهم وصعوبتها كأنهم لا يجدون مكاناً يستصلحونه للهرب والنجاة لفرط ما لحقهم من الرعب، فكأنها ضاقت عليهم.. ثم وليتم مدبرين أي: وليتم فارين على أدباركم منهزمين تاركين رسول الله صلى الله عليه وسلم[3]، وهذا الفرار، وهذه الهزيمة في البداية ما كانت إلا بسبب العجب والغرور، فكانت الهزيمة، أي وقعت بأسبابها فكانت عقوبة على هذا الغرور والعجب الذي تشير إليه الكلمة، وتربية للمؤمنين حتى لا يعودوا إلى الغرور بالكثرة؛ لأنها ليست إلا أحد الأسباب المادية الكثيرة للنصرة، وما تقدم بيانه من الأسباب المعنوية في سورة الأنفال أعظم، وقد قال تعالى حكاية عن المؤمنين الكاملين الذين يعلمون قيمة أسباب النصر المعنوية كالصبر والثقة بالله والاتكال عليه قَالَ: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[البقرة: 249] وكذلك وقعت الهزيمة بأسبابها في يوم أحد عقوبة وتربية، فلم تكن تلك الكثرة التي أعجبتكم وغرتكم كافية لانتصاركم بل لم تدفع عنكم شيئا من عار الغلب والهزيمة، وضاقت عليكم الأرض

(1) انظر: الطبري، جامع البيان، ج 14، ص 180.

(2) طنطاوي، الوسيط، ج 6، ص 239 .

(3) أبو حيّان، البحر المحيط، ج5، ص 25.

برحبها وسعتها فلم تجدوا لكم فيها مذهبا ولا ملتحدا ثم وليتم ظهوركم لعدوكم مدبرين لا تلوون على شيء، ثم أنزل الله السكون والطمأنينة، وهي ضد (الاضطراب والانزعاج)، على رسوله بعد أن عرض له ما عرض من الأسف والحزن على أصحابه عند وقوع الهزيمة لهم.[1]

وقصة هذه الغزوة[2] في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ الله فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ كَبَدْر والنضير وقريظة والفتح وغيرها ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ حين قاتلوا قبيلة هوازن مذكراً إياهم بهزيمة أصابت المؤمنين نتيجة خطأ من بعضهم وهو الاغترار بكثرة العدد إذا قال من قال منهم: لن نغلب اليوم من الوادي حتى رماهم العدو بوابل من النبل والسهام فلم يعرفوا كيف يتصرفون حتى ضاقت عليهم الأرض على سعتها وولوا مدبرين هاربين ولم يثبت إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان على بغلته البيضاء المسماة (بالدُلْدُل)[3] والعباس إلى جنبه وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ابن عمه، ثم نادى منادي رسول الله: أن يا أصحاب سورة البقرة هلموا أصحاب السمرة (شجرة بيعة الرضوان) هلموا؛ فتراجعوا إلى المعركة ودارت رحاها ﴿ثُمَّ أَنزلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ تلامس القلوب وتنفخ فيها روح الشجاعة والصبر والثبات، فصبروا وقاتلوا وما هي إلا ساعة وإذا بالعدو سبي بين أيديهم ولم يحصل لهم أن غنموا يوما مثل ما غنموا هذا اليوم[4] وهكذا جاء هذا النصر جاء بعد شعور الصحابة في حنين باليأس[5]، (واليأس في حد

---

(1) انظر: رضا، محمد رشيد، المنار، ج10، ص 246- 247 .

(2) تحدثت عن قصة الغزوة أثناء الحديث عن أزمة حنين، وسأسلط الضوء هنا على الأوضاع النفسية في الغزوة، ص91-95.

(3) الدلدل: القنفذ، ولعلها شبهته به لأنه أكثر ما يظهر في الليل ولأنه يخفى رأسه في جسده ما استطاع، ودلدل في الأرض ذهب ومر، ويتدلدل في مشيه إذا اضطرب، ومنه دلدل اسم بغلته صلى الله عليه وسلم، انظر: الكحراتي، جمال الدين، محمد طاهر بن علي الصديقي الهندي الفَتَّنِي الكجراتي (ت 986هـ)، مجمع بحار الأنوار في غرائب التنزيل ولطائف الأخبار، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، الهند، ط3، 1967م، ج 2، ص194 .

(4) الجزائري، أيسر التفاسير، ج2، ص 355 .

(5) انظر: الزحيلي، وهبة، التفسير المنير، ج 9، ص 155 .

ذاته إحدى الأزمات النفسية السلوكية التي تُشكل شبه خطر داهم على متخذ القرار، وإن كان يجب النظر إلى أن اليأس أحد بواعث الأزمات وأسبابها ذات الطبيعة الخاصة، والأزمة التي يسببها هذا الباعث، هي أزمة الإحباط؛ حيث يفقد متخذ القرار الرغبة والدافع على العمل، والتطوير والتنمية، والتحسين... ويكون معالجة اليأس بإشاعة الأمل، واستخدام بريقه الوهاج في تدمير الأزمة والقضاء على حالات الإحباط والإفشال، وتحويلها إلى قوة دافعة ذات حيوية ونشاط)[1] وهذا ما حدث بعد إحساس الصحابة باليأس، لقد تحول هذا اليأس وهذه الهزيمة إلى انتصارات؛ وهذه هي الانتصارات الربانية بعد هذه الأزمات، في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ (بعد الهزيمة، ﴿سَكِينَتَهُ﴾ يعني: الأمنَة والطمأنينة، ﴿عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ يعني: الملائكة. قيل: لا للقتال، ولكن لتجبين الكفار وتشجيع المسلمين، لأنه يُروى: أن الملائكة لم يقاتلوا إلا يوم بدر، ﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالقتل والأسر وسبي العيال وسلب الأموال، ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾). [2]

وقد كان الرسول –صلى الله عليه وسلم– في حاجة إلى هذه السكينة؛ لأنه مع شجاعته وثباته ووقوفه في وجه الأعداء كالطود الأشم؛ أصابه الحزن والآسى لفرار هذا العدد الكبير من أصحابه عنه، وكان المؤمنون الذين ثتبوا من حوله في حاجة إلى هذه السكينة؛ ليزدادوا ثباتاً على ثباتهم، وإيماناً على إيمانهم، وكان الذين فروا في حاجة إلى السكينة، ليعود إليهم ثباتهم، فيقبلوا على قتالهم أعدائهم بعد أن دعاهم رسولهم–صلى الله عليه وسلم – إلى ذلك .[3]

وقد نهى الله نبيه الإعجاب بأهل النفاق، وبأموالهم وأولادهم في آيتين في السورة، يقول تعالى في ذلك: ﴿فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾[التوبة: 55] ، ويقول أيضاً: ﴿وَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة : 85] .

([1]) الخضيري، محسن أحمد، إدارة الأزمات، ص 34 .

([2]) البغوي، معالم التنزيل، ج 4، ص 31.

([3]) طنطاوي، الوسيط، ج 6 ، ص 242 .

﴿فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ﴾ الإعجاب بالشيء: أن يسرّ به سروراً راض به متعجب من حسنه، قيل: مع نوع من الافتخار، واعتقاد أنه ليس لغيره ما يساويه. والمعنى: لا تستحسن ما معهم من الأموال والأولاد: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الله لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بما يحصل معهم من الغمّ والحزن عندما يغنمها المسلمون، ويأخذوها قسراً من أيديهم مع كونها زينة حياتهم وقرّة أعينهم، وكذا في الآخرة يعذبهم بعذاب النار بسبب عدم الشكر لربهم الذي أعطاهم ذلك، وترك ما يجب عليهم من الزكاة فيها، والتصدق بما يحق التصدق به. قوله: ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كافرون﴾ الزهوق: الخروج بصعوبة وتخرج أرواحهم حال كفرهم.[1]

وهناك أزمات نفسية أخرى ذكرتها السورة وهي الحزن: وهو ألم النفس على أمر قد وقع، وهو انفعال نفسي اضطراري يراد بالنهي عنه مجاهدته، وعدم توطين النفس عليه[2] ومنها قوله تعالى عن الذين جاءوا رسول الله يسألونه الحُمْلان، ليبلغوا إلى مغزاهم لجهاد أعداءِ الله في تبوك: ﴿وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾[التوبة: 92]، فقال لهم رسول الله عليه الصلاة والسلام: لا أجد حَمُولةً أحملكم عليها، أدبروا ﴿وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا﴾، وهم يبكون من حزن على أنهم لا يجدون ما ينفقون[3]، (وتفيض دمعاً، وهو أبلغ من يفيض دمعها، لأنّ العين جعلت كأن كلها دمع فائض)[4]، وقد كان هذا الألم النفسي واضح أثناء الهجرة إلى المدينة المنورة؛ يقول تعالى: ﴿إِلا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[التوبة: 40]، والمقصود: ﴿إِلا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أَيْ: اضطروه إلى الخروج لمَّا همُّوا بقتله، فكانوا سبباً لخروجه من مكَّة هارباً منهم، ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾ أَيْ:

([1]) الشوكاني، فتح القدير، ج1، ص577 – 578 .

([2]) رضا، محمد رشيد، المنار، ج 10، ص 427 .

([3]) انظر: الطبري، جامع البيان، ج 14، ص 421.

([4]) الزمخشري، الكشاف، ج 15، ص 208.

واحد اثنين هو صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رضي الله عنه، والمعنى: نصره الله منفرداً إلاَّ من أبي بكر: ﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ هو غارٌ في جبل مكة يقال له: ثور ﴿إِذْ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ﴾ أبي بكر: ﴿لا تَحْزَنْ﴾ وذلك أنَّه خاف على رسول الله صلى الله عليه وسلم الطَّلب، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ يمنعهم منَّا، وينصرنا ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾ ألقى في قلب أبي بكر ما سكن به، ﴿وَأَيَّدَهُ﴾ أَيْ: رسوله ﴿بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾ قوَّاه وأعانه بالملائكة يوم بدر، وأخبر أنَّه صرف عنه كيد أعدائه، ثمَّ أظهره: نصره بالملائكة يوم بدر ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وهي كلمة الشِّرك ﴿السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ [يعني: كلمة التَّوحيد] لأنَّها علت وظهرت، وكان هذا يوم بدر[1]، (وقد نصره الله على عدوه وهو بهذه الحال من الخوف وقلة العدد، فكيف يخذله ويُحْوِجه إليكم، وقد كثَّر الله أنصاره، وعدد جنودِه)[2]، وهكذا نجد لطف الله تعالى وفضله ورحمته واضحاً خلال هذه الأزمات النفسية، من إنزال السكينة والطمأنينة والرحمة، ثم الجنود، وأي جنود: هم جنود من السماء، هم الملائكة.

وقد كثرت الأمراض والأزمات النفسية في عصرنا ولكن القرآن الكريم بيّن لنا أسباب الأمراض والاضطرابات النفسية وعلاجها –وقد تحدثنا عن بعضها في السورة الكريمة–، والتي من أهمها الذنوب واتباع هوى النفس الأمارة بالسوء، وتعتبر الذنوب والخطايا واقتراف الآثام وارتكاب المعاصي للقلب كالسموم إن لم تهكله أضعفته ، ومن الأسباب أيضاً القلق والخوف: وهو آفة عصرنا الذي أصبح يطلق عليه "عصر القلق" وهو خوف غامض غير محدد مصحوب بالتوتر والضيق والتهيب وتوقع الخطر، وعدم الاستقرار العام، مما يعوق الفرد عن الإنتاج، ويجعل سلوكه مضطرباً، والاكتئاب: وهو حالة يشعر فيها الفرد بالكآبة والكدر والغم والحزن الشديد وانكسار النفس والتشاؤم دون سبب مناسب أو لسبب تافه، فيفقده لذة الحياة، ويرى أنها خالية من الأمن والسلام، لا معنى لها ولا هدف له فيها، فتتبط عزيمته ويفقده اهتمامه بعلمه وشئونه، وقد يكره

([1]) الواحدي، الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج1، ص 464 .

([2]) الطبري، جامع البيان، ج 14، ص 258 .

الحياة[1]، ومِن الاضطراباتِ النفسيةِ اليأسَ، قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإنسان مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ﴾[هود: 9]؛ فاليأسُ اضطرابٌ نفسيٌّ سببُه الانقطاعُ عن اللهِ عز وجل، ويَعُدُّ علماءُ النفسِ الإسلاميِّ النفاقَ اضطراباً نفسيّاً سببُه الشركُ، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاس مَن يَقُولُ آمَنَّا بالله وباليوم الآخر وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ* يُخَادِعُونَ الله والذين آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[البقرة: 8-9]، ومِن أنواعِ الاضطرابِ النفسيِّ الناتجِ عن ضعفِ الإيمانَ، وهو مِن أمراضِ العصرِ؛ الصراعٌ بين الحقِّ والباطلِ، ومع ضعفِ الإيمانِ يصبحُ الإنسانُ ضحيَّةَ هذا الصراع، قال تعالى: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذلك لاَ إلى هؤلاء وَلاَ إِلَى هؤلاء وَمَن يُضْلِلِ الله فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً﴾[النساء: 143]، والاكتئابُ وهومن أمراض العصرِ أيضاً سببُه الانحراف عن الفطرة، وهذا ما سمّاه العلماءُ: الشعورَ بالذنبِ، وعقدةَ النقصِ، أو الاكتئابَ. إنّ الإنسانَ إذا اتّصلَ باللهِ عز وجل فقد عرف حقيقة ذاته، وحقيقة فطرته، فإذَا انقطَعَ عنه أُصيبَ بما يسميه علماءُ وأطباءُ النفسِ اضطراباتٍ نفسيةً، فإذا آمنَّا باللهِ عز وجل عِشْنَا حالةً اسمُها الصحةُ النفسيةُ، نفسٌ رضيةٌ، مطمئنةٌ، متفائلةٌ، متوازِنةٌ، هذه الصِّفاتُ الراقيةُ هي مِن ثمارِ الإيمانِ.[2] يقول تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾[طه :123/ 124] ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي﴾ أي: الذي أذكره به فتولى عنه ولم يقبله ولم يستجب له، ولم يتعظ به فينزجر عما هو عليه مقيم من خلافه أمر ربه ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ يقول: فإن له معيشة ضيقة، والضنك من المنازل والأماكن والمعايش: الشديد، وهو الشقاء [3] وقد نفى الله تعالى عنه الخوف والحزن في آية أخرى، بقوله: ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ

([1]) انظر: زهران، حامد عبد السلام، التوجيه والإرشاد النفسي، عالم الكتب، القاهرة، ط3، 1998، ص 346- 350 .

([2]) انظر: النابلسي، محمد راتب، موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، دار المكتبي، سورية، ط2، 2005م، ج 1، ص53- 54 .

([3]) الطبري، جامع البيان، ج 18، ص 390.

عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[البقرة : 38] ، واتباع الهدى، بتصديق الخبر، وعدم معارضته بالشبه، وامتثال الأمر بأن لا يعارضه بشهوة.(1)

وقد جاء منهج الإسلام واضحاً في تحقيق الأمن ونشره، ومحاربة القلق والخوف، وقرر جميع الوسائل المادية والمعنوية لذلك، فكانت الهجرة إلى المدينة المنورة وإقامة الدولة الإسلامية أهم الوسائل لتوفير الأمن للمسلمين في جميع جوانبه.(2)

وكان من الأزمات التي تعاني منها الأمة الإسلامية اليوم، الهزيمة النفسية وهو سقوط حضاري لا يضاهيه نوع آخر من الهزائم العسكرية التقليدية، وخطورتها تكمن في كونها استعماراً للعقول والقلوب، وقد فطنت بعض الدول إلى أهميته حتى غدا عنصراً مهماً في الحملات الفكرية والإعلامية، وأمتنا اليوم لا تعاني من شيء كمعاناتها من آثار هذه الهزيمة التي دمرت معنوياتها، وحطّمت دوافعها، وأحبطت تطلعاتها، وأصابتها بالضعف والهوان؛ حيث ألقت بنفسها في أحضان عدوها، ومكّنته من كيانها، ودانت له بالتبعية والولاء التام، وانقادت له مستسلمة دون أي مقاومة تذكر، حيث تشعر بمرارة العجز والقهر واليأس، إلى درجة أنه قد زال لدى معظم المسلمين أية بارقة أمل في نهضة حضارية جديدة، أو مستقبل مشرق واعد، فتحقق للعدو ما أراد من السيطرة على كثير من أفراد هذه الأمة نفسياً ومن ثَم ثقافياً وسياسياً واقتصادياً وسلوكياً.(3)

5.3 أزمات متنوعة معاصرة مستوحاة من جو سورة التوبة:

وأخيراً وبعد الحديث عن أزمات متنوعة عامة وخاصة من خلال دراسة موضوعات سورة التوبة، وددت أن أتكلم عن بعض الأزمات المعاصرة المستفادة من خلال هذه الدراسة والتي يعاني منها أبناء مجتمعنا، والتي كان من أهمها :

---

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ج 1، ص 515.

(2) الزحيلي، محمد، موسوعة قضايا إسلامية معاصرة ، ج1، ص 40 .

(3) مجلة البيان، الحسيني، عبد العزيز عبد الله، الهزيمة النفسية، وفقه المرحلة، شوال، 1426هـ، العدد 218، ص 6 .

أولاً: التحدي الفكري المنحرف: والمتمثل بالممارسات الوحشية والهمجية والممنهجة وفق أيدولوجيات ليست من دين الله في شيء، وهي تلك القائمة في بلاد المسلمين، وما خلفته من فرقة ودمار وشتات، وما جرته من ويلات على الأمة الاسلامية ستبقى تعيش اثارها السلبية ردحا طويلاً من الزمان.

ثانياً: تشويه صورة الاسلام النقية، وتصوير الاسلام بدين العنف والتطرف وقتل الأبرياء، وهتك الاعراض، مما كان له اسوأ الأثر في المجتمعات الغربية والشرقية، وشكل صداً عن سبيل الله، وابعادا للناس عن دينه، فبدلاً من أن يدخل الناس في دين الله أفواجاً كان العكس.

ثالثاً: إذكاء روح الجرأة عند أعداء الإسلام على بلاد المسلمين، فنهبوا خيراتها، وتحكموا في إدارتها، وساسوها بما يحقق مصالحهم، ويضر بمصالح الناس والأوطان، لنستذكر حديث القصعة وأزمتها، فنحن كثير ولكننا غثاء كغثاء السيل؛ فقد روى ثوبان، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: «يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها»، فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: «بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن»، فقال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال: «حب الدنيا، وكراهية الموت»[1]

رابعاً: انتزاع أمل الوحدة والحرية وتحقيق استقلال الذات: فما نراه ونعيشه اليوم حولنا، من تجذر قدم اعدائنا فينا، وفي كل زوايا ومربعات الحياة، يولد يأساً لدى الأجيال والناشئة فيُحبطوا، ويصابوا بشلل عام، ويروا أن تحقيق الخير لمستقبلهم ضرب من الخيال، فيراوحوا مكانهم ويعبروا عن هذه الأزمة بأن ليس لها من دون الله كاشفة.

خامساً: الواقع المالي والاقتصادي ومعركة كسر العظم، حيث يشكل هذا التحدي موتاً أو حياةً للشعوب، وأعني هنا العرب والمسلمين عموماً، إذ يصارع العالم العربي الإسلامي أزمة المال منذ عقود، ومديونته لا زالت في تنامي مستمر، بالرغم من

---

(1) سنن أبي داود لأبي داود السجستاني، كتاب الملاحم، باب في تداعي الأمم على الإسلام، حديث ٤٢٩٧، ج4 ، ص111 (صححه الألباني).

محاولات واجتهادات ذوي العلاقة والاختصاص، وما تطالعنا به مدارسهم من تبريرات وأسباب وتداعيات جراء تردي المديونية يوماً بعد يوم .

سادساً: الافتراق والاتفاق الخارجي والداخلي بين جمهرة أصحاب الفكر، والرأي الديني في كثير من القضايا المفصلية، والتي تتعلق بمصير الأمة على كل الأصعدة ، ولكل أطياف المجتمع: ذكور كانوا أم اناث، شباب أم شيوخ، مثقفين أم عوام، أغنياء أم فقراء، مما يشكل حالة من الشك والحيرة والتي بطبيعة الحال ستنعكس سلباً على تقدم عجلة مؤسساتنا العلمية والفكرية والريادية نحو الخير والعطاء والبناء والقوة والتنمية و...).

سابعاً: تكرار حالة مسجد الضرار بين ظهراني الأمة بأشكال وصور متعددة، لا سيما في الأوساط والتيارات الفكرية والحزبية المأزومة، والتي تتقمص أجندة ليست من فكرها الأصيل في شيء، وإنما مغازلة لفريق على حساب فريق آخر، سرعان ما ينهار هذا البناء الذي أسس على غير هدى، لأنه ما كان لله يبقى وما كان لغير الله يزول ويفنى.

ثامناً: تنكُب نهج القران وهدي النبوة، من عامة المسلمين، أخلاقاً، وسلوكاً، وتربية، وعبادة، ومعاملات، الأمر الذي يبدد مجتمع الأمن والخير والرحمة والإحسان والفضيلة الى مجتمع الجاهلية والانحراف والانخراط في سبل الهوى والضلال والعياذ بالله. هذا من جانب، ومن جانب آخر إطالة أمد الاصلاح لدى المصلحين وحملة لواء "رسالة الاسلام" السمحة وذات الطابع الوسطي المتمثل بقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً﴾[البقرة: 143]، أي: (أخيرهم وأعدلهم)[1]، ناهيك عن الصورة القاتمة التي يخلفها هذا المجتمع عن الاسلام الحق .

تاسعاً: التمترس وراء عقليات كلاسيكية في كثير من جوانب الحياة، مما يؤدي الى حالة من الجمود وعدم مواكبة دورة الحياة وقفزاتها الحتمية نحو التطور والرقي والتحضر المتوازن الذي هو أساس إسلامنا، والذي يصب في مصلحة البناء البشري وعمارة الحياة ، لينفذ أمر الله تعالى بالاستخلاف في الارض، ويأخذ بيد البشرية الى بر الامان ، واسباب السعادة في الدارين

(1) السمرقندي، بحر العلوم، ج1، ص 126.

عاشراً : انتزاع الايمان والثقة من أنفسنا بأننا قدوة العالم بأسره، بما نحمل من عقيدة وخير ودين وفكر يتسم بالسهولة واليسر، واغترارنا بسراب المدنية الغربية، بما تحمل في طياتها من غث وسمين، فاستبدلنا الذي هو أدنى بالذي هو خير، وتحققت فينا نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم القائل: "لا تقوم الساعة حتى تأخذ امتي بأخذ القرون قبلها شبرا بشبر وذراعا بذراع، فقيل يا رسول الله كفارس والروم؟ فقال : ومن الناس الا أولئك ؟؟ ".[1]

حادي عشر: المواجهة الإعلامية غير المتكافئة بين المسلمين وغيرهم، ففي الوقت الذي يعاني منه المسلمون عامة فقراً واضحاً في منظومة الإعلام الهادف بمختلف صوره وأشكاله، ومدى تأثيره وقوته في الساحتين: العربية والعالمية، بالمقابل نرى زخماً هائلاً من الفضائيات والمواقع الالكترونية، والصحف والدراسات، والتي تهدف بمجملها الى إطفاء نور الله بما يملكون من وسائل وأساليب وأدوات متنوعة ومتطورة تحاكي عقول وقلوب شبابنا، وتدق لهم على أوتار الشهوات، وإضاعة الاوقات، ونسيان الدين وما جاء به من تعليمات ، فهذه هي أم الأزمات .

فيما تقدم عرضت بعضاً من الأزمات والتحديات التي تواجه امتنا اليوم، واجتهدت في وصفها بهذا السياق، وليس غريبا على امتنا ان تعيش هذه الازمات، حيث سبق لها عبر تاريخها الطويل والحافل بمواطن العز والاشراق والنور، وكذلك مواطن الابتلاء والضعف والسكون، وهذا حال الامم كما قال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُداوِلُها بَيْنَ النَّاسِ﴾[آل عمران: 140]، أي(نصرِّفها للناس، للبلاء والتمحيص).[2] فكانت الأمة في كل مرة تتخطى وتتجاوز مصائبها وابتلاءاتها، بما فهموا من فلسفة هذا الدين العظيم، وبما تعلموا من إرث النبوة الكريم، وبما تحويه سيرة هذه الامة من مشاهد غيرت مجرى التاريخ.

([1]) اخرجه البخاري في الصحيح من حديث ابي هريرة ، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: «لتتبعن سنن من كان قبلكم»، حديث رقم 7319، ج9 ، ص 102 .

([2]) الطبري، جامع البيان، ج7، ص 241.

فليس الاصلاح بالأمر المستحيل، إنما يتطلب منا صدقا والتزاما وتخلقا بأخلاق الاسلام، وحمل رسالته برفق وفهم ووعي يناسب عظمة وجمالية الدين الذي ندعوا له، ومكانة ورقي النبي الذي نتبع –صلى الله عليه وسلم –.

الفصل الرابع (الفصل الختامي)

مبشرات سورة التوبة أثناء وبعد الأزمات للمؤمنين

كلما استحكمت حلقات الضائقة والمصيبة، وكلما اشتدت الكروب والصعاب والأزمات؛ كلما تأكدنا أن الفرَج قريب، (كما إن الأزمة التي يمر بها الشخص قد تكون سبباً لخير كثير لم يكن ليحصل عليه لولا الوقوع في الابتلاء، ولذلك يجب أن يكون العمل بعد الأزمة السعي للانطلاق في طريق البناء، من خلال هذه المكاسب وعدم النظر للأزمة بأنها شر محض؛ ودليل ذلك قوله –تعالى– عن حادثة الإفك: ﴿لاَ تَحْسَبُوهُ شَراً لَّكُم بَل هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[النور: 11][1] أي لا تظنوا ما جاءوا به من الإفك شرّا لكم عند الله وعند الناس، بل ذلك خير لكم عنده وعند المؤمنين.[2]

ويقول تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾[الشرح: 6/5]، ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ﴾ كضيق الصدر والوزر المنقض للظهر وضلال القوم وإيذائهم؛ ﴿يُسْراً﴾ كالشرح والوضع والتوفيق للاهتداء والطاعة فلا تيأس من روح الله إذا عراك ما يغمك،[3] (واليسر منكّر في الموضعين فهما شيئان، والعسر الواحد: ما كان في الدنيا، واليسران: أحدهما في الدنيا من الخصب، وزوال البلاء، والثاني في الآخرة من الجزاء وإذا فعسر جميع المؤمنين واحد– وهو ما نابهم من شدائد الدنيا –، ويسرهم اثنان: اليوم بكشف الغمة وصرف المحنة، وغداً بالجزاء.)[4]

والبشرى: هي الخبر السارّ أو البشارة السارّة بالخير والفضل والمكافأة، وقد جمعت هذه البشرى بين سعادتي الدنيا والآخرة، ففي الدنيا: النصر والعز والثناء الحسن، وفي الآخرة: الفوز والنجاة والظفر بالجنة ونعيمها الأبدي الخالد، ولا خلف لوعد الله، ولا تبديل لأخباره، فلا ينسخها شيء، ولا تكون إلا كما قال، فما أجلّ ذلك،

([1]) مجلة البيان، شماخ، محمد بن علي، إدارة الأزمات في حياة الدعاة دراسة على حادثة الإفك، صفر، 1422 هجري ، العدد 162، ص 33 .

([2]) الطبري، جامع البيان، ج 19، ص 115.

([3]) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج5، ص 321 .

([4]) القشيري، لطائف الإشارات، ج3، ص 744.

وما أكرم الله المبشّر وأحبّه إلى عباده، وما أسعد المبشّرين! جعلنا الله منهم. قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ *الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ *لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [يونس:64/63/62]، وصور البشرى في الحياة الدنيا كثيرة منها النصر، والاستخلاف في الأرض ما داموا على شرع الله ودينه، كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾[النور: 55]، ومن البشائر بشرى الملائكة لهم بحسن الحال وبالدرجة الرفيعة عند النزع: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ: سَلام عَلَيْكُمْ﴾[النحل: 32]، ولهم البشرى في الحياة الآخرة بحسن الثواب والنعيم المقيم في الجنة[1]، كما قال تعالى في سورة التوبة: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيها نَعِيمٌ مُقِيمٌ * خالِدِينَ فِيها أَبَداً إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التوبة: 22/21] .

والبشارة، هي نوع من الإعلام بشيء سوف يأتي مستقبلاً، أي، أنك حين تبشر إنسانا فأنت تخبره بشيء قادم يسر، يقول تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم﴾ أي: يخبرهم بالنهاية السارة التي سوف يصلون إليها ليتحملوا مشقة التكاليف التي يأمرهم، ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾ وقد ترحم ولكنك لا تنال الرضوان، فوضح المولى سبحانه وتعالى ذلك وأضاف «الرضوان» إلى «الرحمة»، ولذلك يقول الحق عَزَّ وَجَلَّ: ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾ والرضوان هو ما فوق النعيم، وبعد الرضوان يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وجنات لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾، وشاء الله –عَزَّ وَجَلَّ– أن يطمئن المؤمن بوعد حق، فوعد المؤمنين بالخلود الأبدي في الجنة[2]، (وإنما تولى الله تعالى بشارتهم بنفسه عزّ وجلّ ليزدادوا حبّا له تبارك وتعالى لأن القلوب مجبولة على حب من يبشرها بالخير).[3]

([1]) انظر: الزحيلي، وهبة مصطفى، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج ، دار الفكر المعاصر، دمشق، ط2 ، 1418 هـ، ج11، ص 212–214 .

([2]) الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج8، 4972 – 4977 .

([3]) الألوسي، روح المعاني، مجلد 4، ج5، ص 266 .

واحتوى هذا الفصل في ضوء سورة التوبة ثلاثة مباحث :

1.4 البشائر في السورة، أثناء وبعد الأزمات في الدنيا:

وهي بشائر لهم في الدنيا، وهِيَ مَا بَشَّرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ فِي كِتَابِهِ مِنْ جَنَّتِهِ وَكَرِيمِ ثَوَابِهِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾[الْبَقْرَةِ :25]، وقوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[الْأَحْزَابِ: 47] وقوله : ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ﴾[فُصِّلَتْ :30]، وقيل إن المقصود هو ما روي: أن أبا هريرة، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: «لم يبق من النبوة إلا المبشرات» قالوا: وما المبشرات؟ قال: «الرؤيا الصالحة»[1]، وأخرج مسلم بن الحجاج هذا الحديث، عن أبي ذر، قال: قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير، ويحمده الناس عليه؟ قال: «تلك عاجل بشرى المؤمن»"[2]، وقيل: البشرى في الدنيا هي: الثناء الحسن، وفي الآخرة: الجنة، وقيل: بشرهم في الدنيا بالكتاب والرسول أنهم أولياء الله، ويبشرهم في القبور وفي كتب أعمالهم بالجنة.[3]، وفي سورة التوبة، ووقت نزول السورة مبشرات في الدنيا، بعضها يتمثل في المطالب التالية :

المطلب الأول: النصر، وإنزال السكينة في الشدائد .

المطلب الثاني: عمارة المساجد خاصة بالمؤمنين .

المطلب الثالث: إرسالُ رسول الله محمد –صلى الله عليه وسلم– ؛ تأهيل للأمة لقيادة البشرية .

1.1.4 النصر، وإنزال السكينة في الشدائد:

أن الاسلام دعوة الله التي تكفل بنصرها ونصر دعاتها والمؤمنين بها والحاملين للوائها ولقد انتهت الدعوة إلى نصر في أمد لا يتصوره العقل[4]، ولقد وعد الله سبحانه

---

(1) صحيح البخاري، كتاب التعبير، باب المبشرات، حديث رقم 6990، ج9، ص 31 .

(2) صحيح مسلم، كتاب الْبِرِّ وَالصِّلَةِ والآداب ، باب إِذَا أُثْنِيَ عَلَى الصَّالِحِ فَهِيَ بُشْرَى وَلَا تَضُرُّهُ، حديث رقم 2642 ، ج4 ، ص 2034 .

(3) انظر البغوي، معالم التنزيل ، ج4، ص 141.

(4) انظر: السباعي، السيرة النبوية –دروس وعبر–، ص 127 .

وتعالى المؤمنين بعد الشدة في الغزوات بالنصر والظفر، والغلبة وشفاء الصدور، يقول تعالى: ﴿قاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ* وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[التوبة: 15/14]، فقد (هوّن عليهم كلفة المخاطرة بالمهجة بما وعدهم من الظفر والنصرة، فإنّ شهود خزى العدوّ مما يهوّن عليهم مقاساة السوء، والظّفر بالأرب يذهب تعب الطّلب، وشفاء صدور المؤمنين على حسب مراتبهم في المقام والدرجات فمنهم من شفاء صدره في قهر عدوّه، ومنهم من شفاء صدره في نيل مرجوّه. ومنهم من شفاء صدره في الظّفر بمطلوبة، ومنهم من شفاء صدره في لقاء محبوبه. ومنهم من شفاء صدره في درك مقصودة، ومنهم من شفاء صدره في البقاء بمعبوده)[1]، وقد خص الله تعالى عباده المتقين بالمحبة والبشرى في هذه السورة (خمس مرات)[2] منها قوله تعالى: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ عاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾[التوبة: 4] يقول: (إن الله يحب من اتقاه بطاعته، بأداء فرائضه واجتناب معاصيه)[3]، ويقول تعالى أيضاً: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلاَّ الَّذِينَ عاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ فَمَا اسْتَقامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾[التوبة: 7] فالله سبحانه يحب الموفين بعهدهم[4]؛ فهو هنا (يعلق الوفاء بالعهد بتقوى الله وحبه-سبحانه- للمتقين، فيجعل هذا الوفاء عبادة له وتقوى يحبها من أهلها، وهذه هي قاعدة الأخلاق في الإسلام)[5] ويقول تعالى أيضاً: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ مِنْها أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقاتِلُوا

(1) القشيري، لطائف الإشارات، ج2 ، ص12.
(2) انظر: عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن ، ص 761 .
(3) الطبري، جامع البيان ، ج14، ص132.
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج2، ص 370 .
(5) قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج3، ص 1601.

الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَما يُقاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾(وَاعْلَمُوا ﴿أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ فهذه الآية (بشارة وضمان لهم بالنصرة بسبب تقواهم.)[1]

وقال تعالى أيضاً مبشراً المؤمنين بالفوز والنصر: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ * ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: 27/26/25]، فقوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾[التوبة: 25]، فقد جاء فيه عَنْ مجاهدٍ، قال: « هذا أول ما نزل من براءة يعرفهم نصره ويوطئهم، أو يوطنهم لغزوة تبوك»[2]، فأمرهم الله تعالى بأن يقاتلوا ويتوكلوا على الله، ويطلبوا النصرة منه، ولا يعتمدوا على الكثرة والقلة، لأن النصرة من الله تعالى فذلك قوله: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَواطِنَ كَثِيرَةٍ﴾، يعني: من مشاهد كثيرة، وقد نصركم الله في مواطن كثيرة[3] والمواطن مقامات الحرب ومواقفها، وقيل: مشاهد الحرب توطنون أنفسكم فيها على لقاء العدو، وهذه المواطن: وقعات بدر، وقريظة والنضير، والحديبية، وخيبر، وفتح مكة، ووصفت بالكثرة لأن أئمة التاريخ والعلماء والمغازي نقلوا أنها كانت ثمانين موطناً[4]، وقيل أن غزوات رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كانت على ما ذكر في الصحيحين –من حديث زيد بن أرقم–، تسع عشرة غزوة، زاد بريدة في حديث: قاتل في ثمان منهن ويقال: إن جميع غزواته وسراياه وبعوثه سبعون[5]، وذكر الواقدي أنه (كانت مغازي النبي صلى الله عليه وسلم التي غزا بنفسه

([1]) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، ج3، ص80.

([2]) مجاهد، تفسير مجاهد، ج1 ، ص 367.

([3]) السمرقندي، أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم (ت 373هـ)، بحر العلوم، تحقيق: محمود مطرجي، دار الفكر، بيروت، ج2، ص 48.

([4]) أبو حيان، البحر المحيط، ج 5 ، ص 24 – 25 .

([5]) انظر: القاسمي، محاسن التأويل، ج5، ص 368. والحديث أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب المغازي، باب غزوة العشيرة أو العسيرة حديث رقم 3949 ، ج 5، ص 71. وأخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الجهاد والسير، باب عدد غزوات النبي صلى الله عليه وسلم حديث رقم 1254 ، ج3 ، ص 1447 .

بنفسه سبعاً وعشرين غزوة، وكان ما قاتل فيها تسعاً: بدر القتال، وأحد، والمريسيع، والخندق، وقريظة، وخيبر، والفتح، وحنين، والطائف، وكانت السرايا سبعاً وأربعين سرية، وقاتل في بني النضير، ولكن الله جعلها له نفلا خاصة، وقاتل في غزوة وادي القرى في منصرفه عن خيبر، وقاتل في الغابة، وقتل من العدو ستة[1]، كما إن (نصر الله تعالى لهم في تلك المواطن الكثيرة لم يكن بقوة عصبية أحد منهم، ولا بقوة المال، وما يأتي به من الزاد والعتاد، وقد ترتب عليه من القوة والعزة والثروة ما لم يكن لهم مثله من قبل، ثم ترتب عليه من السيادة والملك بطاعة الله ورسوله ما هو أعظم من ذلك فيما بعد، ثم يكون له من الجزاء في الآخرة ما هو أعظم وأدوم، وإنما ذلك من فضل الله عليهم بهذا الرسول الذي جاءهم بهذا الدين القويم).[2]

ومن المبشرات أيضاً في الشدائد؛ إنزال السكينة، وهي الهيئة النفسية التي تحصل من سكون النفس واطمئنانها ورزانتها، وهى ضد الانزعاج[3]، وفيها ثلاثة أقاويل، أحدها: أنها الرحمة، والثاني: أنها الأمن والطمأنينة، والثالث: أنها الوقار[4]، ومن المبشرات في هذه الغزوة أيضاً: قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾، وهي الملائكة، ومنها: ﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، يقول: وعذب الله الذين جحدوا وحدانيّته ورسالةَ رسوله محمدٍ صلى الله عليه وسلم، بالقتل وسَبْي الأهلين والذراريّ، وسلب الأموال والذلة ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾، يقول: هذا الذي فعلنا بهم من القتل والسبي ﴿جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾، يقول: هو ثواب أهل جحود وحدانيته ورسالة رسوله[5]، ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ﴾ أي الذي له الإحاطة علماً وقدرة، ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي العذاب العظيم ﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ اي فيهديه إلى الإسلام ويغفر له جميع ما سلف من الآثام ﴿وَاللَّهُ﴾ أي الذي له صفات الكمال ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي محاء للخطايا عظيم الاكرام لمن تاب، وفي ذلك إشارة إلى أنه جعل هذه الوقعة، لحكمته التي اقتضت ربط المسببات بأسبابها –سبباً

([1]) الواقدي، المغازي، ج1، ص 7 .

([2]) رضا، محمد رشيد، المنار، ج 10، ص218.

([3]) انظر: المراغي، تفسير المراغي، ج10، ص85 .

([4]) الماوردي، النكت والعيون، ج2، ص 349.

([5]) الطبري، جامع البيان، ج14، ص189.

لإسلام من حضرها من كفار قريش وغيرهم من المؤلفة بما قسم فيهم (صلى الله عليه وسلم) من غنائم هوزان وبما رأوا من عز الإسلام وعلوه، فكان في ذلك ترغيب لهم بالمال، وترهيب بسطوات القتال، ولإسلام وفد هوزان بما حصل لهم من القهر وما شاهدوا للنبي –صلى الله عليه وسلم– من عظيم النصر، ولإسلام غيرهم من العرب بسبب علم كل منهم بهذه الوقعة أنهم اضعف ناصراً وأقل عدداً، كل ذلك رحمة ورفقاً منه سبحانه لهم)[1]، وهناك حكم عظيمة ذكرها بعض المفسرون منها (أن الله عز وجل وعد رسوله وهو صادق الوعد، أنه إذا فتح مكة دخل الناس في دينه أفواجا، ودانت له العرب بأسرها، فلما تم له الفتح المبين اقتضت حكمته تعالى أن أمسك قلوب هوازن ومن تبعها عن الإسلام، وأن يجمعوا ويتألبوا لحرب رسول الله –صلى الله عليه وسلم– والمسلمين؛ ليظهر أمر الله وتمام إعزازه لرسوله ونصره لدينه، ولتكون غنائمهم شكرانا لأهل الفتح، وليظهر الله –سبحانه– رسوله وعباده، وقهره لهذه الشوكة العظيمة التي لم يلق المسلمون مثلها، فلا يقاومهم بعد أحد من العرب)[2]، فهذه النعم من النصر والسكينة... وغيرها في هذه الآيات ما هي إلى مبشرات لرسوله الكريم وللصحابة رضوان الله عليهم في الدنيا، ومن هذه الآيات في السورة والتي توضّح هذه النعم وهذا الفرج بعد الشدة من النصر والغلبة والسكينة وانزال الجنود وغيرها؛ قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[التوبة: 40]، وهذا النصر في هذه الآيات فيه أن الله سبحانه افتتح غزوات العرب بغزوة بدر، وختم غزوهم بغزوة حنين، ولهذا، يقرن بين هاتين الغزاتين بالذكر، فيقال: بدر وحنين، وإن كان بينهما سبع سنين، والملائكة قاتلت بأنفسها مع المسلمين في هاتين الغزاتين، والنبيّ صلّى الله عليه وسلّم رمى في وجوه المشركين بالحصباء فيها، وبهاتين الغزاتين

---

(1) البقاعي، نظم الدرر، ج8، ص 427 – 428 .

(2) ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين (ت 751هـ)، زاد المعاد في هدي خير العباد، مؤسسة الرسالة، بيروت، مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، ط27، 1994م، ج3، ص 418 .

طفئت جمرة العرب لغزو رسول الله صلّى الله عليه وسلّم والمسلمين، فالأولى خوفتهم وكسرت من حدتهم، والثانية استفرغت قواهم، واستنفدت سهامهم، وأذلت جمعهم، حتى لم يجدوا بدا من الدخول في دين الله، ومنها: أن الله سبحانه جبر بها أهل مكة، وفرحهم بما نالوه من النصر والمغنم.(1) ﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ يعني إلا تنصروا أيها الناس النبي –صلى الله عليه وسلم– بالنفير معه وذلك حين استنفرهم إلى تبوك فتقاعدوا فقد نصره الله؛ ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يعني من مكة ولم يكن معه من يحامي عنه ويمنع منه إلا الله تعالى، ليعلمهم بذلك أن نصره نبيه ليس بهم فيضره انقطاعهم وقعودهم، وإنما هو من قبل الله تعالى فلم يضره قعودهم عنه. وفي قوله ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ إما بإرشاده إلى الهجرة حتى أغناه عن معونتهم، وإما بما تكفل به من إمداده بملائكته، ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ﴾ يريد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لصاحبة أبي بكر ﴿لا تَحْزَنْ﴾ وهي إما: أن يكون تبشيراً لأبي بكر بالنصر من غير أن يظهر منه حزن، وإما: أن يكون قد ظهر منه حزن فقال له ذلك تخفيفاً وتسلية، ﴿لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ أي ناصرنا على أعدائنا. ﴿... فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ وفيها قولان: على النبي صلى الله عليه وسلم، أو: على أبي بكر لأن الله قد أعلم نبيه بالنصر.(2) ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾، يقول: وقوّاه بجنودٍ من عنده من الملائكة، لم تروها أنتم ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، وهي كلمة الشرك ﴿السُّفْلَى﴾، لأنها قُهِرَت وأذِلَّت، وأبطلها الله تعالى، ومحق أهلها، وكل مقهور ومغلوب فهو أسفل من الغالب، والغالب هو الأعلى ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ﴾، يقول: ودين الله وتوحيده وقولُ لا إله إلا الله، وهي كلمتُه ﴿الْعُلْيَا﴾، على الشرك وأهله، الغالبةُ(3)، وقيل إن المقصود بقوله تعالى: ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْها﴾ يعني الملائكة، أنزلهم ليحرسوه في الغار، أو ليعينوه على العدوّ يوم بدر والأحزاب وحنين،(4) ثم يأتي وعد الله مرة أخرى في السورة للمؤمنين بالنصر، والغلبة على الأعداء، بقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى

---

(1) انظر: القاسمي، محاسن التأويل، ج5، ص 373 .

(2) انظر: الماوردي، النكت والعيون، ج 2، ص 363 – 365 .

(3) الطبري، جامع البيان، ج14، ص 261 .

(4) القاسمي، محاسن التأويل، ج 5، ص 419 .

الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾[التوبة:52] أي: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا﴾ تنتظرون بنا أيها المنافقون، ﴿إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ﴾ إما النصر والغنيمة أو الشهادة والمغفرة، ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ﴾ إحدى السوءتين إمَّا: ﴿أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾ فيهلككم كما أهلك الأمم الخالية، ﴿أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ أَيْ: بأيدي المؤمنين إن أظهرتم ما في قلوبكم، ﴿فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾ فتربصوا مواعيد الشيطان إنا متربصون مواعيد الله من إظهار دينه واستئصال من خالفه).[1]

2.1.4 عمارة المساجد خاصة بالمؤمنين:

يقول تعالى: ﴿إِنَّما يَعْمُرُ مَساجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ فَعَسى أُولئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ*أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[التوبة: 19/18] .

وعمارة المساجد: بزيارتها والقعود فيها[2] (وإنما تستقيم عَمَارتها لهؤلاء الجامعين للكمالات العلمية والعملية ومن عمارتها تزيينها بالفرش وتنويرها بالسرج وإدامة العبادة والذكر ودرس العلم فيها وصيانتها)[3]، وكذلك بناء المسجد ورمه عند الخراب، وهو محذور على الكافر، يمنع منه حتى لو أوصى به لم تقبل وصيته[4]، وقيل: إن العباس لما أسر وعُيّر بالكفر وقطيعة الرحم قال: تذكرون مساوئنا ولا تذكرون محاسننا، فقال علي: ألكم محاسن؟ قال: نعم إنا لنعمر المسجد الحرام ونحجب الكعبة ونسقى الحاج

---

(1) البغوي، معالم التنزيل ، ج4 ، ص 57 .

(2) الواحدي، الوجيز، ج1 ، ص457.

(3) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، ج3، ص 75 .

(4) انظر: الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي (ت 468هـ)، الوسيط في تفسير القرآن المجيد، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ، ط1، 1994 م ، ج2 ، ص 482

ونفك العاني، فنزلت هذه الآية ردا عليه...[1]، وعمارة المساجد حسية ومعنوية؛ (فَإِنَّ عِمَارَةَ مَسَاجِدِ اللهِ الْحِسِّيَّةِ إِنَّمَا تَكُونُ لِعِمَارَتِهَا الْمَعْنَوِيَّةِ بِعِبَادَتِهِ فِيهَا وَحْدَهُ، وَلَا تَصِحُّ وَلَا تَقَعُ إِلَّا مِنَ الْمُؤْمِنَ الْمُوَحِّدِ لَهُ، والمؤمنون الْجَامِعُونَ لأَرْكَانِ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ الخمس الَّتِي يَلْزَمُهَا سَائِرُ أَرْكَانِهَا هُمُ الَّذِينَ يَرْجُونَ بِحَقٍّ، أَوْ يُرْجَى لَهُمْ بِحَسَبِ سُنَنِ اللهِ فِي أَعْمَالِ الْبَشَرِ وَتَأْثِيرِهَا فِي إِصْلَاحِهِمْ، أَنْ يَكُونُوا مِنْ جَمَاعَةِ الْمُهْتَدِينَ إِلَى مَا يُحِبُّ اللهُ وَيَرْضَى مِنْ عِمَارَةِ مَسَاجِدِهِ حِسًّا وَمَعْنًى، وَاسْتِحْقَاقِ الْجَزَاءِ عَلَيْهَا بِالْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا، دُونَ غَيْرِهِمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ الْجَامِعِينَ لِأَضْدَادِهَا مِنَ الْإِيمَانِ بِالطَّاغُوتِ، وَالشِّرْكِ بِاللهِ، وَالْكُفْرِ بِمَا جَاءَ بِهِ رَسُولُهُ، الَّذِينَ دَنَّسُوا مَسْجِدَهُ[2]، وقوله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[التوبة: 19]، هذه الآيات مكملة لما قبلها مبينة أن عمارة المسجد الحرام للمسلمين دون المشركين، وأن إسلامهم أفضل مما كان يفخر به المشركون من عمارة المسجد الحرام وسقاية الحاج فيه [3]، وبيّن الله تعالى هنا أن العبادة لله لا تكون إلا بمسجد بني بنية خالصة لله، قال تعالى في ذلك: ﴿لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ * أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ عَلى تَقْوى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ عَلى شَفا جُرُفٍ هارٍ فَانْهارَ بِهِ فِي نارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[التوبة: 109/108]، أي: لا تصل في مسجد الضرار الذي بناه المنافقون أبدا فهو لم يبن على أساس التقوى؛ فالمسجد الذي بني على الطاعة وبناه المتقون منذ أول يوم، والمؤسس بنيانه متقيا يخاف الله ويرجو رضوانه خير من المؤسس بنيانه غير متق، وقيل إن المسجد الذي ﴿أُسِّسَ عَلَى التَّقْوى﴾ هو مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة الذي فيه منبره وقبره، وقيل هو مسجد قباء، وقيل أنه كل مسجد بني في

(1) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج7، ص 89– 90، وانظر: الواحدي، أسباب نزول القرآن، باب رقم 238 ، ص 246

(2) رضا، محمد رشيد، المنار، ج10، ص 188.

(3) المراغي، تفسير المراغي، ج10، ص 76.

المدينة[1] ، وقد بيّن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فضل بناء وعمارة المساجد بنية خالصة لوجه الله تعالى في أحاديث كثيرة منها: ما رواه عثمان بن عفان، يقول عند قول الناس فيه حين بنى مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم: إنكم أكثرتم، وإني سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "من بنى مسجداً– قال بكير: حسبت أنه قال: يبتغي به وجه الله –بنى الله له مثله في الجنة"[2]، نسأل الله تعالى أن نكون من أهل الفردوس الأعلى من الجنة.

ومن البشارات لأهل المساجد أيضاً؛ أن الله يحبهم، قال تعالى: ﴿فِيهِ رِجالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ والتطهر يشمل الطهارتين النفسية والبدنية، ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ أي الذين يبالغون في طهارة الروح والجسد لحبهم إياهما، لأنهم يرون فيهما الكمال الإنساني، فمن ثم يبغضون نجاسة البدن والثوب، وأشد منهما بغضا لهم نجاسة النفس وخبثها بالإصرار على فعل المعاصي ويبغضون التخلق بذميم الأخلاق كالرياء في الأعمال إذ هو فعل المنافقين، ويبغضون الشح بالأموال أو بالأنفس في سبيل الله ابتغاء لمرضاته... ويظهر أثر حب الله لعباده في أخلاقهم وأعمالهم ومعارفهم وآدابهم [3]

3.1.4 إرسالُ رسول الله محمد –صلى الله عليه وسلم–؛ تأهيل للأمة لقيادة البشرية:

قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِؤُا نُورَ اللَّهِ بِأَفْواهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[التوبة : 32/33].

---

(1) انظر: ابن الجوزي، زاد المسير، ج3، ص 340– 341 .

(2) صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب من بنى مسجداً، حديث رقم 450، ج 1، ص97. أخرجه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل بناء المساجد والحث عليها. وفي الزهد والرقائق باب فضل بناء المساجد ، حديث رقم 533، ج1، ص 378 .

(3) المراغي، تفسير المراغي، ج11، ص27.

يُرِيدُونَ، يعني: اليهود النصارى أَنْ ﴿يُطْفِؤُا نُورَ اللَّهِ بِأَفْواهِهِمْ﴾، يعني: يريدون أن يردوا القرآن تكذيباً بألسنتهم ويقال: يريدون أن يغيروا دين الإسلام بألسنتهم، ويقال: يريدون أن يبطلوا كلمة التوحيد بكلمة الشرك، ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ﴾، يعني: لا يرضى الله ولا يترك إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ، يعني: يظهر دينه الإسلام. وَلَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ فيظهره، ثم قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى﴾ يعني: بالقرآن والتوحيد، ﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ يعني: دين الإسلام ويقال: دين الله، ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ حتى: يظهره بالحجة على الدين كله ويقال: بالقهر والغلبة والرعب في قلوب الكفار، وقيل: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّه﴾ يعني: بعد نزول عيسى عليه السلام لا يبقى أحد إلا ودخل في دين الإسلام، ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[1]، وقيل إن المراد من النور: الدلائل الدالة على صحة نبوته ومنها: المعجزات القاهرة التي ظهرت على يده، وأهمها القرآن العظيم، وأن العقل يدل على أنه لا طريق إلى الله إلا بالانقياد لطاعته، وأن شرعه كان خاليا عن جميع العيوب، كما أن كمال حال الأنبياء صلوات الله عليهم لا تحصل إلا بمجموع أمور أولها: كثرة الدلائل والمعجزات، وهو المراد من قوله: ﴿أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى﴾ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ وثانيها: كون دينه مشتملا على أمور موصوفة بالصواب والصلاح وموافقة المنفعة في الدنيا والآخرة، وهو المراد من قوله: ﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ وثالثها: صيرورة دينه مستعليا على سائر الأديان غالبا عليها، وهو المراد من قوله: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ وظهور الشيء على غيره قد يكون بالحجة، وقد يكون بالكثرة والوفور، وقد يكون بالغلبة[2]، وفيها (بشرى المسلمين بأنهم سيسودون العالم في يوم من الأيام ويصبح الإسلام هو الدين الذي يعبد الله به في الأرض لا غيره، ويشهد لهذا آية ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾[الأنفال: 39]، فلو لم يعلم الله أن ذلك كائن لم يجعله غاية وطالب بالوصول إليها)[3]، ومن هذه السيادة والغلبة الحاصلة ما كان بعد غزوة تبوك إذ كان لها أعظم الأثر في (بسط نفوذ المسلمين وتقويته على جزيرة العرب، فقد تبين للناس أنه ليس لأي قوة من القوات أن تعيش في العرب سوى قوة الإسلام، وبطلت بقايا أمل وأمنية

([1]) السمرقندي، بحر العلوم ، ج2، ص54.

([2]) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، ج 15، ص41 42 .

([3]) الجزائري، أيسر التفاسير، ج2، ص 361.

كانت تتحرك في قلوب بقايا الجاهلين والمنافقين الذين كانوا يتربصون الدوائر بالمسلمين، وكانوا قد عقدوا آمالهم بالرومان، فقد استكانوا بعد هذه الغزوة، واستسلموا للأمر الواقع، الذي لم يجدوا عنه محيداً ولا مناصاً)[1]، ثم بيّن الله تعالى أن إرساله صلى الله عليه وسلم هو رحمة وخير للعالمين يقول تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[التوبة: 61] فقوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: يسمع ما ينزله الله، فيصدقه، ويصدق المؤمنين فيما يخبرونه، أي: إنما يصدق المؤمنين لا المنافقين، وقوله: ﴿وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾ أي: وهو رحمة الله لأنه كان سبب إيمان المؤمنين[2]، (وهو رحمة للذين آمنوا منكم؛ وجعله الله رحمة لمن اتبعه واهتدى بهداه، وصدَّق بما جاء به من عند ربه، لأن الله استنقذهم به من الضلالة، وأورثهم باتِّباعه جنّاته).[3] وفي قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[التوبة: 103]، بعض المزايا والفضائل لرسوله الكريم، منها: وصفه بتطهير المؤمنين وتزكيتهم بما يأخذه منهم من الصدقات، ووصف دعائه للمتصدقين بعد ما ذكر بأنه: ﴿سَكَنٌ لَهُمْ﴾ تطمئن به قلوبهم، وترتاح إليه أنفسهم، ويثقون بقبول الله لصدقاتهم، ونقول: إن كل مؤمن متصدق مخلص يناله حظ من دعائه –صلى الله عليه وسلم– للمتصدقين إلى يوم القيامة، ولكن لم يرد في القرآن ولا في السنة ولا في سيرة الصحابة والتابعين أن النبي – صلى الله عليه وسلم – يطلب منه بعد وفاته الدعاء لأحد.[4] وتختم السورة بآيتين تتحدث إحداهما عن الصلة بين الرسول عليه السلام وقومه، وعن حرصه عليهم ورحمته بهم، ومناسبتها حاضرة في التكاليف التي كلفتها الأمة المؤمنة في مناصرة الرسول ودعوته وقتال أعدائه واحتمال العسرة والضيق، والآية الثانية توجيه لهذا الرسول أن يعتمد على ربه وحده حين يتولى عنه من يتولى، فهو وليه وناصره

([1]) المباركفوري، الرحيق المختوم، ج1، ص 402 .

([2]) الواحدي، الوسيط ، ج2، ص507 .

([3]) الطبري، جامع البيان، ج14، ص 328.

([4]) انظر: رضا، محمد رشيد: المنار، ج11، ص 90.

وكافيه:[1] وختم الله بهذه الآيات وهي مناسبة لأول سورة يونس حيث يقول تعالى: ﴿أَكانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنا إِلى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قالَ الْكافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَساحِرٌ مُبِينٌ﴾[يونس: 2][2]، فيقول تعالى: ﴿لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ * فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾[التوبة: 128/ 129] وهذه الآية العظيمة فيها بيان فضل الله تعالى على أمة الإسلام برسول الله – صلى الله عليه وسلم –، وبيان فضله صلى الله عليه وسلم للأمة جميعها، وفيها (أنه تعالى لما أمر رسوله عليه السلام أن يبلغ في هذه السورة إلى الخلق تكاليف شاقة شديدة صعبة يعسر تحملها، إلا لمن خصه الله تعالى بوجوه التوفيق والكرامة، ختم السورة بما يوجب سهولة تحمل تلك التكاليف، وهو أن هذا الرسول منكم، فكل ما يحصل له من العز والشرف في الدنيا فهو عائد إليكم، فهو كالطبيب المشفق، والأب الرحيم في حقكم)[3]، وهو من يدير أزماتنا ويحل مشاكلنا بحكمته وحنكته عليه السلام، وقد جاء في الحديث في فضله صلى الله عليه وسلم، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع وأول مشفع»[4] (فهو الذي يفزع إليه في النوائب والشدائد فيقوم بأمرهم ويتحمل عنهم مكارههم ويدفعها عنهم وأما قوله صلى الله عليه وسلم "يوم القيامة" مع أنه سيدهم في الدنيا والآخرة فسبب التقييد: أن في يوم القيامة يظهر سؤدده لكل أحد ولا يبقى مناع ولا معاند ونحوه بخلاف الدنيا فقد نازعه ذلك فيها ملوك الكفار وزعماء المشركين... وهذا الحديث دليل لتفضيله صلى الله عليه

([1]) قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج3 ، ص 1742.

([2]) انظر: طنطاوي جوهري، الجواهر في تفسير القرآن، ج 5، ص 187 .

([3]) الرازي، مفاتيح الغيب، ج15 ، ص 241 .

([4]) مسلم، صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب تفضيل نبينا صلى الله عليه وسلم على جميع الخلائق ، حديث رقم(2278)، ج 4، ص 1782 .

وسلم على الخلق كلهم)[1]، وفي هذه الآية وصف الرسول عليه الصلاة والسلام بخمسة أنواع من الصفات، الصِّفَةُ الْأُولَى: قَوْلُهُ: ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ وَفِي تَفْسِيرِهِ وُجُوهٌ: يُرِيدُ أَنَّهُ بَشَرٌ مُثْلُكُمْ أو أنه مِنَ الْعَرَبِ، أي: كل ما يحصل له من الدولة والرفعة في الدنيا فهو سبب لعزكم ولفخركم، لأنه منكم ومن نسبكم، أو التنبيه على طهارته، كأنه قيل: هو من عشيرتكم تعرفونه بالصدق والأمانة والعفاف والصيانة، وتعرفون كونه حريصا على دفع الآفات عنكم وإيصال الخيرات إليكم، وإرسال من هذه حالته وصفته يكون من أعظم نعم الله عليكم، الصفة الثانية: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ العزيز هو الغالب الشديد، وأما العنت مشقة وشدة لا يمكنه الخروج منها، وَالْمَعْنَى: يشق عليه مكروهكم، وأولى المكاره بالدفع مكروه عقاب الله تعالى، وهو إنما أرسل ليدفع هذا المكروه، والصفة الثالثة: قوله: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾؛ حريص على إيصال الخيرات إليكم في الدنيا والآخرة، والصفة الرابعة والخامسة: أن قوله: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ يفيد الحصر بمعنى أنه لا رأفة ولا رحمة له إلا بالمؤمنين؛ فأما الكافرون فليس له عليهم رأفة ورحمة[2]، وقوله تعالى: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ الرؤوف: المبالغ في الرأفة والشفقة، وقيل: لم يجمع الله لأحد من الأنبياء اسمين من أسمائه إلا للنبي محمد-صلى الله عليه وسلم-؛ فإنه قال: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحج: 65].[3] فَإِنْ تَوَلَّوْا عن الإيمان بك ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ فإنه يكفيك معرتهم ويعينك عليهم، ﴿لاَ إِلهَ إِلَّا هُوَ﴾ كالدليل عليه ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ فلا أرجو ولا أخاف إلا منه، ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ و الْعَرْشِ الْعَظِيمِ هو: الملك العظيم، أو الجسم العظيم المحيط الذي تنزل منه الأحكام والمقادير،[4] وكان الله تعالى قد طمئن رسوله الكريم والمؤمنين وبيّن لهم أهمية التوكل في آية سابقة ، مبشراً رسوله الكريم والمؤمنين و (مخاطباً نبيّه محمدًا -صلى الله عليه وسلم-، ومؤدِّبًا له فيقول: ﴿قُلْ لَنْ

---

(1) النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ، كتاب الفضائل، (باب تفضيل نبينا صلى الله عليه وسلم على جميع الخلائق)، حديث رقم(2278) ، ج 15، ص 37 .

(2) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ج15، ص 241- 242.

(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج 8، 302.

(4) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج3، ص 103.

يُصِيبَنَا إلا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: 51] أي ﴿قُلْ﴾، يا محمد، لهؤلاء المنافقين الذين تخلفوا عنك: ﴿لَنْ يُصِيبَنَا﴾، أيها المرتابون في دينهم ﴿إلا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾، في اللوح المحفوظ، وقضاه علينا ﴿هُوَ مَوْلانَا﴾، يقول: هو ناصرنا على أعدائه ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[1]، وفي هذا المعنى من الاتكال على الله والرضا بحكم الله ورسوله، وبما أعطاهم الله من فضله ثم بفضل رسوله الكريم، قال تعالى في المنافقين : ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْها رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْها إِذا هُمْ يَسْخَطُونَ* وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ راغِبُونَ﴾ [التوبة: 58 /59] ، أي لو أنهم رضوا ما أصابهم به الرسول من الغنيمة وطابت به نفوسهم وإن قلّ نصيبهم وقالوا كفانا فضل الله وصنعه، وحسبنا ما قسم لنا سيرزقنا الله غنيمة أخرى فيؤتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر مما آتانا اليوم ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ﴾ في أن يغنمنا ويخولنا فضله لراغبون[2]، وفي المنافقين قال تعالى أيضاً مبيناً أنهم هم يسبونه ويسيئون التعامل معه، مع أن الله رزقهم الأموال والخيرات بفضله، ثم بفضل رسول الله ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قالُوا وَلَقَدْ قالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَهَمُّوا بِما لَمْ يَنالُوا وَما نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْناهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَما لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾ [التوبة:74]، ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾ لما بلغ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن المنافقين يسيئون فيه القول، ويطعنون فيه وفي القرآن، أنكر عليهم، فحلفوا: ما قالوا، فكذبهم الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾ يعني سبهم الرسولَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وطعنهم في الدين، وقوله: ﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ يعني: أنهم هموا أن يفتكوا بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليلا في مسيره في غزوة تبوك، فاعلمه الله ذلك، فأمر من نحاهم عن طريقه، وقوله: ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ يريد: مما كانوا غنموا حتى صارت لهم العقد والأموال، وكانوا قبل قدوم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ضنك من عيشهم، لا

(1) الطبري، جامع البيان، ج14 ، ص 290 .

(2) الزمخشري، الكشاف، ج2 ، ص 197.

يركبون الخيل، ولا يحوزون الغنيمة، فلما قدم عليهم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ استغنوا بالغنائم.[1]

2.4 مبشرات سورة التوبة للمؤمنين في الآخرة:

لقد كان المؤمنون يستبشرون بسور القرآن كلها ويفرحون لما يجدوا من ثواب وأثر ذلك في أعمالهم في الدنيا والآخرة ،[2] يقول تعالى : ﴿وَإِذا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زادَتْهُ هذِهِ إِيماناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزادَتْهُمْ إِيماناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾[التوبة: 124] و «يستبشر» أي: يملأ السرور بشرته، فترى البريق، والفرحة، والانبساط، وكلها من علامات الاستبشار، ومن يستبشر بآية من آيات الحق فهو الذي يفهم من الآية شيئاً جديداً؛ يدخل على نفسه السرور؛ ولذلك فهو يرتاح لنزول تكليفات إيمانية جديدة، ليعظم ويزداد ثوابه، [3]ومن هذه البشائر والتي هي أثر لأعمالهم في الدنيا احتوى هذا المبحث ثلاثة مطالب :

المطلب الأول: العمل عبادة ، والرسول والمؤمنون شهداء على الناس.

المطلب الثاني: البشارة بالفوز العظيم .

المطلب الثالث: بشارة أهل البيعة.

1.2.4 العمل عبادة ، والرسول والمؤمنون شهداء على الناس:

ارتبطت الآيات التي تذكر الإيمان بالله تعالى بالعمل الصالح، الذي لا يقتصر على العبادات؛ وإنما في كل عمل يؤدى فهو عبادة، يكون عليها الأجر والثواب، سواء كان فردياً أو جماعياً ، وبهذا المفهوم يقف الكيان المسلم محارباً الاتجاهات غير الإنتاجية والكسل والتراخي، فكما أن العمل عبادة فهو سبيل للمغفرة يقول تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[المائدة: 9][4]، أي:

([1]) الواحدي، الوسيط، ج2، ص 512.

([2]) انظر: رضا، محمد رشيد، المنار، ج11، ص 67.

([3]) الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج9، ص 5593.

([4]) شقرة ، نحو أنموذج اسلامي لإدارة الأزمات ، ص 76-77 .

الأعمال الصالحات التي يصلح بها أمر العباد في أنفسهم، وفي روابطهم، ومرافقهم الاجتماعية، ومعنى المغفرة: أن إيمانهم وعملهم الصالح يستر أو يمحو من نفوسهم ما كان فيها من سوء تأثير الأعمال السابقة، فيغلب فيها حب الحق والخير، وتكون صالحة لجوار الله تعالى. والأجر العظيم: هو الجزاء على الإيمان والعمل، المضاعف بفضل الله ورحمته أضعافا كثيرة(1)، وفي السورة نداء للمؤمنين، لأهل التوبة والتزكية والصلاة، بأن لا يكتفوا بها بل يعْمَلُوا جميع ما يؤمرون به؛ فيزيدكم قرباً على قرب، وَرَسُولُهُ يزيدكم صلوات، وَالْمُؤْمِنُونَ فيتبعونكم، فيحصل لكم أجرهم، من غير أن ينقص من أجورهم شيء. (2)

يقول تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلى عالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[التوبة: 94] (وهذه الآية حث على العمل النافع للدنيا والآخرة، وإنما ذكر المؤمنون هنا بعد ذكر الله ورسوله لتذكير العاملين بأن الله يرى أعمالهم وهو الذي يجازيهم عليها، فيجب عليهم الإحسان والإخلاص له، والوقوف عند حدود شرعه فيها، وبأن رسوله يراها ويعاملهم بمقتضاها، وهذا خاص بحال حياته -صلى الله عليه وسلم- وهو الشهيد عليهم فيها عند الله تعالى ليتحروا أن يشهد لهم لا عليهم- ثم لتذكيرهم بأن المؤمنين يرونها فينبغي لهم أن يتبعوا فيها سبيلهم ويتحروا فيها ما يوافق المصلحة العامة التي يشتركون فيها، وجماعة المؤمنين شهداء بعضهم على بعض، وشهادتهم مقبولة عند الله تعالى).(3)

وقال أيضاً ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[التوبة: 105] ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: وقل لهم أيها الرسول اعملوا لدنياكم وآخرتكم، لأنفسكم وأمتكم، فالعمل هو مناط السعادة، لا الاعتذار عن التقصير ولا دعوى الجدّ والتشمير، وسيرى الله عملكم خيرا كان أو شرا، فيجب عليكم أن تراقبوه في أعمالكم وتتذكروا أنه

---

(1) رضا، محمد رشيد، المنار، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1990م، ج6، ص 228.

(2) انظر: القاسمي، محاسن التأويل، ج5، ص497.

(3) رضا، محمد رشيد، المنار، ج11، ص87.

عليم بمقاصدكم ونياتكم، فجدير بمن يؤمن به أن يتقيه في السر والعلن ويقف عند حدود شرعه، وسيراه رسوله والمؤمنون ويزنونه بميزان الإيمان الذي يفرق بين الإخلاص والنفاق، وهم شهداء على الناس.[1] (وفيه ترغيب عظيم للمطيعين، وترهيب عظيم للمذنبين، فكأنه تعالى قال: اجتهدوا في المستقبل، فإن لعملكم في الدنيا حكما وفي الآخرة حكما، أما حكمه في الدنيا فهو أنه يراه الله ويراه الرسول ويراه المسلمون، فإن كان طاعة حصل منه الثناء العظيم والثواب العظيم في الدنيا والآخرة، وإن كان معصية حصل منه الذم العظيم في الدنيا والعقاب الشديد في الآخرة، فثبت أن هذه اللفظة الواحدة جامعة لجميع ما يحتاج المرء إليه في دينه ودنياه ومعاشه ومعاده.[2]

2.2.4 البشارة بالفوز العظيم:

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهاجَرُوا وَجاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولئِكَ هُمُ **الْفائِزُونَ** * يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ﴾[التوبة: 21/20].

ذكر الله تعالى (الإيمان والهجرة والجهاد بالمال والنفس، وحكم أن أهل هذه الخصال ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾ من جميع الخلق، ثم حكم لهم بالفوز برحمته ورضوانه، والفوز بلوغ البغية إما في نيل رغبته أو نجاة من مهلكة).[3]

إنّ الجنة ونعيمها ورضوان الله المذكور في كتاب الله هو الفوز العظيم، والفوز هو السلامة من المرهوب والظفر بالمرغوب؛ هذا الوعد الإلهي الصادق للمؤمنين والمؤمنات يقابله وعيد الله تعالى للمنافقين والكفار[4] فعندما قَالَ تَعَالَى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ [التوبة: 67] إلَخْ ، قال بعد أربع آيات: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ

([1]) المراغي، تفسير المراغي، ج11، ص20.

([2]) الرازي، مفاتيح الغيب، ج 15، ص 192 .

([3]) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج3، ص 17.

([4]) انظر: الجزائري، أيسر التفاسير، ج 2، ص 397 .

وَرَسُولَهُ﴾(التوبة: 71) فالآيات كلها تقرن الولاية بين كل فريق بالعمل الاختياري، وقد قدم في الآية الأخيرة العمل المتعلق بالأمور الاجتماعية، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، على العمل الشخصي حتى إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة؛ لأنه هو المناسب لمقام التعاون والتناصر[1]، ثمّ أنه تعالى لما بالغ في وصف المنافقين بالأعمال الفاسدة والأفعال الخبيثة، ثم ذكر عقيبه أنواع الوعيد في حقهم في الدنيا والآخرة، ذكر بعده في هذه الآية كون المؤمنين موصوفين بصفات الخير وأعمال البر، على ضد صفات المنافقين، ثم ذكر بعده في هذه الآية أنواع ما أعد الله لهم من الثواب الدائم والنعيم المقيم، فلما وصف المؤمنين بكون بعضهم أولياء بعض، ذكر بعده ما يجري مجرى التفسير والشرح له فقال: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فذكر هذه الأمور الخمسة التي بها يتميز المؤمن من المنافق[2] فقوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[التوبة: 72/71]، ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ﴾ الولاية ضد العداوة، وتشمل ولاية النصرة وولاية الأخوة والمودة، ونصرة النساء تكون فيما دون القتال من الأعمال المتعلقة بتعبئة الجيوش من الأمور المالية والبدنية، وكان نساء النبي صلى الله عليه وسلم ونساء أصحابه يخرجن مع الجيش يسقين الماء ويجهزن الطعام ويحرضن على القتال[3] (ويتبادل المؤمنون والمؤمنات المحبة والنصرة طبقاً للتعاقد الإيماني بينهم وبين الحق سبحانه وتعالى، ويأمر بعضهم بعضاً بأوامر المنهج، وينهى بعضهم بعضاً عن المحظورات التي حرمها الله ويتواصلون مع الحق بإقامة الصلاة، ويؤدون حق الله في مالهم بالزكاة، ويطيعون الله ويمتثلون أوامر رسوله، وهم بذلك ينالون وعد الله الحق بالرحمة، وهو سبحانه القادر على رعايتهم،

([1]) رضا، محمد رشيد، المنار، ج8، ص 89.

([2]) الرازي، مفاتيح الغيب، ج16، ص 100.

([3]) المراغي، تفسير المراغي، ج 10، ص 159.

وهو حكيم في صيانتهم، عزيز لا يغلبه أحد، [1] ثم (وعد الله الذين صدقوا الله ورسوله، وأقرُّوا به وبما جاء به من عند الله، من الرجال والنساء ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، يقول: بساتين تجري تحت أشجارها الأنهار، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾، يقول: لابثين فيها أبدًا، مقيمين لا يزول عنهم نعيمها ولا يبيد، ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً﴾، يقول: ومنازل يسكنونها طيبةً.[2] وقيل إن المقصود بقوله تعالى: ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ أن في معنى المساكن وجهان: أحدهما: أن المساكن الطيبة قصور من اللؤلؤ والياقوت الأحمر والزبرجد الأخضر مبنية بهذه الجواهر، والثاني: أنها المساكن التي يطيب العيش فيها،[3] و"عَدَنٌ" أَعْلَى دَرَجَةٍ فِي الْجَنَّةِ، وَفِيهَا عَيْنُ التَّسْنِيمِ، وَالْجِنَانُ حَوْلَهَا، مُحْدِقَةٌ بِهَا، وَهِيَ مُغَطَّاةٌ مِنْ حِينِ خَلَقَهَا اللَّهُ تَعَالَى حَتَّى يَنْزِلَهَا أَهْلُهَا: الْأَنْبِيَاءُ وَالصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ وَالصَّالِحُونَ، وَمَنْ شَاءَ اللَّهُ، وَفِيهَا قُصُورُ الدُّرِّ وَالْيَوَاقِيتُ وَالذَّهَبُ، فَتَهُبُّ رِيحٌ طَيِّبَةٌ مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ فَتَدْخُلُ عَلَيْهِمْ كُثْبَانُ الْمِسْكِ الْأَذْفَرِ الْأَبْيَضِ، ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أَيْ: رِضَا اللَّهِ عَنْهُمْ أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ، ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}[4]، وفي هذا المعنى: ورد عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن الله تبارك وتعالى يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة؟ فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك، فيقول: أنا أعطيكم أفضل من ذلك، قالوا: يا رب، وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبداً".[5]

([1]) الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج6، ص3526.

([2]) الطبري، جامع البيان، ج 14، ص 348.

([3]) انظر: الماوردي، النكت والعيون، ج2 ، ص 381.

([4]) البغوي، معالم التنزيل، ج4، ص 73.

([5]) أخرجه البخاري في التوحيد، باب كلام الرب مع أهل الجنة: حديث رقم 7518، ج9، ص151، وصحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، حديث رقم 6549، ج8، ص 114 ، وأخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب إحلال الرضوان على أهل الجنة فلا يسخط عليهم، رقم (2829)، ج 4، ص 2176.

ويقول تعالى أيضاً: ﴿لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ* أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[التوبة: 89/88] والمقصود أنه تعالى لما شرح حال المنافقين في الفرار عن الجهاد؛ بين أن حال الرسول والذين آمنوا معه بالضد منه، حيث بذلوا المال والنفس في طلب رضوان الله والتقرب إليه، وفيه فائدة، وهي: أنه إن تخلف هؤلاء المنافقون عن الغزو، فقد توجه إليه من هو خير منهم، وأخلص نية واعتقاداً، ولما وصفهم بالمسارعة إلى الجهاد ذكر ما حصل لهم من الفوائد والمنافع، وهو أنواع: أولها: قوله: ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْراتُ﴾، ولَفْظَ ﴿الْخَيْرَاتِ﴾، يتناول منافع الدارين، وقيل: ﴿الْخَيْرَاتِ﴾ الحور وقوله:﴿وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ فَقَوْلُهُ:﴿لَهُمُ الْخَيْراتُ﴾ المراد منه الثواب. وقوله: ﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ المراد منه التخلص من العقاب والعذاب. وثالثها: قوله: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها﴾، ويحتمل أن تحمل تلك الخيرات والفلاح على منافع الدنيا، مثل الغزو، والكرامة، والثروة، والقدرة، والغلبة، وتحمل الجنات على ثواب الآخرة والفوز.[1]

ويقول تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[التوبة: 100/99] فقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ﴾[التوبة: 99] يتقرب بإنفاقه إلى الله، ﴿وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾ يعني: دعاءه بالخير والبركة، وقيل: يرغبون في دعاء النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ﴾ أي: نور لهم ومكرمة عند الله، والقربة: ما يدني من رحمة الله، ﴿سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ في جنته، ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لذنوبهم، ﴿رَحِيمٌ﴾ بأوليائه وأهل طاعته[2]، ولما بين تعالى فضائل الأعراب المؤمنين المتصدقين، وما أعد لهم من النعيم، بين حال هؤلاء السابقين وما أعد لهم، وشتان ما

([1]) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ج 15، ص 161 .

([2]) الواحدي، الوسيط ، ج2، ص 519.

بين الإعدادين والثناءين، هناك قال: ﴿أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾ وهنا ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾، وهناك ﴿سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِى رَحْمَتِهِ﴾ وهنا ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي﴾ وهناك ختم ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وهنا ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾. [1]

3.2.4 بشارة أهل البيعة:

لقد باع المؤمن لله في تلك الصفقة نفسه وماله مقابل ثمن محدد معلوم، هو الجنة: وهو ثمن لا تعدله السلعة، ولكنه فضل الله ومَنَّه: والذين باعوا هذه البيعة، وعقدوا هذه الصفقة هم صفوة مختارة، ذات صفات مميزة.. منها ما يختص بذوات أنفسهم في تعاملها المباشر مع الله في الشعور والشعائر ومنها ما يختص بتكاليف هذه البيعة في أعناقهم من العمل خارج ذواتهم لتحقيق دين الله في الأرض من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والقيام على حدود الله في أنفسهم وفي سواهم ، والذين عقدوا هذه الصفقة هم أصحاب الجنة، والذين لم يعقدوها هم أصحاب الجحيم، ولا لقاء في دنيا ولا في آخرة بين أصحاب الجنة وأصحاب الجحيم. [2]

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ *التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآَمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة : 112/111]. فسبحانه قال: ﴿إِنَّ الله اشترى مِنَ المؤمنين أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الجنة﴾[التوبة: 111]، إنه شراء وبيع، وأيضاً قال سبحانه في الصفقة الإيمانية: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ على تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[الصف: 10]؛ إذن فالله يعاملنا بملحظ النفعية الإنسانية، واللبق، الفطن، الذكي هو الذي يتاجر في الصفقة الرابحة أو المضمونة أو التي تكون جدواها والفائدة منها أكثر من سواها[3]، وهذه البيعة العظيمة، كما رُوي أنها بيعة العقبة (الثانية)

([1]) أبو حيان، البحر المحيط، ج5، ص96.

([2]) قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج3 ، ص 1714.

([3]) الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج4، ص 2429.

الكبرى: فلما بايعت الأنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم، ليلة العقبة بمكة، وهم سبعون نفسا– قال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله اشترط لربك ولنفسك ما شئت، فقال: أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم، قالوا: فإذا فعلنا ذلك فماذا لنا؟ قال: الجنة، قالوا: ربح البيع، لا نقيل ولا نستقيل، فنزلت هذه الآية. [1]

فقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ يخبر تعالى هنا أنه عاوض عباده المؤمنين عن أنفسهم وأموالهم إذ بذلوها في سبيله بالجنة، وهذا من فضله وكرمه وإحسانه، فإنه قبل العوض عما يملكه بما تفضل به على عبيده المطيعين له، وقوله: ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ أي سواء قُتلوا أو قَتلوا، أو اجتمع لهم هذا وهذا فقد وجبت لهم الجنة، ولهذا جاء في الصحيحين« تكفل الله لمن جاهد في سبيله، لا يخرجه إلا الجهاد في سبيله، وتصديق كلماته بأن يدخله الجنة، أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه، مع ما نال من أجر أو غنيمة »[2]، وقوله: ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾ أي: وتأكيد لهذا الوعد وإخبار بأنه قد كتبه على نفسه الكريمة وأنزله على رسله الكرام في كتبه الكبار، وهي التوراة، والإنجيل، والقرآن[3]، وقيل: فيه دليل على أن أهل الملل كلهم أمروا بالجهاد على ثواب الجنة[4]، والآية عامة في كل من جاهد في سبيل الله من أمة محمد– صلى الله عليه وسلم– إلى يوم القيامة[5]، وقوله: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ في هذا من تأكيد الترغيب للمجاهدين في الجهاد، والتنشيط لهم على بذل الأنفس

([1]) انظر: الواحدي، أسباب النزول، حديث رقم 529، ص 266 ، وانظر أبو حيان، البحر المحيط، ج5، ص 105 .

([2]) صحيح البخاري، كتاب فرض الخمس، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: «أحلت لكم الغنائم»، حديث رقم 3123 ، ج4، ص 85 ، وأخرجه مسلم في صحيحه كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله، حديث رقم 1876 ، ج 3، ص 1496 .

([3]) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج 2، ص 430 .

([4]) البغوي، معالم التنزيل، ج4، ص 98.

([5]) أبو حيان، البحر المحيط، ج 5 ، ص 105.

والأموال ما لا يخفى، فإنه أولا أخبر بأنه قد اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، وجاء بهذه العبارة الفخيمة، وهي كون الجنة قد صارت ملكا لهم، ثم أخبر ثانيا بأنه قد وعد بذلك في كتبه المنزلة، ثم أخبر بأنه بعد هذا الوعد الصادق لا بد من حصول الموعود به، فإنه لا أحد أوفى بعهده من الله سبحانه، وهو صادق الوعد، لا يخلف الميعاد، ثم زادهم سرورا وحبورا[1]، ﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بايَعْتُمْ بِهِ﴾ فافرحوا به غاية الفرح فإنه أوجب لكم عظائم المطالب كما قال: وَذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ[2]، والفوز هو بلوغ الغاية المأمولة في عرف العقل الواعي، وهناك «فوز» ، وهناك «فوز عظيم» والفوز في الدنيا أن يتمتع الإنسان بالصحة والمال وراحة البال، وهناك فوز أعظم من هذا؛ أن تضمن أن النعمة التي تفوز بها لا تفارقك ولا أنت تفارقها، فيكون هذا هو الفوز الذي لا فوز أعظم منه، إنه الفوز بالجنة [3]، ثم وصف الله– تعالى– هؤلاء المؤمنين الصادقين بجملة من الأوصاف الكريمة، فقال:

﴿التَّائِبُونَ﴾ أَيْ: هم التَّائبون من الشِّرك ﴿الْعَابِدُونَ﴾ يرون عبادة الله واجبةً عليهم ﴿الْحَامِدُونَ﴾ الله على كلِّ حال ﴿السَّائِحُونَ﴾ الصَّائمون ﴿الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ﴾ في الفرائض ﴿الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ بالإيمان بالله وفرائضه وحدوده ﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ الشِّرك وترك فرائض الله ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ العاملون بما افترض الله عليهم[4]، وقال ابن عباس: «الحدود الطاعة»[5]، ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فيه وجهان: أحدهما: يعني المصدقين بما وعد الله تعالى في هذه الآيات، والثاني: العاملين بما ندب الله إليه في هذه الآيات[6]، وقد بدأ الله تعالى هذه الصفات بالتوبة، وهي اسم من أسماء السورة الكريمة المشهورة بها، والتائبون من الكفر على الحقيقة هم الجامعون لهذه الخصال، والتوبة إنما تحصل عند حصول أمور أربعة: أولها: احتراق القلب في

---

(1) الشوكاني، فتح القدير، ج1 ، ص 601 .

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج3، ص 99.

(3) انظر: الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج9، ص 5521.

(4) الواحدي، الوجيز، ص 483 .

(5) صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الجهاد والسير، ج4، ص 14 .

(6) الماوردي، النكت والعيون، ج2، ص 408.

الحال على صدور المعصية عنه، وثانيها: ندمه على ما مضى، وثالثها: عزمه على الترك في المستقبل، ورابعها: أن يكون الحامل له على هذه الأمور الثلاثة طلب رضوان الله تعالى وعبوديته، فإن كان غرضه منها دفع مذمة الناس وتحصيل مدحهم أو سائر الأغراض، فهو ليس من التائبين.(1) وسميت التوبة بهذا الاسم العظيم لتناولها موضوع التوبة من أول السورة، التي رغَّبَ الله جل في علاه عباده فيها، ولم يفقدهم الأمل في التوبة، ففي الآية الثالثة من السورة قال الله تعالى: ﴿فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُم..﴾[التوبة:3] قالها للذين تبرأ منهم وهم المشركون، ويختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ اللّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[التوبة:118]، ليظهر المقصد العظيم من عِظَمِ اسمه التواب، وعظيم اسمه الرحيم(2)، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[التوبة: 104](هذه هي عظمة الخالق، الرحمن الرحيم، فهو يفتح الباب دائماً لعباده؛ لأنه هو خالق هذا الكون، وكل من عصى يفتح الله أمامه باب التوبة، وهذه مسألة منطقية؛ لأن الذي يكفر والذي يعصي لا يضر الله شيئاً، ولكنه يؤذي نفسه ويحاول أن يفتري على نواميس الحق، وحين يعلم العاصي أنه لا ملجأ له إلا الله، فالله عَزَّ وَجَلَّ يفتح له باب التوبة)(3) (وهذا شأنه سبحانه، في صيغة المبالغة في التواب وفي الرحيم مع توسيط ضمير الفصل، والتأكيد من التبشير لعباده، والترغيب لهم، ما لا يخفى)(4) وظهر ذلك المعنى من التوبة في نهاية السورة بكل وضوح في: التوبة العامة والخاصة، قال الله سبحانه مبينا فضله على أهل التوبة: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ * وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ

(1) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ج 15، ص 208 .

(2) انظر: القاسمي، محاسن التأويل، ج5، ص342، وقد تكلمت عن موضوع التوبة في الفصل الأول من البحث .

(3) الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج 8، ص5008.

(4) الشوكاني، فتح القدير، ج1 ، ص 596 .

الرَّحِيمُ﴾[التوبة: 117 /118] كان من فضل الله ورحمته وإحسانه أن تاب توبة عامة في نهاية السورة على أناس كثيرين من صحابة رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وتوبة خاصة على عدد قليل منهم، أما أهل التوبة العامة فهم الذين جاهدوا مع رسول الله صلّى الله عليه وسلم من المهاجرين والأنصار في غزوة تبوك، وأما أهل التوبة الخاصة فهم نفر ثلاثة، صدقوا توبتهم مع الله وعلموا علم اليقين أن مصيرهم إلى الله، فلابد من حسن الاعتقاد والعمل، وصدق الاتجاه إلى الله تعالى.(1)

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ تابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ﴾، يعني: تجاوز الله عن النبي إذنه للمنافقين بالتخلف، كقوله: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾[التوبة: 43] ويقال: ﴿لَقَدْ تابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ﴾ يعني: غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، كما ذكر في أول سورة الفتح، في قوله تعالى ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِراطاً مُسْتَقِيماً﴾[الفتح: 2](2)، وجاء في سبب نزولها ما أخرجه البخاري عن عبد الله بن كعب بن مالك، وكان قائد كعب بن مالك، قال: سمعت كعب بن مالك، يحدث حين تخلف عن قصة تبوك "فو الله ما أعلم أحدا أبلاه الله في صدق الحديث أحسن مما أبلاني، ما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يومي هذا كذبا، وأنزل الله عز وجل على رسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالمُهَاجِرِينَ، وَالأَنْصَارِ﴾ [التوبة: 117] إِلَى قَوْلِهِ ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: 119] "(3)

3.4 البشائر الربانية بعد الأزمات بين سورتي التوبة والفتح:

إن البشائر الربانية لصفوة الله من خلقه متعددة ومتنوعة، ويتشابه الكثير منها في كتاب الله، أثناء وبعد الأزمات لبث روح الأمل والتفاؤل في نفوس الأمة، وتتشابه

---

(1) انظر: الزحيلي، الوسيط، ج1، ص 925.

(2) السمرقندي، بحر العلوم، ج2، ص 93.

(3) البخاري، صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾[التوبة: 119]، حديث رقم 4678، ج 6، ص 71 .

البشائر الربانية بين سورة التوبة وغيرها من السور القرآنية، ومنها سورة الفتح أنموذجاً لذلك.

ولقد جاء موضوع سورة التوبة في بدايتها بقطع العصمة والبراءة مع من نقض العهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهمها نقض العهد الذي كان في الحديبية[1]، كما أن سورة التوبة نزلت بعد سورة الفتح[2] ولكن سورة الفتح أنزلت على النبي –صلى الله عليه وسلم– عند رجوعه من الحديبية نزلت وأصحابه مخالطون الحزن والكآبة، وقد حيل بينهم وبين نسكهم ونحروا الهدي بالحديبية، فلما أنزلت بدايات سورة الفتح قال لأصحابه: "لقد أنزلت علي آية خير من الدنيا جميعها"، فلما تلاها النبي – صلى الله عليه وسلم– قال رجل من القوم: هنيئا مريئا يا رسول الله، قد بين الله لنا ما يفعل بك، فماذا يفعل بنا؟ فأنزل الله تعالى: ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ﴾ الآية. [3] وقد تشابهت البشائر أثناء وبعد الأزمات في هذا العهد إلى حد كبير في ضوء السورتين "وهي سنة الله تعالى في ذكر البشائر الربانية لعباده المؤمنين دائماً في كتابه الكريم" وقد تضمّن التشابه أمور عدة نجملها في المطالب التالية:

المطلب الأول: النصر في الدنيا ، والفوز العظيم في الآخرة .

المطلب الثاني: ثمار بيعة الرضوان .

المطلب الثالث ، بشارات رسول الله – صلى الله عليه وسلم – والجماعة الصالحة.

1.3.4 النصر في الدنيا ، والفوز العظيم في الآخرة :

لقد علم الله تعالى ما في قلوب المؤمنين من الحزن بعد صلح الحديبية، وما في قلوب الكافرين من الفرح فأنزل الله هذه الآيات وما فيها من بشائر للمؤمنين[4]، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما

([1]) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 10، ص 104 .

([2]) انظر: السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، ص177.

([3]) انظر: صحيح البخاري، كتاب المغازي ، باب غزوة الحديبية ، حديث رقم 4172 ، ج 5، ص 125، وانظر: الواحدي، أسباب النزول، حديث رقم 749 ، ص 398 .

([4]) انظر: السمرقندي، بحر العلوم، ج3، ص 293.

تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِراطاً مُسْتَقِيماً * وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً * هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدادُوا إِيماناً مَعَ إِيمانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَكانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً * لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَكانَ ذلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً * وَيُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ وَالْمُنافِقاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَساءَتْ مَصِيراً * وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَكانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾[الفتح :1-7]، أي : إنا فتحنا لك فتحا مبينا، لتشكر ربك، وتحمده على ذلك، فيغفر لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر، وليحمد ربهم المؤمنون بالله، ويشكروه على إنعامه عليهم بما أنعم به عليهم من الفتح الذي فتحه، وقضاه بينهم وبين أعدائهم من المشركين، بإظهاره إياهم عليهم، فيدخلهم بذلك جنات تجري من تحتها الأنهار، ماكثين فيها إلى غير نهاية وليكفر عنهم سيئ أعمالهم بالحسنات التي يعملونها شكرا منهم لربهم على ما قضى لهم، وأنعم عليهم به ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ أي: ظفرا منهم بما كانوا تأمّلوه ويسعون له، ونجاة مما كانوا يحذرونه من عذاب الله(1) ولقد بيّن الله توبته على رسول الله في السورتين -كما تقدم-، فقال تعالى في سورة التوبة: ﴿لَقَدْ تابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ﴾[التوبة: 117]، يعني: تجاوز الله عن النبي إذنه للمنافقين بالتخلف، وقال أيضاً: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾[التوبة: 43]، كما ذكر في أول سورة الفتح، في قوله تعالى ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ﴾[الفتح: 2](2)، وقوله تعالى:﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[الفتح:4]، والسكينة وردت في القرآن الكريم ست مرات، ثلاث مرات في سورة الفتح، ومرتان في سورة التوبة(3) وهذه بمعنى (الطمأنينة)،(وكل سكينة في القرآن هي طمأنينة إلا التي في سورة البقرة)(4) إذاً فالسكينة: الطمأنينة والوقار، لئلا تنزعج نفوسهم بما يرد عليهم، وذلك لأنهم يجدون برد اليقين في قلوبهم،﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾[الفتح:4]

(1) الطبري، جامع البيان، ج 22، ص204.
(2) انظر : السمرقندي، بحر العلوم ، ج2، ص 93.
(3) عبد الباقي، محمد فؤاد ، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، ص 353 .
(4) انظر: البغوي، معالم التنزيل : ج7، ص 298.

فازدادوا تصديقًا، وذلك السكينة التي أنزلها الله في قلوبهم، ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[الفتح: 4] يعني: الملائكة، والجن، والإنس، والشياطين ، ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ﴾[الفتح: 6] من أهل المدينة، والمشركين والمشركات من أهل مكة، بأيدي المؤمنين، لأن نصرة الرسول والفتح عليه يقتضي ذلك، ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ [الفتح: 6] وهو أنهم ظنوا أن محمداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يُنصر، ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾[الفتح: 6] أي: العذاب والهلاك يقع بهم،[1] وكان قد تكرر ذلك في قوله تعالى عن الأعراب المنافقين في سورة التوبة ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَماً وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[التوبة: 98] ينتظر أن تنقلب الأمور من النعمة إلى البلية، ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ أي عليهم دائرة الهزيمة والشر، ودائرة العذاب والبلاء.[2] ومن بشائر هذه السورة ونعم الله وفضله على رسوله وعلى المؤمنين في الدنيا والآخرة، قوله تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَها فَعَجَّلَ لَكُمْ هذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِراطاً مُسْتَقِيماً * وَأُخْرى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْها قَدْ أَحاطَ اللَّهُ بِها وَكانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً * وَلَوْ قاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبارَ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً *سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً * وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً﴾[الفتح: 24/23/22/21/20] ﴿وَعَدَكُمُ الله مَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾: أي من الفتوحات الإسلامية التي وصلت الأندلس غرباً)[3]، وقيل (هي ما يُفيؤه على المؤمنينَ إلى يومِ القيامةِ ﴿تَأْخُذُونَهَا﴾ في أوقاتِها المقدرةِ لكلِّ واحدةٍ منها ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هذه﴾ أي غنائمَ خيبرَ ﴿وَكَفَّ أَيْدِىَ الناس عَنْكُمْ﴾ أي أيدِي أهلِ خيبرَ وحلفائِهم، وقذفَ الله في قلوبِهم الرعبَ فنكصُوا، وقوله ﴿وَأُخْرى﴾ ومغانمَ أُخرى ﴿لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا﴾ وهي مغانمُ هوازنَ في غزوةِ حُنينٍ ووصفُها بعدمِ القدرةِ عليها لما كانَ فيها من الجولةِ قبل ذلكَ لزيادةِ ترغيبِهم فيها وقولُه تعالى ﴿قَدْ أَحاطَ اللَّهُ بِها﴾ صفةٌ أُخرى لأُخرى مفيدةٌ لسهولةِ تأتِّيها بالنسبةِ إلى قُدرتِه تعالى بعد بيانِ صعوبةِ

---

(1) انظر: الواحدي، الوسيط ، ج4، ص136.

(2) انظر : القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج 7، ص 234 .

(3) الجزائري، أيسر التفاسير، ج5، ص108.

منالها بالنظرِ إلى قدرتهم أي قد قدَر الله عليها واستولَى وأظهركُم عليها وقيل حفظَها لكُم ومنعها من غيرِكم هذا[1]، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ أي قضى بينهم وبينكم المكافّة والمحاجزة، بعد ما خولكم الظفر عليهم والغلبة؛ إشارة إلى منة الصلح ونعمته في الحديبية، وأن ذلك عناية منه تعالى بما حفظ من أنفسهم وأموالهم، ولطف بهم يومئذ لما ادخر لهم بعده[2]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾[التوبة: 23/22]، وهذه بشارة أخرى من الله لعباده المؤمنين، بنصرهم على أعدائهم الكافرين، وأنهم لو قابلوهم وقاتلوهم ﴿لَوَلَّوُا الأدْبَارَ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ يتولى أمرهم، ﴿وَلا نَصِيرًا﴾ ينصرهم ويعينهم على قتالكم، بل هم مخذولون مغلوبون وهذه سنة الله في الأمم السابقة، أن جند الله هم الغالبون، ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلا﴾.[3]

2.3.4 ثمار بيعة الرضوان :

لقد تضمنت سورة الفتح كرامات لرسول الله صلى الله عليه وسلم فمن قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً﴾ إلى قوله تعالى ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[الفتح: 10/1] تضمنت هذه الآيات من فضله والثناء عليه وكريم منزلته عند الله تعالى ونعمته لديه ما يقصر الوصف عن الانتهاء إليه فابتدأ جل جلاله بإعلامه أن يرفع ذكره في الدنيا وينصره ويغفر له، ثم أعلمه تمام نعمته عليه بخضوع متكبري عدوه له وفتح أهم البلاد عليه وأحبها له ورفع ذكره وهدايته الصراط المستقيم المبلغ الجنة والسعادة ونصره النصر العزيز ومنته على أمته المؤمنين بالسكينة والطمأنينة التي جعلها في قلوبهم وبشارتهم بما لهم عند ربهم بعد وفوزهم العظيم والعفو عنهم، ثم تأكيد لعقد بيعتهم إياه

([1]) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ج8، ص110.

([2]) القاسمي، محاسن التأويل، ج8، ص 501.

([3]) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ج1 ، ص 794.

وعظم شأن المبايع صلى الله عليه وسلم[1]، فيقول تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً * لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً * إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ إِنَّما يُبايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّما يَنْكُثُ عَلى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفى بِما عاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾[الفتح: 10/9/8]، ﴿إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً﴾ على أمتك، وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً على الطاعة هو المعصية ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ الخطاب للنبي صلّى الله عليه وسلم والأمة، أو لهم على أن خطابه منزل منزلة خطابهم، ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ وتقووه بتقوية دينه ورسوله ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ وتعظموه، ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ وتنزهوه أو تصلوا له، ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ غدوة وعشياً أو دائماً[2]، وقد جاء–صلى الله عليه وسلم– ليصل المؤمنين بالله، ويعقد بينهم وبينه بيعة ماضية لا تنقطع بغيبة رسول الله– صلى الله عليه وسلم– عنهم، فهو حين يضع يده في أيديهم مبايعاً، فإنما يبايع عن الله: «إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ إِنَّما يُبايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ»، وهو تصوير رهيب جليل للبيعة بينهم وبين رسول الله– صلى الله عليه وسلم– والواحد منهم يشعر وهو يضع يده في يده، أن يد الله فوق أيديهم؛ فالله حاضر البيعة، والله صاحبها، والله آخذها.[3] وقوله تعالى في البيعة التي في سورة التوبة: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ﴾[التوبة: 111]، وقوله تعالى في البيعة التي في سورة الفتح: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ هي بيعة الرضوان وبيعة الشجرة، وقيل: ليلة العقبة وسماها مبايعة تشبيها بعقد البيع نظيره، و﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الّجَنَّةَ﴾ [التوبة: 111]، ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ أي صفقتهم، إنما يمضيها ويمنح الثمن الله عز

([1]) انظر: اليحصبي أبو الفضل القاضي عياض بن موسى (ت 544هـ)، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، مذيلا بالحاشية المسماة مزيل الخفاء عن ألفاظ الشفاء الشفا بتعريف حقوق المصطفى، الحاشية: أحمد بن محمد بن محمد الشمنى (ت 873هـ)، الناشر: دار الفكر الطباعة والنشر والتوزيع، 1409 هـ– 1988 م، ج1، ص 48– 50.

([2]) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج5، ص 127.

([3]) قطب، سيد، في ظلال القرآن ، ج6، ص 3320 .

وجل[1]، وهكذا شاهدنا بيعتان: بيعة في سورة التوبة، وهذه البيعة، (والبيعتان ثمنها الجنة ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ يا محمد بالحديبية على أن لا يفروا، ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ لأنهم باعوا أنفسهم من الله بالجنة)[2] فقد أخرج البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما: «رجعنا من العام المقبل فما اجتمع منا اثنان على الشجرة التي بايعنا تحتها، كانت رحمة من الله»، فسألت نافعا: على أي شيء بايعهم، على الموت؟ قال: «لا، بل بايعهم على الصبر"[3]، وقوله تعالى:﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ فيها وجهان من التأويل: أحدهما: يد الله فوق أيديهم عند البيعة، لأنهم كانوا يبايعون الله ببيعتهم نبيه – صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم–، والآخر: قوّة الله فوق قوّتهم في نصرة رسوله –صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم–، لأنهم إنما بايعوا رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم على نُصرته على العدو[4]، وهذا الرضوان في هذه البيعة هو الرضوان المذكور في سورة التوبة: فقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: 10]، فإن كون بيعتهم الرسول صلى الله عليه وسلم تعتبر بيعة لله تعالى أومأ إلى أن لهم بتلك المبايعة مكانة رفيعة من خير الدنيا والآخرة، فقد أنال الله المبايعين رضوانه وهو أعظم خير في الدنيا والآخرة قال تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾[التوبة: 72] والشهادة لهم بإخلاص النية، وإنزاله السكينة قلوبهم ووعدهم بثواب فتح قريب ومغانم كثيرة [5]، وقد أشار تعالى إلى تبشير أهل بيعة الرضوان بالظفر والنصر المستمر، لصدق إيمانهم وإخلاصهم في ثباتهم، وإيثارهم مرضاة الله ورسوله على كل محبوب،[6] وذلك في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ

([1]) انظر: النيسابوري، نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري (ت 850هـ)، غرائب القرآن ورغائب الفرقان، المحقق: الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1416 هـ، ج6، ص 164، وانظر: أبو حيان، البحر المحيط في التفسير، ج8، ص92.

([2]) البغوي، معالم التنزيل، ج7، ص 299.

([3]) البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب البيعة في الحرب أن لا يفروا ، وقال بعضهم على الموت، حديث رقم 2958–2961، ج4 ، ص 50 .

([4]) الطبري، جامع البيان ، ج22، ص209– 210.

([5]) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج26، ص 173 .

([6]) القاسمي، محاسن التأويل، ج 8، ص 500.

عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ ما فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً * وَمَغانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَها وَكانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً *وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَها فَعَجَّلَ لَكُمْ هذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِراطاً مُسْتَقِيماً﴾[الفتح: 20/19/18] ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾: هذه بيعة الرضوان، وهي البيعة تحت الشجرة بالحديبية، وسميت بيعة الرضوان لقوله تعالى «لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ...». وكانوا ألفا وخمسمائة وقيل وثلاثمائة وقيل وأربعمائة، وكانوا قصدوا دخول مكة، فلما بلغ ذلك المشركين قابلوهم صادّين لهم عن المسجد الحرام مع أنه لم يكن خارجا لحرب، فقصده المشركون، ثم صالحوه على أن ينصرف هذا العام، ويقيم بها ثلاثا ثم يخرج، وأن يكون بينه وبينهم صلح عشرة أعوام بتداخل فيها الناس ويأمن بعضهم بعضا، وكان النبي عليه السلام قد رأى في منامه أنهم يدخلون المسجد الحرام آمنين، فبشر بذلك أصحابه، فلما صدهم المشركون خامر قلوبهم شيء، وعادت إلى قلوب بعضهم تهمة فسكنت قلوبهم بنزول الآية لأن الله سبحانه علم ما في قلوبهم من الاضطراب والتشكك. فأنزل السكينة في قلوبهم. [1]

3.3.4 بشارات رسول الله- صلى الله عليه وسلم - والجماعة الصالحة:

إن من أهم موضوعات سورة الفتح هو الحديث عن المؤمنين، وحديث مع المؤمنين، مع تلك المجموعة الفريدة السعيدة التي بايعت رسول الله- صلّى الله عليه وسلم- تحت الشجرة، والله حاضر البيعة وشاهدها وموثقها، ويده فوق أيديهم فيها؛ تلك المجموعة التي سمعت الله تعالى يقول عنها لرسوله- صلّى الله عليه وسلم-: «لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ، فَعَلِمَ ما فِي قُلُوبِهِمْ، فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً»[الفتح: 18]، وسمعت رسول الله-صلّى الله عليه وسلم- يقول لها: «أنتم اليوم خير أهل الأرض[2]» ويبشرها بما أعد لها من مغانم كثيرة وفتوح

([1]) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، تهذيب عبد السلام هارون، ص 225- 229، والقشيري، لطائف الإشارات ، ج3 ، ص 426 .

([2]) أخرجه البخاري، صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، حديث رقم 4154، ج 5، ص 123 .

ونصر موصول، وتختم السورة بتلك الصورة الكريمة الوضيئة لهذه الجماعة الفريدة السعيدة من أصحاب رسول الله- صلى الله عليه وسلم- وصفتها في التوراة وصفتها في الإنجيل، ووعد الله لها بالمغفرة والأجر العظيم[1] .

لقد تشابهت البشارات بشأن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وصحابته الكرام في سورتي التوبة والفتح بعد الأزمات والشدائد فقال تعالى في سورة التوبة مبيناً أنه (أرسل رسوله محمدًا - صلى الله عليه وسلم - لبيان فرائض الله على خلقه، وبيان دين الحق، وهو الإسلام ليعلي الإسلام على الملل كلها[2] ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[التوبة: 33] وقال أيضاً في بيان صفات رسوله وأخلاقه العالية: ﴿لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: 128]، وقال عن صحابته الكرام في السورة ، وهم الجماعة التي حرست الإسلام وصانته من الهزات بعد الفتح ، ثم من الهزة الكبرى بعد وفاة رسول الله -صلى الله عليه وسلم - وارتداد الجزيرة عن الإسلام؛ وبالتالي نجاح الدعوة الإسلامية إلى يومنا هذا...[3] ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: 100].

وقال تعالى في سورة الفتح: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخافُونَ فَعَلِمَ ما لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذلِكَ فَتْحاً قَرِيباً *هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفى بِاللَّهِ شَهِيداً * مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ تَراهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْواناً سِيماهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْراةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوى عَلى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾[الفتح: 29/28/27] (إن مجيء آية

---

(1) قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج6، ص3325.

(2) انظر: الطبري، جامع البيان، ج14، ص 214.

(3) قطب، سيد، في ظلال القرآن، المجلد 3، ص 1575- 1577، بتصرف .

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾... في سياق سورة الفتح يشعر بأن ما ذكرته هذه الآية هو مواصفات الجماعة التي تستأهل الرعاية والنصرة والغلبة، فلنتدبر الآية، وليحاول المسلم أن يأخذ حظّه مما ورد فيها، ولتحاول الطائفة القائمة بالحق أن تأخذ بحظها من ذلك الإيمان، والعمل الصالح، والوحدة والتلاحم والتفاني، ووضاءة الوجوه من العبادة، والركوع والسجود، والرحمة بالمؤمنين، والشدّة على الكافرين، ومجيء هذه الآية بعد قوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ يشعر أن وجود من هذا شأنهم هو الطريق إلى انتصار الإسلام، ولقد تحقق أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلم بما ورد في الآية، وعلى أتباعه- عليه الصلاة والسلام- أن يفعلوا ليكون لهم شرف المعيّة له صلّى الله عليه وسلم، فلئن فاتتهم معيّة الجسد فلا تفوتهم معيّة الاقتداء والتحقيق والتخلق)[1]، وأكد الله تعالى تحقيق الرؤيا بتصديق الرسول صلّى الله عليه وسلّم في كل شيء، فالله هو الذي أرسل رسوله محمداً بالهدى، أي بالإرشاد إلى الطريق الأقوم، وإلى دين الإسلام، والعلم النافع، والعمل الصالح، ليحقق إعلاءه وإظهاره على كل الأديان، وإن بقي من الدين الآخر أجزاء، وكفى بالله شاهدا عندكم بهذا الخبر ومعلما به، وبهذا الوعد، من إظهار دينه على جميع الأديان، وربط دخول المسجد الحرام بمشيئة الله، لتعليم العباد الأدب، وإرشادهم إلى تعليق كل أمر بمشيئة الله تعالى، سواء كان محقق الوقوع أو محتمل الوقوع.[2] فقوله تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ يقول: ليبطل به الملل كلها، حتى لا يكون دين سواه، وذلك كان كذلك حتى ينزل عيسى ابن مريم، فيقتل الدجال، فحينئذ تبطل الأديان كلها، غير دين الله الذي بعث به محمدا صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم، ويظهر الإسلام على الأديان كلها. [3]

(وأن محمداً -صلى الله عليه وسلم- رسول الله بلا شك ولا ريب ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ﴾ أي إن صحابته الذين معه غليظة قلوبهم على الكفار، رقيقة قلوب بعضهم على بعض، لينة أنفسهم لهم، هينة عليهم، ونحو الآية

([1]) حوا، سعيد، الأساس في التفسير، ج9 ، ص5387.

([2]) الزحيلي، الوسيط، ج3، ص 2466.

([3]) الطبري ، جامع البيان، ج22، ص 260 .

قوله: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة:123]، ثم أخبر سبحانه أنه نوّه بفضلهم في الكتب المنزلة والأخبار المتداولة فقال:(ذلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْراةِ) أي هذه الصفة التي وصفت لكم من صفات أتباع محمد صلّى الله عليه وسلّم هي صفتهم في التوراة، ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ﴾ أي إن أصحاب محمد صلّى الله عليه وسلّم يكونون قليلين ثم يزدادون ويكثرون ويستغلظون كزرع أخرج فراخه التي تتفرع على جانبيه كما يشاهد في الحنطة والشعير وغيرهما، فيقوى ويتحول من الدقة إلى الغلظ، ويستقيم على أصوله، فيعجب به الزراع لقوّته وكثافته وغلظه وحسن منظره [1] (والشدة على الكفار اقتبسوها من شدة النبي -صلى الله عليه وسلم- في إقامة الدين قال تعالى ﴿بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾[التوبة: 128] وأما كونهم رحماء بينهم فذلك من رسوخ أخوة الإيمان بينهم في نفوسهم)،[2] كما أننا نجد أنه في السورتين يبين الله تعالى التشابه في أهداف الدين، وغاياته السامية في الكتب السماوية، وصفات الصفوة من عباده فهنا قال ﴿مَثَلُهُمْ فِي التَّوْراةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ﴾ وفي سورة التوبة قال ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾[التوبة: 111]، فالبشارات الربانية متشابهة وفي الكتب السماوية لهذه الصفوة من العباد و لكل من وحّد الله تعالى واتبع شرعه .

وأخيراً أختم بهذه الآية العظيمة من سورة التوبة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾[التوبة: 116]، (فالله سبحانه وتعالى هو القادر على ملك السموات والأرض وما فيهما عبيده وملكه يحكم فيهم بما يشاء، يحيي من يشاء على الإيمان ويميته عليه، ويحيي من يشاء على الكفر ويميته عليه؛ لا اعتراض لأحد عليه في حكمه وعبيده فهو تعالى وليكم وناصركم، وليس لكم غيره يمنعكم من عدوكم وينصركم عليهم).[3] نسأل الله في

([1]) المراغي، تفسير المراغي، ج26، ص 115.

([2]) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج26، ص 204.

([3]) الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل، ج3 ، ص 157 .

علاه أن يحيينا ويميتنا على الإيمان، ونسأله تعالى النصر والثبات، وأن يرضى عنا وعن والدينا والمؤمنين ...اللهم آمين.

الخاتمــة:

الحمد لله الذي أتم علينا النعم، وأحمده وأشكره تعالى على ما منّ علي وأعانني على إكمال رسالتي بالصورة التي أرجو بها مرضاة ربي، ومنفعة المسلمين.

إن سورة التوبة، والتي شملت توبة الله تعالى ورحمته عباده المؤمنين، وحثّت آخرين، وهيأت لآخرين أسباب التوبة، وذلك أول السورة حتى آخرها، حيث هبت نسمات التوبة من بين ثنايا الآيات، وقد ختمتها بتوبته تعالى على خير المخلوقات، وعلى الذين هيأ لهم الاستغفار، فانتظروا فرجه وتوبته، ليرسم خطوطًا عريضةً في كمال عنايته لهداية خلقه، والولوج إليه من أوسع أبواب رحمته، ثم أن افتتاح السورة بالبراءة، وبدون بسملة يدخل في النفس الخوف والرهبة، وذلك شديد الوقع على النفوس، أزال الأمن والأمان وقطع العصمة بأقوى الشدائد المفاجئة، ثم في ذلك تفخيماً لشأن البراءة وتهويلاً لأمرها وتسجيلاً على الكفرة بغاية الذل والخزي والهوان، كيف لا وهي وما فيها من معاني التوبة جاءت لتحكي عن أزمات شداد فمن أزمة نقض العهود مع المشركين إلى أزمة قتالهم، ثم إلى أزمات الفساد المالي والأخلاقي والتربوي، إلى أزمة الإساءة لقائد الأمة والاستهزاء به وعدم طاعته، إلى أقوى أزمة واجهها عليه السلام في ذلك العهد، إنها أزمة النفاق وما أحدثه المنافقون في المجتمع المسلم، ولكن الله تعالى فضحهم في هذه السورة، ووصف أحوالهم، وكشف حقيقة نواياهم وحيلهم ومعاذيرهم في التخلف عن الجهاد، وبث الضعف والفتنة والفرقة في الصف المسلم وغيرها ... ، ولكن وكعادة القرآن في بث روح الأمل والتفاؤل وقت الأزمات .. تأتي البشائر الربانية في الدنيا والآخرة لتفتح باب الفرج على المؤمنين وتعدهم بالفوز العظيم في الدارين ... وهذا ما كان في هذه السورة .

النتائج:

1- إن الاهتمام بدراسة الشدائد والأزمات المذكورة في كتاب الله تعالى أمر في غاية الأهمية ، مع ما نعانيه اليوم من صعاب وآلام .

2- أن الأزمات تختلف في حدتها وخطورتها فهناك أزمة النفاق طويلة المدى، شديدة الخطورة، وهناك أزمات قصيرة المدى كالأزمات التي تحصل ببعض

المواسم والأوقات كأزمات الغزوات، وبعض الأزمات الاقتصادية أو الاجتماعية.

3-مبعث سيدنا محمد عليه السلام من أسباب عزّنا ورفعتنا وتقدمنا ، والإساءة له -عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم- من أهم أسباب الأزمات .

4-إن أزمات الفساد المالي من أخطر ما يواجه الاقتصاد، بل من أخطر ما يواجه الأمة .

5-إن أكبر خطر يواجهه المؤمنون في كل زمان هم المنافقون وولاؤهم للكافرين.

6-للجهاد بالمال والنفس مكانة عظيمة بينتها السورة، وللمجاهدين في سبيل الله تعالى أعظم الدرجات، وهم أهل البيعة.

7-وجوب طلب العلم، وخطورة تعطيل العقول والتقليد الأعمى .

8- على المؤمنين التنبه لبعض الأمراض النفسية القاتلة للنجاح "كالعجب والغرور واليأس".

9- التربية على التفاؤل والثقة بالله صمام أمان وقت الأزمات، وأن بعد العسر يسر، ومهما بلغت الأزمة مداها فهي إلى زوال بإذن الله .

التوصيات:

1-دراسة سور القرآن دراسة تحليلية وبيان الأزمات التي تحدثت عنها، والأزمات التي واجهته عليه الصلاة والسلام ، والافادة منها على أرض الواقع .

2-بث روح التفاؤل والأمل والبشائر بين الناس خاصة مع ما يعانوه اليوم من أزمات صعاب .

3-زيادة البحث في الربط بين السور القرآنية في موضوع الأزمات، وبيان المنهج القرآني في التعامل معها .

4-ضرورة الاهتمام والبحث عن الأخطار والشدائد والصعاب التي تجتاح الأمة، ودراستها وبيان فضل الله تعالى علينا في كيفية الخروج منها، وذلك من خلال النماذج القرآنية.

5-وجوب تعظيم محبة الله تعالى ورسوله في نفوسنا، والتحذير من الاستهزاء بالله وآياته، ومن التقصير في حق نبينا عليه الصلاة والسلام، أو الإساءة لشخصه

الكريم، وتربية النشء عليها وتدريسها في مناهجنا، وأن السبيل الوحيد للخروج بما نحن فيه من صعاب وأزمات هو طاعة الله ورسوله.

المصادر والمراجع

أحمد بن حنبل، **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، ط2، المحقق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط2، 1420هـ، 1999م .

الأثير، محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري عز الدين (ت630هـ)، **الكامل في التاريخ**، ط1، تحقيق: أبو الفداء القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987.

الأثير، أبو الحسن علي بن ابي الكرم، محمد بن محمد بن عبدالكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري عز الدين (ت 630هـ)، **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، ط1، دار الكتب العلمية، 1994 .

الأزرقي، أبي الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد، (ت 250 هـ)، **أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار**، ط1، دراسة وتحقيق: علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية.

الأصفهاني، راغب، الحسين بن محمد أبو القاسم، (ت 503 هـ)، **المفردات في غريب القرآن**، ط4، تحقيق صفوان عدنان داووي، دار القلم، دمشق، 2009م.

إمام ، ابراهيم، **المخدرات أخطر معوقات التنمية**، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، الطبعة: (السنة الرابعة عشرة–العدد الرابع والخمسون)، ربيع الثاني–جمادى الأولى–جمادى الآخرة 1402هـ.

الألوسي، العلامة أبي الفضل شهاب الدين، السيد محمود، (ت 127 هـ)، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، ط1، ضبط: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، 2001 م.

البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله الجعفي (ت256هـ)، **الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه صحيح البخاري**، ط 1، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، دمشق، 1422هـ، مع الكتاب شرح وتعليق مصطفى ديب البغا أستاذ الحديث وعلومه في كلية الشريعة، جامعة دمشق.

البغوي، الحسين بن مسعود، (ت 516 هـ)، **معالم التنزيل**، ط4، تحقيق: محمد عبد الله النمر، دار طيبة.

البقاعي، برهان الدين أبي الحسن ابراهيم بن عمر، (ت 885هـ)، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، ط1، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، 1974 م.

البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد (ت 691 هـ)، **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، ط1، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث، بيروت، 1418هـ.

الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، أبو عيسى (ت 279هـ)، الجامع الكبير، **سنن الترمذي**، المحقق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998م.

الثعالبي، عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف (ت 875هـ)، **الجواهر الحسان في تفسير القرآن**، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1997 م.

الجزائري، جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر، **أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير**، ط5، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية ، 1424هـ/2003م .

جلدة، سليم بطرس، **الاستراتيجيات الحديثة لإدارة الأزمات في ظل عالم متغير**، ط1، دار الراية، عمان، 2010 .

ابن الجوزي، أبي الفرج جمال الدين بن عبدالرحمن بن علي بن محمد، (ت 597هـ)، **زاد المسير في علم التفسير**، ط1، دار ابن حزم، بيروت، 2002م.

ابن الجوزي، أبي الفرج جمال الدين بن عبدالرحمن بن علي بن محمد، (ت 597هـ)، **زاد المسير في علم التفسير**، وطبعة دار الفكر، بيروت، 1978 .

ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد، (ت 597هـ)، **مثير العزم الساكن إلى أشرف الأماكن**، ط1، المحقق: مرزوق علي إبراهيم، تقديم: حماد بن محمد الأنصاري، دار الراية، ط1، 1415هـ-1995م.

ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد القرشي، **التذكرة في الوعظ**، ط1، تحقيق: أحمد عبد الوهاب فتيح، دار المعرفة، بيروت، 1986م.

الحاكم النيسابوري، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه، (ت 405هـ)، **المستدرك على الصحيحين**، ط1، تحقيق: أبو عبد الرحمن مقبل بن هادي الوادعي، دار الحرمين، القاهرة، 1997م.

حجازي ، محمد محمود، **التفسير الواضح**، ط5، دار الجيل، القاهرة، 1970 .

ابن حجر، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل، (ت 852 هـ)، **الإصابة في تمييز الصحابة**، ط1، تحقيق: علي محمد البجاوي،دار الجيل، بيروت، 1412هـ.

ابن حجر، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد العسقلاني (ت 852هـ)، **إتحاف المهرة بالفوائد المبتكرة من أطراف العشرة**، ط1، تحقيق: مركز خدمة السنة والسيرة، بإشراف زهير بن ناصر الناصر، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف (بالمدينة)، 1415هـ- 1994م .

ابن حجر، أحمد بن علي أبو الفضل العسقلاني الشافعي، **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، دار المعرفة، بيروت، 1379هـ، رقّم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب.

الحجى، عبد الرحمن على، **السيرة النبوية منهجية دراستها واستعراض أحداثها**، ط1، دار ابن كثير، دمشق، 1420هـ.

الحموي، ياقوت بن عبد الله (ت 626 هـ)، **معجم البلدان**، ط1، دار إحياء التراث، بيروت، 1997 .

حوا، سعيد، **الأساس في التفسير**، ط1، دار السلام، القاهرة، 1985م.

أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف، (ت 745 هـ)، **البحر المحيط**، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1994م.

الخازن، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي (ت 741هـ)، **تفسير الخازن المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل**، ط1، تصحيح: محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، 1415 هـ.

الخضيري، محسن أحمد، **ادارة الأزمات**، مكتبة مدبولي، 1993.

أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (ت 275هـ)، **سنن أبي داود**، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.

الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز (ت 748هـ)، **تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير وَالأعلام**، ط1، المحقق: الدكتور بشار عوّاد معروف، دار الغرب الإسلامي، 2003 م.

الرازي، محمد فخر الدين ابن العلامة ضياء الدين عمر، (ت 604هـ)، **تفسير الفخر الرازي التفسير الكبير ومفاتيح الغيب**، ط1، دار الفكر، بيروت، 1981.

الرازي، محمد فخر الدين ابن العلامة ضياء الدين عمر، (ت 604هـ)، **تفسير الفخر الرازي التفسير الكبير ومفاتيح الغيب**، دار الفكر، بيروت، 1990.

الرافعي، مصطفى، **الإسلام ومشكلات العصر**، ط2، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1981 .

رضا، محمد رشيد، (ت 1935م)، **تفسير القرآن الحكيم (المنار)**، ط2، دار المنار، القاهرة ،1947.

رضا، محمد رشيد، (ت 1935م)، **تفسير القرآن الحكيم (المنار)**، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990م.

رضوان، علي حسن، **تفسير سورة التوبة**، ط1، دار الطباعة المحمدية، القاهرة، 1992 .

الزحيلي، محمد، **موسوعة قضايا اسلامية معاصرة**، دار المكتبي، سورية، ط1، 2009م.

الزحيلي، وهبة، **التفسير المنير**، ط1، دار الفكر، بيروت، 1991.

الزرقاني، محمد عبد العظيم الزُّرْقاني (ت 1367هـ)، **مناهل العرفان في علوم القرآن**، ط3، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه.

الزركلي، خير الدين، **الأعلام** ، ط5، دار العلم، بيروت، 1980.

الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، جار الله (ت 538هـ)، **الجبال والأمكنة والمياه**، المحقق: أحمد عبد التواب عوض، دار الفضيلة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1999م.

الزمخشري، محمود بن عمر، (ت 538 هـ)، **الكشاف**، دار الفكر، بيروت.

زهران، حامد عبد السلام، **التوجيه والإرشاد النفسي**، ط3، عالم الكتب، القاهرة، 1998م.

السباعي، مصطفى بن حسني (ت 1384هـ)، **السيرة النبوية-دروس وعبر**، ط3، المكتب الإسلامي، 1405 هـ- 1985م.

السجستاني، أبو بكر محمد بن عزيز، (330هـ)، **كتاب غريب القرآن**، تحقيق: محمد أديب عبد الواحد جمران، دار قتيبة، 1995م.

ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء، البصري،(ت 230هـ)، **الطبقات الكبرى**، ط1، المحقق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968م.

السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، ط1، تحقيق عبد الرحمن بن معلا، مؤسسة الرسالة، عمان، 2000م.

أبو السعود، محمد بن محمد العمادي الحنفي قاضي القضاة، (ت 982هـ)، **ارشاد العقل السليم الى مزايا الكتاب الكريم، تفسير أبو السعود**، ط4، دار احياء التراث العربي، بيروت، 1994م.

أبو السعود، محمد بن محمد العمادي الحنفي قاضي القضاة، (ت 982هـ)، **ارشاد العقل السليم الى مزايا الكتاب الكريم، تفسير أبو السعود**، طبعة مصر، 1275هـ.

السمرقندي، أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم (ت 373هـ)، **بحر العلوم**، تحقيق: محمود مطرجي، دار الفكر، بيروت.

السمعاني، عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي المروزي، أبو سعد (ت 562هـ)، **الأنساب**، ط1، المحقق: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، 1962م.

السيوطي، جلال الدين أبو عبدالرحمن، (ت 911هـ)، **أسباب النزول**، ط1، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، 2002 .

سيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، **الإتقان في علوم القرآن**، ط1، تحقيق: فواز أحمد، دار الكتاب العربي، بيروت، 2004 .

السيوطي، عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين، **الدر المنثور**، دار الفكر، بيروت، 1993.

بنت الشاطيء، عائشة عبد الرحمن، (ت 1998م)، **مع المصطفى عليه الصلاة والسلام**، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت، 1972.

شُرَّاب، محمد بن محمد حسن، **المعالم الأثيرة في السنة والسيرة**، ط1، الدار القلم، الدار الشامية، دمشق، بيروت، 1411 هـ .

الشعراوي، محمد متولي (ت 1418هـ)، **تفسير الشعراوي**، دار أخبار اليوم، 1997.

شمائل، عبد المؤمن بن عبد الحق، القطيعي البغدادي، الحنبلي، صفيّ الدين (ت739هـ)، **مراصد الاطلاع على اسماء الامكنة والبقاع**، ط1، دار الجيل، بيروت، 1412هـ.

الشنقيطي، سيد محمد ساداتي، **القنوات الفضائية**، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، 1420هـ- 1999م.

الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني (ت 1393هـ)، **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1415 هـ- 1995م.

الشوكاني، محمد بن علي بن محمد، (ت 1250 هـ)، **فتح القدير**، ط4، راجعه يوسف الغوش، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 2007م.

الشيخ، سوسن سالم، **ادارة ومعالجة الأزمات في الإسلام**، ط1، دار النشر للجامعات، مصر، 2003م .

الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم، (ت 360 هـ)، **المعجم الكبير**، ط2، مكتبة العلوم والحكم، الموصل، 1404–1983، تحقيق: حمدي بن عبدالمجيد السلفي .

الطبري، أبو جعفر، محمد بن جرير بن يزيد الآملي، (ت 310 هـ)، **جامع البيان في تأويل القرآن**، ط1، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، عمان، 2000 م.

الطنطاوي، محمد سيد،(ت2010م)، **التفسير الوسيط للقرآن الكريم**، ط1، دار نهضة مصر، القاهرة ، 1998م .

طنطاوي جوهري، **الجواهر في تفسير القرآن الكريم**، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، 1346هـ.

ابن عاشور، الإمام محمد الطاهر، ت (1393هـ- 1973م)، **التحرير والتنوير**، الدار التونسية، تونس، 1984.

ابن عاشور، الإمام محمد الطاهر، ت (1393هـ- 1973م)، **التحرير والتنوير**، دار سحنون للنشر والتوزيع، 1997.

عبد الباقي، محمد فؤاد، **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم** ، ط2، دار الفكر، بيروت، 1981.

ابن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد، (ت463هـ)، **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، ط1، دار الجيل، بيروت، 1992 .

عبد الرزاق، أبو بكر بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني (ت211هـ)، **تفسير عبد الرزاق**، ط1، دراسة وتحقيق: محمود محمد عبده، دار الكتب العلمية، بيروت، سنة 1419هـ .

عبوي، زيد منير، **ادارة الأزمات** ، ط1، دار كنوز المعرفة، عمان، 2007م.

عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (ت 542هـ)، **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، ط1، المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، 1422هـ.

العلواني، طه جابر، طه جابر، **الأزمة الفكرية المعاصرة**، ط4، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الولايات المتحدة الأمريكية، 1994م .

الغزالي، محمد (ت1416هـ)، **فقه السيرة**، ط6، دار الكتب الحديثة، مصر، 1965.

الغضبان، منير محمد (ت 1435هـ)، **فقه السيرة النبوية**، ط2 ، جامعة أم القرى، 1992م.

الفارابي، أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم بن الحسين (ت 350هـ)، **معجم ديوان الأدب**، تحقيق: دكتور أحمد مختار عمر، مؤسسة دار الشعب للصحافة والطباعة والنشر، القاهرة ، 2003 م.

ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكريا (ت 395هـ)، **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق عبد السلام محمد هارون، الدار الاسلامية، مصر، 1990.

ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكريا (ت 395هـ)، **معجم مقاييس اللغة**، طبعة دار الفكر، 1979 .

أبو فارس، محمد عبد القادر، **الهجرة النبوية**، ط1، دار الفرقان، عمان ، 1982 .

القاسمي، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق (ت 1332هـ) ، **محاسن التأويل**، ط1، المحقق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، 1418 هـ .

ابن قدامة، أبو محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد، المقدسي (ت 620هـ)، **المغني**، ط3، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، والدكتور عبد الفتاح محمد الحلو، عالم الكتب، الرياض، السعودية، 1417هـ-1997م .

القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي، شمس الدين القرطبي، (ت 671 هـ)، **الجامع لأحكام القرآن**، ط1، تحقيق هشام سمير البخاري، دار الكتب، الرياض، 2003م.

القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي، شمس الدين القرطبي، (ت 671 هـ)، **الجامع لأحكام القرآن**، طبعة مؤسسة مناهل العرفان، بيروت، لبنان.

القشيري، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك، (ت 465 هـ)، **لطائف الإشارات**، ط3، تحقيق إبراهيم بسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 2000.

القطان، إبراهيم (ت 1404هـ)، **تيسير التفسير**، ط1، 1983، عمان، الأردن.

قطب، سيد، إبراهيم حسين الشاربي، (ت 1385هـ)، **في ظلال القرآن**، ط 12، دار العلم، جدة، المجلد 3، 1986.

ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب (ت 751هـ)، **مدارج السالكين**، ط7، تحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، 2003.

ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين (ت 751هـ)، **زاد المعاد في هدي خير العباد**، ط27، مؤسسة الرسالة، بيروت، مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، 1994م.

ابن كثير، (ت 774 هـ)، أبي الفداء اسماعيل بن عمر، **الفصول في سيرة الرسول**، ط1، الشركة الجزائرية اللبنانية، 2006م.

ابن كثير، عماد الدين أبي الفداء اسماعيل بن كثير القرشي، (ت 774هـ)، **تفسير القرآن العظيم**، ط1، دار الخير، بيروت ، 1990.

كحالة، عمر رضا (ت 1408 هـ)، **معجم قبائل العرب** ، المكتبة الهاشمية، دمشق، 1949.

الكحراتي، جمال الدين، محمد طاهر بن علي الصديقي الهندي الفَتَّنِي (ت 986هـ)، **مجمع بحار الأنوار في غرائب التنزيل ولطائف الأخبار**، ط3، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، الهند، 1967م.

الكفوي، أبي البقاء أيوب بن موسى الحسيني، (ت 1094هـ)، **الكليات**، ط2، أعده للطبع عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1998 .

الكيلاني، عبد الله ابراهيم، **إدارة الأزمة مقاربة التراث والآخر**، ط1، كتاب الأمة ، عدد 131 ، مركز البحوث والدراسات، قطر، 2009 م.

الماوردي، أبو الحسن، علي بن محمد بن حبيب، (ت 450هـ)، **النكت والعيون**، تحقيق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت.

المباركفوري، صفي الرحمن، (ت 1427هـ)، **الرحيق المختوم**، ط1، دار الوفاء، المنصورة ، ٢٠٠٤ .

مجاهد بن جبر (ت 102 هـ)، **تفسير الإمام مجاهد**، ط1، تحقيق: محمد عبد السلام أبو النيل، دار الفكر الإسلامي ، مصر ، 1989م .

محمد، أحمد عبد العظيم، **التخطيط للهجرة**، ط1، دار التوزيع، مصر، 2003 .

المراغي، أحمد بن مصطفى المراغي (ت 1371هـ)، **تفسير المراغي**، ط1، مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي، بمصر، 1946م.

مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (ت 261هـ)، **المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم**، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

مقاتل أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخى، (ت 150هـ)، **تفسير مقاتل بن سليمان**، ط1، المحقق: عبد الله محمود شحاته، دار إحياء التراث، بيروت، 1423 هـ.

ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي الأنصاري (ت 711هـ)، **لسان العرب**، ط1، دار الحديث، القاهرة، 2003.

ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي الأنصاري (ت 711هـ)، **لسان العرب**، طبعة دار لسان العرب، بيروت، لبنان.

النابلسي، محمد راتب، **موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة**، ط2، دار المكتبي، سورية، 2005م.

النسفي، عبدالله بن أحمد بن محمود حافظ الدين أبو البركات (ت 710 هـ)، **مدارك التنزيل وحقائق التأويل**، ط1، تحقيق: يوسف علي بديوي، دار الكلم الطيب، بيروت، 1998م.

النوايسة، رياض حسين، **أنموذج مقترح لإدارة الأزمات في وزارة التربية والتعليم**، رسالة دكتوراة، 2006م.

النووي، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف (ت676هـ)، **المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج**، ط2، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1392هـ.

النيسابوري، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه، (ت 405هـ)، **المستدرك على الصحيحين**، ط1، تحقيق: أبو عبد الرحمن مقبل بن هادي الوادعي، دار الحرمين، القاهرة، 1997م.

النيسابوري، نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري (ت 850هـ)، **غرائب القرآن ورغائب الفرقان**، ط1، المحقق: الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، 1416 هـ .

ابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين، (ت 213هـ)، **تهذيب سيرة ابن هشام**، ط10، عبد السلام هارون، دار البحوث العلمية، الكويت، 1984.

ابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين، (ت 213هـ)، السيرة **النبوية لابن هشام**، ط2، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، 1375هـ - 1955 م.

الهمداني، أبو بكر محمد بن موسى بن عثمان الحازمي، زين الدين (ت 584هـ) **الأماكن، ما اتفق لفظه وافترق مسماه من الأمكنة**، المحقق: حمد بن محمد الجاسر، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، 1415هـ.

الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي، (ت 468هـ)، **الوسيط في تفسير القرآن المجيد**، ط1، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ، 1994 م .

الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي (ت 468 هـ)، **الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، ط1، تحقيق: صفوان عدنان داووي، دار القلم، بيروت ، 1415هـ.

الواحدي، علي بن أحمد بن محمد (ت 468 هـ)، **التفسير البسيط**، تحقيق ابراهيم بن علي الحسن، سلسلة الرسائل الجامعية، الرياض، 1430هـ.

الواحدي، الإمام أبي الحسن علي بن أحمد، (ت 468 هـ)، تحقيق كمال بسيوني زغلول، **أسباب نزول القرآن**، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1991 م.

الواقدي، محمد بن عمر بن واقد السهمي الأسلمي بالولاء، المدني، أبو عبد الله، (ت207هـ)، **المغازي**، ط3، تحقيق: مارسدن جونس، دار الأعلمي، بيروت، 1989م.

وجدي، محمد فريد، **دائرة معارف القرن العشرين**، ط3، دار المعرفة، بيروت، 1971م.

اليحصبي، أبو الفضل القاضي عياض بن موسى (ت 544هـ)، **الشفا بتعريف حقوق المصطفى**، مذيلا بالحاشية المسماة مزيل الخفاء عن ألفاظ الشفاء الشفا بتعريف حقوق المصطفى، الحاشية: أحمد بن محمد بن محمد الشمني (ت873هـ)، دار الفكر الطباعة والنشر والتوزيع، 1409هـ- 1988 م.

أبو يوسف، يعقوب بن ابراهيم بن حبيب بن سعد، (ت 182هـ)، **الخراج**، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة .

المجلات ورسائل الماجستير والبحوث العلمية:

الجمل، صديقة محمد سليمان، **الهدي النبوي في إدارة الأزمات الاجتماعية العامة**، بإشراف الجامعة الأردنية، رسالة ماجستير، 2008م .

الخطيب، حسن عبد الله طه، **أهداف ومقاصد موضوعات سورة التوبة**، بإشراف الجامعة الاسلامية، غزة ، رسالة ماجستير، 2008م.

الربيعة، إبراهيم بن عبد الرحمن، **فاعلية التدريب في تنمية القدرة على توقع الأزمات**، رسالة ماجستير، 1420هـ.

الرويلي، علي بن هلهول، **إدارة الأزمة، استراتيجية المواجهة** ، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، الرياض، 2011/4/30- 2011/5/4م.

السيد، رمزي حبيب، **مراكز إدارة الأزمات**، الحرس الوطني، العدد (171)، 1996/11/10م .

شقرة، محمد عاصم محمد ابراهيم: **نحو أنموذج اسلامي لإدارة الأزمات،** بإشراف الجامعة الأردنية، رسالة ماجستير، 1995م.
الشلوي، فهد بن ناجي، **دور التربية الإسلامية في مواجهة الأزمات من خلال السيرة النبوية** ، رسالة ماجستير، أم القرى، 1428 هـ.
صفوان، حاج اسماعيل عبد الله، **معالم الجهاد في سورة التوبة،** بإشراف جامعة آل البيت، الأردن، رسالة ماجستير، 2000م.
عبد الله، عايد محمد، **دلالة فعلي البيع والشراء في القرآن الكريم،** العدد 10، 2008، جامعة القادسية، مركز دراسات الكوفة .
القرم، محمد حسين أمين، **تطوير أنموذج لإدارة الأزمات في مؤسسات التعليم العالي في الأردن** ، بإشراف الجامعة الأردنية ، رسالة ماجستير، 2008م
مجلة البحث العلمي الإسلامي، السنة العاشرة، العدد الثالث والعشرون، 2014/12/28م، رئيس التحرير، سعد الدين بن محمد الكبي، **حرمات مشاعر الحج وشعائره ووقايتها من الفتن** ، محمد سليم مصطفى " محمد علي".
مجلة البحوث الإسلامية، الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن محمد آل الشيخ، **الإرهاب،** الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد العدد70، رجب– شوال ، 1424 هـ.
مجلة البيان ، المنتدى الإسلامي ، **مواضيع منوعة** ، مجلة إسلامية –شهرية– جامعة، الأعداد (74، 218، 162، 197، 222)، من 1414هـ إلى 1428 هـ .
محمد، ايثار عبد الهادي، **استراتيجية ادارة الأزمات،** تأطير مفاهيمي على وفق المنظور الاسلامي، البحث منشور في مجلة العلوم الاقتصادية والإدارية، كلية الادارة والاقتصاد، جامعة بغداد، كانون الأول(2011)، المجلد (17)، العدد (64).
المرزوقي، عمر بن فيحان، **التبعية الاقتصادية في الدول العربية وعلاجها في الاقتصاد الإسلامي،** الرشد ناشرون، الطبعة: 1426هـ–2005م، رسالة

مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في الاقتصاد الإسلامي، بتاريخ: 29/11/1415هـ.

مندورة، إنصاف كرم، **أزمة الثقافة في المجتمع الإسلامي المعاصر**، رسالة ماجستير، بإشراف جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، 1405هـ.

اليازجي، صبحي رشيد، **من وحي القرآن الكريم**، مجلة الجامعة الإسلامية، غزة،(سلسلة الدراسات الإسلامية) المجلد التاسع عشر، العدد الثاني، يونيو 2011.

المواقع الإلكترونية:

http//www.alukah.net ، الشيخ إبراهيم بن محمد الحقيل.

http:// ar.wikipedia.org/wiki/

http://www.Aluka.net، محاضرات لمجموعة من العلماء والدعاة، المحاضرة للعلامة (الألباني)، صفر، 1429هـ.

http//www.alminbar. net ، موسوعة خطب المنبر، 2007/6/15 م، الشيخ الألباني .

http// www.alukah.net/culture، مظاهر الأزمة في الفكر الإسلامي ودور الوعي المنهجي في معالجتها ، خالد أوعبو، 2015/1/7 م

www.m.ahewar.org/s.asj ، صالح، علي عبد الرحيم، سيكولوجية الأزمة بين الفرد والمجتمع (دراسات نفسية في النفس الإنسانية)، دار البيت الثقافي، العراق، 2009.

www.nabulsi.com/blue/a ، محمد راتب النابلسي ، تاريخ 2001/4/27م.

www.ye1.org/forum/thr ، الشريان، حسان بن علي بن ناجي، الحرب النفسية بين المسلمين وبين المنافقين من خلال سورة التوبة ، 2012/5/28 م .

ملحق (أ)
الآيات القرآنية

فهرس الآيات القرآنية

الرقم	السورة	رقم الآية	رقم الصفحة
36	﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا...	13	78/60/41
37	﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ...	40	246/64/61/46
38	﴿إلا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا...	39	90
39	﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا...	97	207/125
40	﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ...	112	262
41	﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهاجَرُوا...	20	258
42	﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ...	79	187/166/115
43	﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ...	70	215
44	﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ...	104	265/28
45	﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ...	62	152
46	﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ...	67	258/166
47	﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ ...	16	138/38
48	﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ	116	276
49	﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ...	111	276/271/263/262
50	﴿إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ...	50	160/25
51	﴿إِنَّ عِدَّةَ الشهور...	36	191/148/147/146 209/208/
52	﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالا وَجَاهِدُوا	41	113/76
53	﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ...	93	203/116/104
54	﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ ...	60	185/107
55	﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ...	37	145
56	﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ...	45	223/155

الرقم	السورة	رقم الآية	رقم الصفحة
57	﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ...	18	60
58	﴿أَوَلا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ...	126	227
59	﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ...	1	177/120/50/40
60	﴿ثُمَّ أَنزلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ...	26	244/230/229
61	﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ...	27	244/87/28
62	﴿خالِدِينَ فِيها أَبَداً إِنَّ اللَّهَ ...	22	241
63	﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً...	103	133/108
64	﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ..	87	203/116/104
65	﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ...	95	173/172/150
66	﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ...	43	268/266/155/73
67	﴿ فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ...	5	208/191/181/83
68	﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ...	77	43
69	﴿ فَإِنْ تابُوا وَأَقامُوا الصَّلاةَ...	11	/181/84/83/28 214/202/198
70	﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ...	129	253/29
71	﴿ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ...	83	170
72	﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ...	81	226/203/159/92
73	﴿ فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ...	2	/177/120/82/59 190/181/179
74	﴿فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا ...	55	/231/218/105/94 232
75	﴿فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ...	76	43
76	﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا...	82	159

الرقم	السورة	رقم الآية	رقم الصفحة
77	﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ...	29	80/46
78	﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ...	14	228/90/77/41
79	﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ...	24	141/139/72/46
80	﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ...	53	227
81	﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلا مَا كَتَبَ...	51	254/25
82	﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا ...	52	247
83	﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا...	69	215
84	﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ...	8	195/78
85	﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ...	7	243/193/78
86	﴿لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ...	66	153
87	﴿لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَمَسْجِدٌ...	108	249
88	﴿لاَ يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلاًّ...	10	197/78
89	﴿ لا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا...	110	224
90	﴿ لا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ...	44	155/114
91	﴿ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ...	48	223/157
92	﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ...	117	266/265/91/22
93	﴿لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ...	128	274/253/29
94	﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ الله فِى مَوَاطِنَ ...	25	230/229
95	﴿ لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا...	88	261/116
96	﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلا...	47	223/157/44
97	﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا...	42	150/93
98	﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ...	57	151

الرقم	السورة	رقم الآية	رقم الصفحة
99	﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ...	91	134/104/94/72
100	﴿مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ...	120	128
101	﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا	17	58
102	﴿مَا كانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا...	113	52/51
103	﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ...	33	/274/251/250/46 275
104	﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ...	102	131
105	﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللَّهِ...	106	71
106	﴿وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا...	86	116/94
107	﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ...	124	225/168
108	﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ...	127	204
109	﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ...	3	191/177/59/50
110	﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ...	100	274/261/129/35
111	﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ...	71	259/258/108
112	﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ...	125	226/168
113	﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ..	6	201/181/56
114	﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ...	12	77
115	﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ...	90	125
116	﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ...	68	173
117	﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ...	72	259
118	﴿وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا...	118	134/133/72/32
119	﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ...	30	144/121
120	﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ...	105	275

الرقم	السورة	رقم الآية	رقم الصفحة
121	﴿وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ...	84	171/73/46
122	﴿وَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلادُهُمْ...	85	231/218/172/94/44
123	﴿ وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ...	92	232/134/104/94
124	﴿وَلا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً...	121	95/82
125	﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّو...	46	155/116
126	﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوْاْ مَا ءاتاهم...	59	184
127	﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ...	65	165
128	﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ...	115	52
129	﴿وَما كانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِيمَ...	114	51
130	﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا...	122	206/205
131	﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ ...	54	160
132	﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الأعْرَابِ...	101	128/124
133	﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ...	98	269/126
134	﴿وَمِنَ الأعراب مَن يُؤْمِنُ بالله...	99	261/127
135	﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ...	61	252/185/162/46
136	﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ...	75	102/43
137	﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ...	49	227/23/156
138	﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ...	58	/184/161/106/46 226/185
139	﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ...	56	227/151/150
140	﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ...	15	243/228/77/41
141	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ...	119	244
142	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا...	34	99/98/43

الرقم	السورة	رقم الآية	رقم الصفحة
143	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا ...	28	103
144	﴿ يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا قاتِلُوا...	123	276/80/79
145	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا	23	165/148/147
146	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ...	38	131/89/76
147	﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ...	73	170/169/153/80
148	﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ...	21	258/241
149	﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنزلَ...	64	165
150	﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ...	62	152/150
151	﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قالُوا...	74	255/164/153/150
152	﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ...	96	150
153	﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُواْ نُورَ الله ...	32	143
154	﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذا رَجَعْتُمْ...	94	257
155	﴿ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا...	35	100
	سورة يونس		
156	﴿أَكانَ لِلنَّاسِ عَجَباً...	2	253
157	﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ ...	62	241
158	﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ...	63	241
159	﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ...	88	19
160	﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...	64	241
161	﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ...	5	210
162	﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ...	12	20
	سورة هود		
163	﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإنسان مِنَّا رَحْمَةً...	9	234

الرقم	السورة	رقم الآية	رقم الصفحة
	سورة يوسف		
164	﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ...	48	19
165	﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ...	51	25
166	﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إلا...	109	126
	سورة الحجر		
167	﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ...	94	47
168	﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾	95	47
	سورة النحل		
169	﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ...	32	241
	سورة الإسراء		
170	﴿لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾	44	205
171	﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ...	76	61
172	﴿وَكَانَ الإنسان كَفُورًا﴾	67	126
173	﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً...	29	99
	سورة مريم		
174	﴿قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِر...	47	51
	سورة طه		
175	﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ﴾	86	17
	سورة الحج		
176	﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ...	46	200
177	﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ...	65	201
178	﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا...	17	216/121
179	﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ...	25	193

رقم الصفحة	رقم الآية	السورة	الرقم
271	8	﴿إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً...	196
270/267	1	﴿إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً	197
269	23	﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ...	198
271	9	﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ...	199
273/272/35	18	﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ...	200
268/267	5	﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ	201
268/267/266	2	﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ	202
268	4	﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ...	203
269	21	﴿وَأُخْرى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْها...	204
273/269	20	﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغانِمَ كَثِيرَةً...	205
268	7	﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ	206
270/269	22	﴿وَلَوْ قاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا...	207
273/35	19	﴿وَمَغانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَها...	208
270/269	24	﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ...	209
269/268	6	﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ وَالْمُنافِقاتِ	210
268	3	﴿وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً	211
		سورة الحجرات	
186	2	﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا...	212
		سورة الذاريات	
24	13	﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النار يُفْتَنُونَ...	213
24	14	﴿ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ...	214
		سورة الحديد	
25	22	﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ...	215

الرقم	السورة	رقم الآية	رقم الصفحة
	سورة الحشر		
216	﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ...	10	130
	سورة الممتحنة		
217	﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ...	1	61
	سورة الصف		
218	﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ على تِجَارَةٍ	10	262
	سورة الجمعة		
219	﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا...	3	130
	سورة المنافقون		
220	﴿لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ...	8	173/81
	سورة التغابن		
221	﴿إِنَّمَا أموالكم وأولادكم فِتْنَةٌ...	15	23
	سورة الطلاق		
222	﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ...	7	23
	سورة التحريم		
223	﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ...	9	170/169/153/80
	سورة القلم		
224	﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ	4	175
	سورة البروج		
225	﴿إِنَّ الذين فَتَنُواْ المؤمنين...	10	24/23
	سورة الشرح		
226	﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾	6	240/23
227	﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾	5	240/23

الرقم	السورة	رقم الآية	رقم الصفحة
	سورة العلق		
228	﴿أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى﴾	7	201
229	﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى﴾	6	102

ملحق (ب)

الأحاديث النبوية الشريفة

فهرس الأحاديث النبوية

22-	قصة غزوة حنين	البخاري/مسلم	83
23-	قد علمت أن أحب البلاد	طبراني	61
24-	لا تقوم الساعة حتى تأخذ امتي بأخذ	البخاري	238
25-	ولكن جهاد ونية...	البخاري	77
26-	لتتبعن سنن من كان قبلكم	البخاري	238/216
27-	لقد أنزلت علي آية خير من الدنيا جميعها	البخاري	269
28-	لِمَ لم تكتبوا في " براءة	الحاكم	41
29-	لم يبق من النبوة إلا المبشرات	البخاري	242
30-	لما نزلت آية الصدقة	البخاري	115
31-	مررت بالربذة	البخاري	100
32-	من آتاه الله مالا، فلم يؤد زكاته	البخاري/مسلم	101
33-	من بنى مسجد	البخاري/مسلم	250/124
34-	مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا	الترمذي	204
35-	من قتل قتيلا فله سلبه	البخاري	87
36-	من لا يشكر الناس لا يشكر الله	الترمذي	2
37-	من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين	البخاري/مسلم	205
38-	ويلك، من يعدل إذا لم أعدل	البخاري	160
39-	يا أبا بكر ما ظنك باثنين...	البخاري	64
40-	يا عديّ، اطرح هذا الوثنَ من عنقك	الترمذي	142
41-	يا معشر الأنصار...	البخاري	87
42-	يخرج من ضئضئ هذا قوم يمرقون	البخاري	106
43-	يوشك الأمم أن تداعى	أبو داوود	236

الرقم	أسماء الأعلام	الصفحة

ملحق (ج)

الأعلام

فهرس الأعلام

المعلومات الشخصية:

الاسم: زينب عبد الرزاق الرعود

العنوان: المملكة الأردنية الهاشمية/ الطفيلة

التخصص: ماجستير أصول الدين/ التفسير وعلومه